الفَهرس

القسم الأول

الرسالة والرسول

القسم الثاني

تطور الحضارة الإسلامية

الفصل الأول :

تـعـريـف

في الصفحات التالية حديث عن الإسلام، عن الرسالة، وعن الرسول الذي حمل الرسالة وبلغها، وعن وضع أسس الحضارة الإسلامية ونشأة هذه الحضارة وتطورها خلال ألف وأربعمائة سنة من عمر التاريخ. وفي مسيرة هذه الحضارة وتطورها مراحل وتقلبات: مرحلة النشأة والقوة والعطاء والإنجازات الكبيرة، ومرحلة ظهور العوامل المرضية التي ولدت تمزقاً وشتاتاً، ثم مرحلة الضعف والجمود، ومرحلة الانكسار أمام الحضارة الغربية. وقد أتبعنا ذلك بحديث سريع عن مستقبل الحضارة الإسلامية كما يراه كثيرون من أبنائها في مختلف الأقطار الإسلامية.

ونظراً لسعة الموضوع من الناحية الزمنية، إذ تمتد الفترة من القرن السابع الميلادي إلى القرن العشرين، ومن الناحية المكانية، حيث تنتشر الأقطار الإسلامية في المنطقة الممتدة من إندونيسيا في الشرق إلى سواحل المحيط الأطلنطي في الغرب، فقد كان من الضروري أن نضغط كمية المعلومات في أضيق حيز ممكن لتظهر في كتاب من مجلد واحد يمكن قراءته دون عناء. وقد فرض هذا الهدف عليّ الإيجاز الشديد، والتركيز على الجوانب المهمة بإعطائها قدراً كافياً من الوضوح، أما بالنسبة للجوانب الهامشية والعرضية فقد اكتفيت بأن أرسم خطوطها العريضة. هكذا كان الأمر بالنسبة للتحركات والأحداث العسكرية، والتحركات والأحداث السياسية. ومما شجع على اللجوء إلى هذا الحل أننا جميعاً درسنا ونحن في المعاهد الثانوية والجامعات كثيراً من تاريخ الأحداث السياسية والعسكرية، فنسينا معظمها بعد أن تخرجنا وانغمسنا في الحياة العامة ولم نحتفظ إلا بخطوطها العريضة، هذا باستثناء المتخصصين منا طبعاً. والمتخصص له كتب ومراجع أخرى يعرف طريقه إليها.

ولقد حرصت منذ البداية على التزام الموضوعية، وإعطاء صورة صادقة للأحداث، ومما ساعد على ذلك أنني تناولت القضايا العامة والمواقف الكبرى، وكلها مشهورة ومعروفة. كذلك فقد تجنبت إثقال الكتاب بالحواشي وذكر المراجع، لكنني – مع هذا – حرصت على إثبات المصادر والمراجع بالنسبة للنقاط التي ظننت أن تثير في ذهن القارئ تساؤلاً أو شكوكاً من أي نوع. والمصادر التي اعتمدت عليها مصادر أولية وثيقة، بل هي في الدرجة الأولى من الوثاقة. ومما يسر الوصول إلى هذا الهدف أن نبي الإسلامي قد ظهر " في وضح نهار التاريخ " بخلاف جميع الأنبياء الآخرين، كما قال

أحد كبار المستشرقين البريطانيين المتخصصين في الدراسات الإسلامية. وقد ألحقت بنهاية الكتاب قائمة مختصرة بأهم المراجع التي استندت إليها، أكثرها باللغة العربية وبعضها بالإنجليزية.

ولعل من المناسب أن أذكر بأن الفصل الأخير الذي يتناول " مستقبل الحضارة الإسلامية " يختلف عن الفصول التي سبقته في أنه لا يتحدث عن الوقائع التي جرت في الماضي، بل يتحدث عن تصور للتطورات المقبلة. وبالرغم من أن العنصر الذاتي والاجتهاد الشخصي لا يمكن استبعادهما تماماً هنا فقد حاولنا أن تكون معالجتنا بعيدة عن الخيال والزهو.

أرجو أن أكون قد نجحت في إعطاء القارئ الياباني [1] صورة صحيحة، صحيحة في تقديمها للأحداث والوقائع، وصحيحة في رسم مشاعر الناس وتوجهاتهم ونظرتهم إلى الأمور. فإذا تحقق ذلك فإنني سأكون سعيداً بما تحقق، شاكراً لله على ما وفقني إليه.

وسلام الله عليك، أيها الأخ الكريم ورحمته وبركاته.

عبد الله أبو عِزَّة

[1] أعد هذا الكتاب في الأصل بناء على طلب ناشر ياباني ، بعد أزمة النفط في سبعينات القرن الماضي.

تـمـهـيـد

بلاد الإسلام

تمتد أراضي الأقطار الإسلامية اليوم في مساحات شاسعة بين المحيطين الأطلسي والهادئ، بين إندونيسيا والمملكة المغربية. أما مهد الإسلام فكان في شبه الجزيرة العربية. ولقد انطلق الإسلام – في بادئ أمره – من مكة المكرمة التي تقع على بعد حوالي سبعين كيلومتراً عن الساحل الغربي لأراضي المملكة العربية السعودية الحالية، وامتد ليشمل شبه الجزيرة العربية كلها، ثم ما لبث أن طوى تحت جناحيه – في عشرين من السنين تقريباً – مناطق الدول التي تعرف الآن باسم سوريا ولبنان والأردن والعراق ومصر، بالإضافة إلى الأراضي الفلسطينية التي اغتصبتها الحركة الصهيونية وأقامت فيها دولة أطلقت عليها اسم " إسرائيل " منذ سنة 1948م.

وإذا كان الإسلام قد ظهر وانتشر في النصف الأول من القرن السابع الميلادي فإن المنطقة التي نشأ فيها ونما شهدت أقدم الحضارات التي عرفها العالم القديم؛ فقد ظهرت الحضارة السومرية في جنوب العراق، كما ظهرت الحضارة المصرية في وادي النيل منذ الألف الرابع قبل الميلاد. وما لبثت هذه المنطقة أن شهدت قيام الإمبراطوريات القديمة، بدءاً بإمبراطوريتي سومر وأكّد، وتتابعت بعد ذلك الحضارات والإمبراطوريات في العراق والشام ومصر، من مصرية وبابلية وكلدانية وكنعانية وآشورية وفينيقية ودلمونية. كما شهد جنوب شبه الجزيرة العربية، في اليمن، قيام الدول والحضارات المعينية والقتبانية والسبئية والحميرية.

وما لبثت أن ظهرت قوة عالمية أخرى في فارس تبادلت النصر والهزيمة والسيطرة والخضوع مع الإمبراطوريات والدول التي قامت في العراق المجاور لها، كما اصطدمت بدول بلاد الشام ومصر.

وإذ ظهرت في بلاد اليونان قوة جديدة انطلقت من مقدونيا في القرن الرابع قبل الميلاد، ثم وحدت المدن والدويلات اليونانية وجعلت منها قوة مرهوبة الجانب، فقد اصطدمت هذه القوة مع الإمبراطورية الفارسية المعاصرة لها، وتمكن الإسكندر

المقدوني من هزيمة الفرس والسيطرة على المنطقة كلها، بما في ذلك مصر وبلاد الشام وآسيا الصغرى والعراق وإيران، بل ووصل إلى الهند. وبعد موت الإسكندر المقدوني سنة 323 ق.م. قسمت إمبراطوريته بين قادته، فنشأت عدة دول إغريقية كان منها دولة السلوقيين في بلاد الشام ودولة البطالمة في مصر. وقد امتد العمر بهذه الدول إلى ما قبل منتصف القرن الأول قبل الميلاد بقليل.

وكانت روما قد ظهرت على مسرح الأحداث في ما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد، وما لبثت أن نمت وتطورت حتى تحولت إلى إمبراطورية قبل بداية العصر الميلادي، حيث استولت على أراضي السلوقيين والبطالمة في الشام ومصر. وعندما انقسمت الإمبراطورية الرومانية بعد موت الإمبراطور قسطنطين الأول أصبحت المنطقة كلها، أعني الشام ومصر، تتبع الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي اتخذت من القسطنطينية – استنبول – عاصمة لها. وظل الأمر كذلك حتى ظهور الإسلام في أوائل القرن السابع الميلاد. وقد جاء القرن السابع الميلادي بينما كانت القوتان العالميتان الرئيسيتان (البيزنطية والساسانية) منهمكتين في حروب لا تكاد تهدأ حتى تبدأ من جديد، حيث كانت الدولتان تتقاسمان السيطرة في العالم القديم، وتتنازعان التفوق والغلب.

الحالة العامة في جنوب غربي آسيا عن ظهور الإسلام :

في بداية القرن السابع الميلادي كانت كل من الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الساسانية قد اعتراهما الإنهاك الشديد والتدهور السريع بعد حروب طويلة بينهما تبادلا فيها النصر والهزيمة، كما تبادلا السيطرة على سوريا ومصر. أما في شبه الجزيرة العربية فقد تلاشت الحضارات القديمة التي قامت في اليمن مثل حضارات معين وقتبان وسبأ وحمير. وقد تعرضت اليمن للغزو على يد الأحباش والفرس. أما بقية شبه الجزيرة العربية فلم تكن تخضع لأي دولة أجنبية باستثناء وجود جيوب صغيرة للنفوذ الساساني على السواحل الشرقية في البحرين وعُمان وجنوب العراق. وكانت هناك ثمة مملكة عربية تقوم في الحيرة، وتقوم بدور التابع للدولة الساسانية التي كانت تستخدمها في إخضاع القبائل العربية والحد من غاراتها على قوافل التجارة وعلى الأراضي الزراعية في جنوب العراق. وقد ضعف النفوذ الفارسي في بداية القرن السابع إلى أدنى درجاته وأخذت القبائل العربية تتفلت من خضوعها لهذا النفوذ من قبل ظهور الإسلام.

وشبه الجزيرة العربية صحراء واسعة توجد في وسطها وأطرافها بعض واحات وموارد مياه قليلة. والأرجح أنها كانت أقل جفافاً مما هي عليه الآن. ولم تكن هناك

وحدة سياسية تجمع نواحي شبه الجزيرة العربية. وكانت الوحدات السياسية تتمثل في القبائل. والقبيلة تَجَمُع بشري يرأسه زعيم يستمد مكانته من قوته الشخصية وقوة عائلته. ويعتقد أفراد القبيلة أنهم أحفاد جد واحد، غير أن هناك أمثلة لمجموعات صغيرة كانت تلحق بمجموعات أكبر طلباً للحماية ولا تلبث أن تذوب فيها، كما أن هناك أمثلة لتحالفات بين مجموعات متساوية لا تلبث أن تندمج بعضها في بعض ويغلب عليها اسم قبلي واحد.

وقد انقسم العرب قبل مجيء الإسلام إلى فرعين انضوت تحتهما جميع القبائل : الفرع العدناني، والفرع القحطاني، وقد عرف العدنانيون بعرب الشمال بينما نسب القحطانيوين إلى اليمن. وقد اعتقد العرب أن كُلاً من هذين الفرعين تناسل من جد واحد. وعلى أساس هذه الفكرة اعتمدوا في انتسابهم ومفاخراتهم وأحياناً في تحالفاتهم وحروبهم أيضاً.

أما معيشة السكان فقد اعتمدت على الرعي في نطاق ضيق جداً، وعلى المشاركة في التجارة الدولية سواء بالقيام بنشاط تجاري ضئيل، أو بنقل المتاجر على ظهور الجمال، أو بحراسة القوافل. وقد مارس سكان الواحات الزراعية البدائية بالقدر الذي سمحت به الظروف الطبيعية، كما مارس سكان السواحل صيد السمك واللؤلؤ والتجارة. وكان الغزو والإغارة على الجيران والواحات والقوافل التجارية أشهر نشاط تمارسه القبائل العربية. وقد ساعد شح الموارد على كثرة الصراع القبلي والغزو حتى أصبح قاعدة العلاقات بين التجمعات البشرية. ونظراً لهذه الظروف كانت شبه الجزيرة العربية منبعاً دائماً للهجرات البشرية التي خرجت من الصحراء تحت ضغط الحاجة، أو تحت ضغط الجماعات الأقوى واتجهت إلى المناطق المجاورة، خاصة إلى حواف وادي الرافدين وبلاد الشام، وأطراف وادي النيل من جانبه الشرقي.

الحالة الثقافية والدينية في شبه الجزيرة العربية

الحالة الثقافية : كانت آثار الحضارات القديمة التي ازدهرت في اليمن قد ذبلت قبل حلول القرن السابع الميلادي بوقت طويل. وقد غلبت الأمية على أرجاء شبه الجزيرة العربية التي لم يكن فيها أي نشاط فكري يستحق الذكر في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلاديين، أي قبيل ظهور الإسلام مباشرة.

ولقد كان الشعر العربي هو المظهر الأقوى من مظاهر الحياة الثقافية، فكان وسيلة التعبير الفني، عن الموضوعات الشخصية من غزل وحب ورثاء، كما كان وعاء الحِكَمِ والأمثال، وأداة إعلامية لإعلان ونشر أمجاد الشاعر وقبيلته، وكشف مثالب الأعداء، بالحق والباطل على السواء. وقد بلغ الشعر العربي درجة عالية من الإحكام

والإبداع، وعبر عن روح العصر أدق تعبير وأبلغه وأشمله. وبجانب الشعر كانت هناك الأمثال الشعبية المتداولة، والوصفات الطبية، والمعرفة بالأنساب، إذ كان العرب يهتمون بالأنساب اهتماماً كبيراً لتشابك العلاقات في الخصومات والتحالفات، مما يجعل هذه المعرفة عنصراً مهماً في إدراك قوة الخصم، ومن أجل تجنب من يمتون له بصلة نسب، أو إلحاق الأذى به وبمن لهم به قرابة. وبجانب ذلك كان ثمة اهتمام بـ " أيام العرب " والمقصود بذلك الحروب التي دارت بين القبائل، غير أن هذا وغيره مما ذكرنا قبلاً لم يعرف التدوين، بل كان يتناقل مشافهة.

وليس صحيحاً أن العرب في شبه الجزيرة كانوا معزولين في أرضهم عن الحضارات المحيطة بهم، فقد كانوا على اتصال بهذه الحضارات عن طريق التجارة وعن طريق المجاورة، ولكن هذا الاتصال لم يكن واسع النطاق. ونظراً لسيطرة نمط الحياة البدوية الترحالية فقد اتسمت الحياة بعدم الاستقرار، وذلك مما يمنع نمو الحضارة وتأصلها.

الحالة الدينية : وقد غلبت الوثنية على معظم نواحي شبه الجزيرة العربية، فكان لكل قبيلة صنمها الذي تتعبد له. وكانت الأصنام تنحت من الصخور وربما كان الصنم صخرة فجة، أو شجرة. بل إن هناك بعض جماعات شكلت صنمها من العجوة، فإذا جاعت أكلته. وكانت هناك أصنام كبرى تنصب فوق الكعبة في مكة، ومن أشهرها : هبل، واللات، والعزى، ومناة. وقد جرت العادة أن يكون للصنم سادن، أو كاهن يقوم عليه ويمثل دور الوسيط بينه وبين المترددين عليه. وقد اتخذ الكهنة مركزهم وسيلة لخداع الناس واستلاب أموالهم. وكان بعض العرب يؤمنون بالله، سبحانه وتعالى، خالق الكون وراعيه، وخالق البشر جميعاً، غير أنهم كانوا يعبدون الأصنام – في الوقت نفسه – لاعتقادهم بأنها تقربهم إلى الله زلفى.

وعرفت في مكة خاصة عناصر، أو أفراد قلائل، من الحنيفيين الذين لم يتلوثوا بلوثة الوثنية، فكانوا يؤمنون بالله ويتمسكون بالفضائل، ويعلنون أنهم على دين إبراهيم. وقد رحب هؤلاء بظهور الإسلام وآمنوا به وبرسوله.

وبجانب الأغلبية الوثنية تسربت المسيحية واليهودية، فاعتنقهما بعض الجماعات الصغيرة وبعض الأفراد هنا وهناك في أطراف الجزيرة العربية، خاصة في اليمن، ويثرب والحيرة. بل لقد وجد بعض أفراد ممن يدينون باليهودية أو المسيحية في نجد، ومكة والطائف.

مكة قبل ظهور الإسلام:

برزت مكة ونما شأنها وأصبحت من أهم المراكز التجارية في شبه الجزيرة العربية. وترجع أهمية مكة إلى عدة أمور منها :

1- وجود الكعبة، بيت الله العتيق فيها. والكعبة عبارة عن بناء مربع الشكل بناه إبراهيم نبي الله، وجدّ العرب ليكون مسجداً يعبد فيه الله، ويحج إليه المؤمنون وتجتمع حوله عواطفهم وأشواقهم الروحية.
2- توفر الماء العذب للشرب والمعيشة، والماء مادة حيوية ونادرة وعزيزة في الصحراء، فكانت عين " زمزم " سر حياة مكة المكرمة.
3- موقع مكة التجاري على طريق القوافل المترددة بين اليمن وبلاد الشام، أي سوريا.
4- وقد زاد من أهمية هذه العوامل ما قام به قصيّ، الجد الرابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ عقد اتفاقات تجارية باسم مكة مع السلطات في البلاد المجاورة، في الشام، والحبشة، وفارس. كذلك عقد اتفاقات مع رؤساء القبائل العربية التي تمر القوافل في مناطقهم لكي يوفروا لها الحماية من غارات قطاع الطرق لقاء مبالغ تدفع لهم، كما شجع بعضهم على المشاركة في العمليات التجارية.
5- ونظراً لأهمية مكة الدينية والتجارية، فقد حددت فيها أشهر يحرم فيها القتال بين الناس، حيث يجتمع العرب من مختلف أرجاء شبه الجزيرة العربية لأداء مناسك الحج وممارسة التجارة وقراءة الشعر. وقد اقتضى ذلك الاتفاق أن تتعاون القبائل على توفير قوة مقاتلة تتولى حماية الأسواق وما بها من البضائع والتجار إلى نهاية الموسم.

وظهرت في مكة أربعة مناصب رئيسية:

(أ) رئاسة دار الندوة : وكانت دار الندوة مجلساً يجتمع فيه كبار قريش ولا يجوز دخولها إلا لمن بلغ من العمر أربعين سنة. وكان يجري فيها تداول الأمور العامة على وجه الخصوص، بجانب كونها مجلساً اجتماعياً محترماً.

(ب) حيازة اللواء : واللواء هو راية الحرب، أو علم الجيش، وكان حائز اللواء يقود القوة الحربية التي لم تكن على صورة جيش محترف ومتفرغ، بل كانت على صورة مقاتلين مدنيين يحملون سلاحهم ويجتمعون للحرب كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

(ج) الحجابة : وتعني الإشراف على الكعبة والعناية بها وحيازة مفتاحها فلا يدخلها أحد إلا إذا فتح له حائز الحجابة.

(د) السقاية : وتعني توفير الماء للحجاج الوافدين إلى مكة وتقديم الطعام لهم.

لمحات عن الحالة الاجتماعية في مكة:

ساعد الدور التجاري الذي قامت به مكة على ظهور طبقة عليا من كبار التجار الأثرياء. وكانت هناك طبقة أخرى من الأحرار الذي تروح ظروفهم الاقتصادية بين الحد الأدنى للكفاية وبين الفقر. أما الطبقة الدنيا في المجتمع فتمثلت في العبيد الأرقاء ذكراناً وإناثاً. وقد كانت قريش هي القبيلة المسيطرة على مكة وفيها زعامتها، ولها القيادة في السلم والحرب. وقد كان لقريش دور كبير في إقامة عدد من المحالفات مع مختلف القبائل القريبة والبعيدة من مكة، زيادة على الترتيبات التي عملها قصيّ، زعيم قريش. وأبرز هذه الترتيبات حلف ذو طبيعة دينية أطلق على أتباعه اسم " الحمس ". وربما كان لهذا الحلف صلة بالأعمال التجارية، إذ كان الحمس يحترمون السلم القبلي في موسم الحج ويقوم رجال منهم على حراسة الأسواق.

لم تكن مكة بادية ولم يكن سكانها بدواً، كما أنها لم تكن قرية لأن الزراعة والفلاحة لم تكونا من مهن سكانها. كذلك فإن مكة لم تكن مدينة بالمعنى أو المفهوم الحديث للمدينة ؛ ذلك من حيث تكوينها المادي والبشري. أما من الناحية الثقافية فقد كانت وسطاً بين الحضر والبادية، إذ بينما نبت سكانها من أصل بدوي وارتبطوا بعديد من الصلات، وليس أقلها صلة الجوار، بالقبائل العربية المحيطة بهم، فقد كانوا يحيون حياة مستقرة في بيوت ثابتة، وكانوا يمارسون التجارة بين الدول والشعوب المحيطة بالجزيرة العربية وفي داخل الجزيرة أيضاً، وقد مكنتهم هذه الصلات من الإلمام بقدر من المعلومات عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المنطقة المحيطة بشبه الجزيرة العربية، فضلاً عن إلمام شامل ودقيق بأوضاع الجزيرة العربية، ثقافتها، تقاليدها، قيمها، أوضاعها السياسية وما فيها من قوى قبلية.

في هذه البيئة ووسط هذه الظروف ظهرت رسالة الإسلام.

القسم الأول
الرســالة والرســول

الفصل الأولـ

فجر الإسـلام

في يوم من أيام سنة ست مئة وتسع، أو ستمائة وعشر الميلادية، دخل رجل من قريش على زوجته في بيتهما وهو يرتجف من الرعب والدهش، يستغيث الزوجة الحانية بقوله: زملوني! زملوني! فأسرعت الزوجة تزمله، وتدفئه، وتهدئ من روعة، وهو يستفسرها عما نزل به وما أصابه، بعد أن قص عليها ما واجهه وتعرض له أثناء غيبته الأخيرة عنها. قالت الزوجة، في محاولتها لتهدئته ولبعث الطمأنينة في نفسه: كلا

.. لن يكون ما رأيت شراً، و" لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر".

كان ذلك الرجل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، من أكرم فروع قريش القبيلة التي كان ينتمي إليها معظم أهل مكة، أما الزوجة فكانت خديجة بنت خويلد، من فروع قريش أيضاً.

ولد محمد بن عبد الله عام 570 للميلاد، وكان والده الشاب عبد الله قد توفي وهو في رحلة تجارية خارج مكة بينما كانت زوجته حاملاً، وكان عبد المطلب، والد عبد الله، وجد محمد، سيد مكة وزعيمها دون منازع، وكان شيخاً طاعناً في السن. وفي تلك السنة التي توفي فيها ابنه عبدالله، وولد فيها حفيده محمد، تعرضت مكة لخطر كبير حين غزاها جيش قادم من الجنوب، يقوده أبرهة، الوالي الحبشي في اليمن، وقد أحضر أبرهة معه فيلاً لإرهاب المكيين، ولهدم الكعبة، بيت الله العتيق. لكن الغزوة فشلت، وحل الدمار بذلك الجيش فلم يرجع منه أحد. وأصبحت تلك السنة معلماً بارزاً في تاريخ مكة، وسميت بعام الفيل، وصارت تؤرخ بها الأحداث وهكذا اشتهر أن محمد بن عبد الله ولد عام الفيل.

وإذ ولد محمد يتيماً فقد كفله جده عبد المطلب، وأضفى عليه كل ما انطوت عليه شيخوخته من محبة وحنان. وقد زادت لوعته لفقد ابنه الأصغر عبد الله – والد الطفل محمد – زادت من توقد محبته وحنانه لحفيده. وكان من عادة الأسر القرشية الكريمة أن تعهد بأطفالها إلى مرضعات يرضعنهم حتى يبلغوا سن الفطام، وكانوا يحرصون على أن تكون المرضعات من أهل البادية، لكي يفتح الطفل عينيه على الحياة في أجوائها الرحبة، يتنفس هواءها النقي ويستوعب لغتها وأدبها من منبعهما الأصيل. وهكذا دفع بالطفل محمد إلى امرأة من بني سعد، اسمها حليمة، التي عرفت في التاريخ بحليمة السعدية، مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد أمضى محمد خمس سنوات في كنف مرضعته حليمة، يحيا معها ومع زوجها وأولادهما.

عاد محمد إلى مكة ليعيش مع أمه، وفي كنف جده ينعم بحنانهما، لكن أيام الهناء لم تطل.. فقد اصطحبته والدته في رحلة إلى يثرب لتزور قبر والده، وهي رحلة طويلة ومرهقة في تلك الأيام لم تكن فيها من وسيلة للسفر سوى المشي أو ركوب الدواب. وتبعد يثرب – وهي المعروفة اليوم باسم المدينة المنورة – تبعد عن مكة مسافة خمسمائة كيلومتر تقريبا. وأثناء عودة آمنة من يثرب ألم بها المرض فتوفيت قبل أن

تصل إلى مكة. وعاد الطفل محمد مع الخادمة بعد أن أصبح يتيم الأبوين. وزادت مشاعر الحنو في نفس جده الشيخ، فصار يصحبه معه في مجالسه العامة التي يحضرها شيوخ مكة وكبار رجالها. غير أن عبد المطلب ما لبث أن توفي بينما كان محمد في الثامنة من عمره ؛ وهكذا تتابعت المصائب على الصبي اليتيم.

محمد في رعاية عمه أبي طالب:

وقام أحد أعمام محمد بالعناية بالطفل اليتيم، فضمه إلى بيته وحاول أن يعوضه فقد أبويه وجده. وكان هذا العم الكريم يدعى بأبي طالب. ولم يكن أبو طالب بالرجل الغني، بل كان فقيراً وكثير العيال. ومما يجدر ذكره هنا أن الفرع الهاشمي من قريش قد فقد زعامته لمكة عقب وفاة كبيره عبد المطلب، وانتقلت الزعامة والقيادة للفرع الأموي [2]. وقد حرص محمد على أن يشارك في تحمل المسؤولية تجاه احتياجات الأسرة الكبيرة، فسافر مع عمه أبي طالب إلى الشام عندما سافر العم من أجل التجارة، وكانت سن محمد إذ ذاك لا تزيد على ثلاثة عشر عاماً. كذلك اشتغل برعي الأغنام لأهل مكة لقاء أجر يدفعونه له.

أخلاق محمد في صباه:

وقد عرف محمد بين أترابه بمكارم الأخلاق وتجنب كل ما يشين الرجل الكريم أو يقدح في مروءته. وكان صادق الحديث لم يعرف عنه الكذب، كما كان أميناً في تعامله، حتى لقد لقّب بالصادق الأمين. كل ذلك قبل أن يتلقى رسالة ربه.

عمله في تجارة خديجة وزواجه منها:

ونظراً لسمعته الطيبة واشتهاره بالصدق والأمانة اختارته خديجة بنت خويلد ليسافر في تجارتها إلى الشام. وكانت خديجة امرأة من أكرم نساء قريش نسباً، كما كانت على قدر كبير من الثراء ؛ وكانت تستأجر الرجال للسفر بمالها أو المتاجرة لها. فلما سمعت بأمانة محمد وصدقه رغبت في أن يعمل في تجارتها. وسافر محمد تاجراً إلى الشام وباع ما أخذه معه من بضاعة ثم عاد ببضاعة اشتراها، على عادة تجار العرب في ذلك الزمان، فباع البضاعة الشامية في مكة، وكان الربح مضاعفاً وفيراً. وأدى إلى خديجة مالها بأمانة، وانصرف من عندها بمجرد فراغه من ذلك. ثم إن خادم خديجة الذي رافق محمداً في الرحلة التجارية إلى الشام حدث سيدته عن أخلاق محمد

---

[2] الفرعان الهاشمي والأموي يلتقيان في قصي ، الجد الرابع لرسول الله (محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف ابن قصي). وكان لقصي عدة أبناء منهم عبدمناف ، ومنهم عبدشمس ، جد بي أمية. وأمية هو أحد أبناء عبدشمس .

وأمانته، فرغبت في الزواج منه. وكان رجالات مكة يتنافسون على الزواج منها، نظراً لثرائها وكريم نسبها وجمالها. لكنها كانت امرأة ذكية تدرك بسرعة إن كان المتقدم لها من الذين يتقربون منها طمعاً في ثروتها أم أنهم يريدون الزواج منها بدافع الرغبة في الزواج حقاً. وكانت تترفع على أولئك الطامعين وتحتقرهم. وأفضت خديجة برغبتها إلى قريبة لها، وحدثت قريبتها محمداً، فرضي بالزواج منها، ونقل الأمر إلى أعمامه فوافقوا وخطبوها له فتزوجها. وقد عاشت خديجة مع النبي مدة تزيد على خمس عشرة سنة كانت خلالها نعم الزوجة الوفية المحبة لزوجها، التي تشد من أزره وتشجعه وتسانده في كل موقف. وكان زواجه بها عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره، أي حوالي سنة 594م.

ولما بلغ من العمر خمساً وثلاثين سنة وقعت في مكة حادثه هامة كانت لها دلالة واضحة على مكانته في المجتمع المكي وذلك قبل أن يبدأ بتبشير الناس برسالة الإسلام. ففي تلك السنة قررت قريش إعادة بناء الكعبة، إذ أن بناءها القديم كان متداعياً ينذر بالسقوط، فهدموها وشرعوا في بنائها من جديد. وعندما أرادوا وضع الحجر الأسود في مكانه اختلف زعماؤهم على من يكون له شرف تثبيت الحجر في موضعه من البناء، وأخذوا يستعدون للقتال في سبيل الفوز بهذا الشرف. ولكن الموقف ما لبث أن انفرج عندما قدم أحدهم اقتراحاً بأن يحكموا في خلافهم أول قادم عليهم، فرضوا بذلك. ولم ينقض إلا وقت قصير حتى قدم عليهم محمد، فصاح بعضهم : هذا محمد الأمين، رضيناه حكماً!

وعالج محمد الموقف بذكاء يدل على رجاحة العقل، فقد طلب منهم أن يعطوه ثوباً، وأخذ الثوب ووضع الحجر عليه، ثم دعا زعماء القبائل بأن يمسكوا بأطراف الثوب معاً وأن يرفعوا الحجر إلى جنب الجدار. ثم أخذ الحجر بيده وثبته في مكانه.

مقدمات الوحي :

كان محمد لا يؤمن بأوثان قريش، وكان يجد الأمان في ما بقي لدى قريش من دين إبراهيم. وكان يربأ بنفسه عن الانغماس في مباذل شباب قريش وفتيانها، ميالاً إلى التأمل والعزلة. و قد صار من عادته – قبل بلوغ سن الأربعين – أن يخرج للاعتكاف في غار حراء، وهو كهف في قمة أحد الجبال المطلة على مكة، يبعد عنها بضعة أميال، فيمضي فيه شهراً في وحدة وعزلة مليئة بالتأمل والتعبد.

محمد رسول الله:

وعندما بلغ من العمر أربعين سنة، خرج في تلك السنة كعادته إلى غار حراء، وبينما كان في الغار جاءه وحي الله يحمله الرسالة التي أراد الله منه أن يبلغها ويدعو الناس إليها. وقد عاد محمد إلى زوجته خديجة، إثر تلك التجربة، فزعاً، يرتجف ويقول: زملوني.. زملوني. فزملته ودفأته وهدأت من روعه، ثم سألته فقص عليها خبر الحدث الذي أفزعه؛ قال لها إن ملكاً جاءه وهو نائم بغار حراء فقال: " اقرأ، فقلت ما أقرأ. (يعني أنه لا يعرف القراءة). فغطني [3] حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال : اقرأ، فقلت : ماذا أقرأ؟ قال : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [القرآن الكريم ، سورة القلم/آية 1-5]. قال : فقرأته. قال : ثم انتهى، ثم انصرف عني وهببت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتاباً ".

وظن محمد بعقله الظنون، وفكر في التخلص من حياته حتى لا يقال إنه مجنون، ومشى إلى مكان في الجبل ليلقي منه بنفسه. ويصف ذلك بقوله : " حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل. قال فرفعت رأسي إلى السماء فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل. قال فوقفت انظر إليه، وشغلني ذلك عما أردت، فما أتقدم وما أتأخر. وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فما انظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك " [4].

وعاد محمد إلى زوجته – كما ذكرنا – فزملته، ولقي منها التثبيت والتشجيع والتصديق. وبينما هو كذلك، لم يفق بعد من هول التجربة ومما بعثته في نفسه من الفزع ، جاءه الملك ثانية بهذه الرسالة : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ). وهكذا صار عليه أن يبدأ بتبليغ الرسالة التي اصطفاه الله لحملها وإبلاغها للعالمين.

ثم أخذته زوجته إلى ابن عم لها عجوز كان يدعى ورقة بن نوفل، وكان ورقة مسيحياً ، وربما كان من المسحيين الموحدين الذين كان يطلق عليهم اسم النساطرة ، فقص عليه قصته، فأكد له ورقة – بناء على ما سمع منه – أن الله اختاره لحمل رسالته، وشجعه على المضي لما ندب له وعبر عن أمله ووعده بأن يناصره ويكون

---

[3] - غطني : ضمني وعصرني .
[4] - محمد بن جرير الطبري ، ***تاريخ الرسل والملوك*** ، مجلد 2 ، ص 301 .

من أتباعه ويدافع عنه فيما لو امتد به الأجل ؛ كما أنذره بأنه سيلقى الخصومة والاضطهاد من قومه.

وهكذا بدأ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رحلته الطويلة. فشمر عن ساعد الجد، ووطن النفس على أن تكون حياته ومماته لله رب العالمين. لقد بدأ في تلك البيئة الأشد جهالة وتخلفاً في العالم بين أناس كان الغزو والغارة عندهم لمجرد السلب والنهب، عملاً مشروعاً، يقره العرف القبلي ويعتبره فضيلة تبعث على التفاخر والزهو، وحيث كانت المولودة الأنثى تدفن وهي حية لتموت ويتخلص منها أهلها، خوفاً من تحمل تكاليف حياتها، أو خوفاً من العار إن سباها الأعداء. بدأ محمد فرداً واحداً في عالم يلفه الظلام، وكانت رسالته ترمي إلى تغيير وجه هذا العالم، وإفاضة نور الهداية في أرجائه، وتغيير واقع الناس إلى الأفضل، في جميع نواحي حياتهم، وذلك عن طريق وصلهم بالله خالق الكون وراعيه، ومن خلال تعريفهم بسنن الحياة التي يحبها الله ويريدها لعباده الصالحين. ولقد كانت المهمة صعبة حقاً، ولقد سخر منه معظم قومه وحاولوا إغراقه باليأس وتحطيم عزيمته؛ لكن ثقته بالله كانت بغير حدود ؛ وسنرى كيف أن هذا الفرد الأمي المحارَب من أعمامه وأقاربه قد غير وجه التاريخ.

الفصل الثـاني
مسيرة الدعوة في مكة

كانت خديجة، زوج الرسول، أول من آمن به، كذلك آمن به ابن عمه، علي بن أبي طالب، وكان وقتذاك ما زال صبياً، يعيش في كنف محمد، إذ كان ضمه إليه ليخفف العبء عن عمه. وكان أول من صدّق برسالته من رجال مكة صديقه أبو بكر، واسمه عبد الله بن أبي قحافة. ثم نشط أبو بكر فدعا نفراً من أصدقائه، وبدأت الدعوة تنتشر في مكة سراً، واستمر هذا الدور ثلاث سنوات. ورغم أن قريشاً قد أحست بهذا القادم الجديد، فلمست شيئاً من التغير في سلوك بعض الأفراد من الأحرار والعبيد، إلا أنها استخفت بما حدث في بادئ الأمر، إذ ظنت أن الأمر لن يتجاوز توجهات روحية لأفراد قلائل.

الجهر بالدعوة :

ثم تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ربه بالجهر بدعوته وذلك في قول الله سبحانه وتعالى : (**وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**) [الشعراء/213].
وفي قوله تعالى : (**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكينَ**) [الحجر/94].
فامتثل الرسول لأمر ربه، وأصبح فصعد تلاً مرتفعاً ونادى قومه بأعلى صوته، ناداهم بأسمائهم: يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني فلان؛ فأقبلوا إليه يستفسرون عن سبب ندائه فأجاب :

لو أنني قلت لكم إن العدو سيهاجمكم صباحاً أو مساءً، أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : بلى، ما جربنا عليك كذباً. عند ذلك دعاهم إلى الإسلام، وخوفهم غضب الله. فشتمه عمه أبو لهب قائلاً : تباً لك يا محمد، ألهذا جمعتنا؟

ومن هنا بدأت الدعوة الجديدة مرحلتها العلنية، وبدأ رسول الله وأصحابه القلائل يواجهون الاضطهاد الذي أخذ يتصاعد بالتدريج، في صور مفزعة تقشعر لها الأبدان،

مما سنصف طرفاً منه في الصفحات التالية. فإلى ماذا دعاهم الرسول؟ وماذا كان محتوى الدعوة ولماذا واجهوه بالصد والاضطهاد؟

لقد جاءت الدعوة الإسلامية في إطار تدريجي، ومرت بعدد من المراحل سواء من حيث محتواها أو من حيث الأساليب التي احتذتها والظروف التي أحاطت بها. فبالنسبة للمراحل الزمنية يمكن أن نميز مرحلتين رئيسيتين :

1- المرحلة المكية : وهي التي أمضاها الرسول في مكة، بدءاً بتلقيه الوحي أول مرة في غار حراء سنة 610 ميلادية وانتهاءً بهجرته من مكة إلى المدينة بعد ثلاث عشرة سنة قمرية، أي سنة 622 ميلادية.
2- المرحلة المدنية : وهي التي قضاها الرسول في المدينة المنورة، وتبدأ بهجرته من مكة سنة 1 هجرية (622 ميلادية)، وتنتي بوفاته سنة 11 هجرية.

وتنقسم كل من هاتين المرحلتين الرئيسيتين إلى فترات تتميز كل منها بظروف وأحداث معينة. وكان لكل من المرحلتين الرئيستين سماتها المميزة.

ما الذي دعا إليه الرسول :

في المرحلة المكية تركز الوحي الذي تلقاه الرسول على أمور أساسية مبدئية، وعني القرآن بمسائل محددة سلط عليها الأضواء، وذلك حسب مقتضيات المرحلة التي كانت تمر بها الدعوة الإسلامية. ولعل من المهم هنا أن نوضح هذه الأمور ونفصل هذه المسائل بما يعين القارئ على فهم الدعوة، وفهم الإسلام فهماً صحيحاً. وهذه المسائل هي :

أولاً : الإيمان بوجود الله.
ثانياً : الإيمان بوحدانية الله.
ثالثاً : الإيمان بعظمة الله وقدرته وعلمه وعدله ورحمته.
رابعا: الإيمان بأن الله خلق الكون وخلق الإنسان وجميع ما في الكون، وأنه يرعاه
خامسا : الإيمان بالرسالات، رسالات الأنبياء ورسالة محمد.
سادسا : الإيمان بأن للحياة هدفاً خلقها الله من أجله.
سابعا : الإيمان بأن الناس سيعودون إلى الله فيحاسبهم على ما عملوا في

حياتهم الدنيا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.
ثامنا : الإيمان بالأخوة الإنسانية، والمساواة بين أفراد بني الإنسان، وبأن التمييز بين الناس لا يكون صحيحاً إلا إذا استند على نوع عمل كل منهم، وسلوك كل فرد فيهم تجاه الله وتجاه الناس جميعاً، ومدى نفعه للآخرين وحبه لهم أو إضراراه بهم وحقده عليهم.

جاء القرآن، وحي الله لرسوله محمد بن عبد الله، لكي يبلغه إلى الناس كافة، وليعرفهم أن لهذا الكون خالقاً، وأن هذا الخالق واحد لا يحتمل التعدد ، وأنه إله قوي ذو سيطرة شاملة على الكون وما فيه، وذو علم بكل ما يجري في كل زاوية أو ناحية من نواحي هذا الكون الواسع الذي لا تستطيع عقولنا إدراك أبعاده : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ...) [الأنعام/ 59] ،و (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) [غافر/19].

والله الخالق الواحد أعظم من كل ما في الكون، وأعظم من الكون كله، أحاط بكل شيء، وشملت قدرته كل شيء : (**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**)، [سورة يس/آية 82]. وهو العادل (بالتعريف) فالعدل اسم من أسمائه، وهو أعدل العادلين. والناس أمامه سواء، ولا يعطي أي فرد أفضلية على غيرة إلا بإيمانه بالقيم العليا والتزامه العمل بمقتضى الاستقامة والحق والمحبة والعدالة مع الناس جميعاً، دون محاباة أو مجافاة بسبب القرابة أو العرق أو اللون. ومع ذلك فإن الله هو الرحمن، وهو الرحيم، هو أرحم بعباده من الأم بولدها، والرحمة في أسماء الله، ففيها اثنان مشتقان من الرحمة : ا والرحمن ، والرحيم.
والله لم يخلق الكون – بما فيه من إنسان وحيوان ونبات وكواكب وأفلاك ومجرات – لم يخلقه عبثاً، وإنما خلقه لهدف واضح. ونحن نعرف ذلك من قول الله تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ) [سورة الأنبياء/16].

والله يريد من البشر أن يعبدوه. وعبادته – حسب ما أفهمهم – بطريقتين : إحداهما بتقديم الشعائر التعبدية الإسلامية له، وهي شعائر تنطوي على كل معاني الحب، حب الفرد لله، والتوقير له، وإظهار الخضوع له، و الرجاء منه، والخوف من غضبه، واستغفاره والتذلل له والتوبة من عصيانه. أما الطريق الثانية التي يعبد المسلم بها الله فهي بالسلوك القويم الذي يلتزم قواعد التعامل التي أوصاه بها الله ورسوله بالنسبة للآخرين وأن يحب الناس ويحب لهم من الخير ما يحب لنفسه وأن لا يكره الناس في أي حال إلا أن يكره ظلمهم وفسادهم وبعدهم عن منهج الحق والخير الذي أراده الله. ثم إن

المسلم يعبد الله بنظافته المادية والمعنوية، نظافة مشاعره ونواياه، ونظافة جسده وثيابه ومسكنه، وفي سلوكه الشخصي في كل أموره. وهناك نصوص واضحة لا لبس فيها، وردت في القرآن وفي أحاديث الرسول تؤكد كل نقطة من هذه النقاط.

ولقد علم القرآن المسلمين كما علمهم الرسول أن يؤمنوا ويعتقدوا بأن كل ما في الكون من كائنات يعبد الله، وأن ليس البشر وحدهم هم الذي يعبدونه : (**تُسَبّحُ لَهُ السّمَاوَاتُ السّبْعُ وَالأرْضُ وَمَنْ فِيهِنّ وَإِنْ مّن شَيْءٍ إِلاّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**) [سورة الإسراء/44]. ومن هنا فإن العقيدة الإسلامية تنشئ رباطاً قوياً بين الإنسان والكون المادي من حوله، بما فيه من مجرات وأفلاك وجبال وشجر ومحيطات وحيوانات وأسماك، رباط محبة يقوم على اقتناع بأن كل هذه الأشياء من مخلوقات الله تعبد الله على نحو لا ندركه، وأن التعامل معها بـهذه الروح، ومن خلال هذا المنظور إنما ينطلق من الحب ومحاولة فهم قوانينها والاستفادة منها، لأن الله سخرها لنا نحن البشر وأرادنا أن نتفع منها بجهدنا وعملنا. وشتان بين هذه النظرة وتلك التي تقول إن الإنسان في صراع مع الطبيعة والكون وإنه لا يحقق ذاته إلا بقهرهما والانتصار عليهما وإخضاعهما.

وما دام الله رب الناس جميعاً فإن هدايته موجهة للناس جميعاً، أي أنه اراد الإسلام للناس كلهم، وكلف رسوله بتوجيه الدعوة لكل إنسان، دون نظر إلى قوميته أو جنسه أو دينه. وعلى ذلك فإن الإسلام لا يخص أمة دون أمة ولا شعباً دون شعب، وهو ليس دين العرب. إنما هو دين الله، والله يريد للبشر جميعاً أن يؤمنوا به، ويلتزموا قيمه، ويوجهوا سلوكهم وفق منهاجه. وحول هذه النقطة نقرأ كتاب الله مخاطباً رسوله محمداً بقوله :

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَآفّةً لّلنّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَـَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) [سورة سبأ/آية 28].

وإذا كان الله قد حدد للناس طريق الحياة، وزودهم بالهداية بالرسل والرسالات، فإنه سيحاسبهم على ما فعلوا في حياتهم من خير أو شر. ولذلك سيبعثهم من موتهم ليوم الحساب.

الإسلام يخاطب العقل البشري:

والله لم يفرض على الناس أن يؤمنوا من غير تفكير، لم يفرض عليهم معتقدات تتنافى مع العقل، بل إن العكس هو الصحيح، فلقد خاطب الله عقول الناس وأراد أن يكون العقل الإنساني الذي يمثل واحدة من أعظم معجزات الله الخالق العظيم، أراد أن يكون العقل هو منفذ الإيمان ومدخله إلى قلب الإنسان وإلى وجدانه. ويحفل القرآن الكريم بعدد كبير من الآيات التي تخاطب عقول البشر، وتحض على تحريك العقول، وتناقشها مناقشة تنم عن احترام للعقل البشري الذي صنعه الله صنعاً معجزاً؛ ومن أمثلة ذلك :

قضية الإيمان بوجود الله:

إن إنكار وجود الله والقول بأن الطبيعة هي التي خلقت الحياة ليسا من مبتكرات العصر الحديث : فقد واجهت الدعوة الإسلامية في مطلع عهدها، وفي المرحلة المبكرة من ظهور الإسلام، واجهت مثل هذه الأقوال. وقد سجل الله لنا ذلك في القرآن :

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاّ حَيَاُتَنا الدُنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا اَلاّ الدّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّ يَظُنُّونَ) ، **[سورة الجاثية/ 24].**

وقد رد الله على هذا الإنكار مخاطباً عقول البشر، موجهاً إياها إلى الآيات الدالة على وجوده، مما يمكنهم أن يدركوه بأنفسهم، بحواسهم وعقولهم معاً :

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ الّيْلِ وَالنّهَارِ وَالْفُلْكِ الّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النّاسَ وَمَآ أَنزَلَ الله مِنَ السّمَاءِ مِن مّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثّ فِيهَا مِن كُلّ دَآبّةٍ وَتَصْرِيفِ الرّيَاحِ وَالسّحَابِ الْمُسَخّرِ بَيْنَ السّمَآءِ وَالأَرْضِ لأَيَاتٍ لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ، **[**سورة البقرة/آية 164**].**

وتساءل القرآن بأسلوب استنكاري لموقف الذين لا يعترفون بوجود الله، فقال :

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَـيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُـونَ ؟ أَمْ خَلَقُوا السّمَاوَاتِ وَللأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُـونَ ؟) ، **[سورة الطور/ آية 35 و 36].**

هل خلقوا من غير شيء، من تلقاء أنفسهم، من غير خالق؟ أم أنهم خلقوا أنفسهم. فإذا لم يكن الأمر كذلك فلا بد أن الله هو الذي خلقهم.

ثم يتخطى القرآن قانون السببية في مجرد خلق الإنسان ومجرد إيجاده ليلفت النظر إلى دقة الصنعة في الخلق، وهي دقة تدل على عظمة الخالق :

(أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ...) ، [سورة الأعراف/185]. **(وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مَتَجَاوِراتٌ وَجَنّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ)** ، [سورة الرّعد/آية رقم 4].

بهذا الأسلوب العقلي المبسط الذي يدركه العالم والجاهل خاطب القرآن الرافضين لفكرة وجود الله. هل خلقتم من غير أن يخلقكم أحد؟ هل خلقتم أنفسكم؟ تفكروا بعقولكم بما تشاهدونه في السماوات والأرض من مخلوقات الله التي تدل على دقة صنعته وعظيم قدرته، مما لا يمكن أن يحدث مصادفة، ولا يمكن أن تخلقه القوى الطبيعية غير العاقلة. ثم انظروا إلى القطع المتجاورة من الأرض التي تنبت فيها أنواع من الأشجار والنباتات، تنبت كلها في أرض واحدة، وتسقى بماء واحد، ولكن ثمارها مختلفة وأوراقها وسوقها مختلفة، ومذاق ثمارها مختلف، فكيف حدث ذلك؟ لا بد – إذن – من خالق عظيم القدرة دقيق الصنعة قد فعل ذلك. إن الطبيعة العمياء لا يمكن أن تخلق الأشياء المعقدة التي يحتاج صنعها أو صنع مثلها إلى قدرة وذكاء عظيمين. بل ولماذا النظر في الأرض والأشجار؟ انظروا إلى أنفسكم، في أجسادكم، فستجدون من دقة صنع الله وعظمته ما يحملكم على الإيمان، ويجعل قلوبكم تسجد لعظمته.

وما زال كثيرون من الذين يدعون إلى الإسلام في عصرنا هذا يستندون إلى مخاطبة العقل، ولكنهم يشيرون إلى ما اكتشفه العلم الحديث من دقة الصنعة في خلق الله، سواء في علم الفلك أو في العلوم الحياتية أو الألكترونية. وهم يضربون الأمثال التي تؤكد أن إيجاد المخلوقات على ما ركب الخالق فيها من دقة متناهية في الوظائف وفي الأداء تدل على عظمة هذا الخالق. وفي هذا الإطار تستمع إلى أحدهم يتحدث عن الجهاز الهضمي للإنسان وما يلقى فيه من آلاف العناصر الغذائية، وكيف تتم عملية الهضم وعملية توزيع الغذاء عبر الدم إلى ملايين الخلايا بحيث تُوَصّلُ إلى كل خلية احتياجاتُها. ثم نستمع إلى بعضهم وهو يتناول فكرة اختلاف الشجر والثمر مع أن الأرض واحدة والماء واحد، ولكنه يستخدم المعلومات العلمية الحديثة فيقول لنا :

انظروا إلى حبة السمسم، وحبة الخردل، وأمثالهما من البذور النباتية الصغيرة، إن جزءاً صغيراً من حجمها لا يصل إلى عشرة في المائة هو الذي يحفظ أسرار الحياة وعجائبها. هذا الجزء الصغير يتصرف وكأنه كمبيوتر مبرمج حين يقع في التربة يمتص عناصر الغذاء منها، محددة بدقة حسب ما يلزم تلك الشجرة بذاتها، ثم يتابع نموها بطريقة محددة، لترتفع الشجرة ويعلو الساق وتنبت الأوراق والنوار والثمار، وتوزع عناصر الغذاء لكل جزء حسب حاجته، ويتكرر هذا الأداء حسب البرنامج من ملايين وبلايين البذور التي من نفس النوع، وبطريقة واحدة. وقبل أن تموت النبتة التي ولدتها البذرة الصغيرة فإنها تخلف عشرات أو مئات من البذور المماثلة، تنطوي كل واحدة منها على برنامج عمل ونمو مماثل ؛ ثم يعلق المتحدث على ذلك بالتساؤل : كم من الكمبيوتر يستطيع أن يلد آحاداً من جنسه؟ كما (روبوت) يستطيع أن يلد (روبوت)؟ وحتى لو فرض جدلاً أن كمبيوتر تمكن في المستقبل من صنع كبميوتر مماثلا له، فكم عدد العقول البشرية الذكية التي عملت خلال مئات السنين حتى تركم المعلومات التي توصلت إلى صنع الكمبيوتر. وكم من التعليم والتدريب يحتاجه المبرمج ؟ وهل يستطيع كمبيوتر أن يعمل من غير دور العقل الإنساني ؟ فكيف تستطيع هذه البذور أن تعمل، وأن تطبق البرنامج وتكمل الدورة حتى عندما تواجه بظروف طبيعية قاسية مثل نقص الماء أو الغذاء أو تقلب درجات الحرارة أو التعرض للحوادث ؟

وتستمع إلى داعية آخر يخطب في حشد من الشباب المسلمين ينصتون له كأن على رؤوسم الطير، وقد تندهش عندما تجده يتحدث لهم عن آثار عظمة الله في بناء الكون فيقول :

إن هذه الشمس التي تطل علينا كل صباح – أو نطل عليها نحن كل صباح – عبارة عن نجم له عدد من التوابع والمذنبات التي تدور حوله، وتبلغ هذه الكواكب ألفاً وسبعمائة كوكب تقريباً منها كوكبنا الأرضي الذي يأتي في المرتبة الخامسة من حيث حجمه وكتلته، وهناك حوالي ثلاثين تابعاً تدور حول الكواكب، أي أنها توابع التوابع، ومنها القمر، الذي يدور حول الأرض، التي هي من توابع الشمس. أما المذنبات التي تدور حول الشمس فتعد بالمئات. وهذه كلها، أي الشمس وتوابعها وتوابع توابعها تشكل ما يسمى بالمجموعة الشمسية. ولو قارنا كتلة الشمس بمجموع كتل أفراد المجموعة فإن كتلة الشمس وحدها تتكون مما نسبته 99.86% من المجموع الكلي لها ولتوابعها، أي أن مجموع كتلة التوابع وحدها من غير الشمس يساوي 0.14 % فقط.

وهذه المجموعة الشمسية كلها جزء من مجرة تضم حوالي مائتي ألف مليون نجم، أي مائتي ألف مليون شمس مثل شمسنا، ولكل شمس مجموعتها. ولو تخيلت أنك

تريد أن تعبر هذه المجرة من أحد أطرافها إلى الطرف المقابل، وتمكنت من السير بسرعة الضوء (186.000 ميل في الثانية) فإنك ستحتاج إلى مائة ألف سنة لتصل إلى الطرف الآخر.

وجميع هذه النجوم تدور في المجرة بسرعات عالية تتزايد كلما قربت من المركز. وفي أطراف المجرة، أو ضواحيها، حيث تنخفض كثافة السكان وتقل السرعة نجد أن السرعة تساوي مائة وخمسين ميلاً في الثانية. وفي منطقة الضواحي هذه يقع النجم الذي يشكل مركز مجموعتنا الشمسية، أي الشمس. أما أقرب النجوم (أو الشموس) الأخرى إلى شمسنا فقد سماه علماء الفلك Alpha Centauri؛ والمسافة بينه وبين شمسنا أربع سنوات ضوئية[5].

هذه المجرات والشموس والمجموعات الشمسية والكواكب التابعة وتوابع التوابع والمذنبات تسبح في أفلاكها ويدور بعضها حول البعض الآخر وتتوازن قوة الجذب في ما بينها لتحافظ على أبعادها، وتنتظم سرعاتها في حركة دائمة، كل ذلك وفق نظام دقيق رغم ضخامتها المذهلة.

فلو تركناها والتفتنا إلى المادة الأرضية التي نعيشها عليها في كوكبنا الصغير فإننا نجدها مكونة من ذرات، ولكل ذرة نواة، ويدور حول كل نواة عدد من الالكترونات كما تدور الكواكب حول الشمس، أو هي أنظمة شمسية متناهية الصغر Tiny Solar Systems كما وصفها العالم الفيزيائي الدنمركي الكبير Niels Bohr المتوفي سنة 1962م. وهذه الذرات التي تتكون منها المادة في كوكبنا الأرضي مثلها مثل الكواكب والنجوم والمجموعات الشمسية والمجرات، لا تعرف السكون، بل إنها في حركة دائمة. وينطبق هذا القول على ذرات أنواع الغاز المختلفة، وذرات السوائل وذرات المواد الصلبة. وأسرعها حركة وأكثرها نشاطاً ذرات الغازات، تليها ذرات السوائل، ثم ذرات المواد الصلبة.

هذا التشابه المعجز في موجودات الكون، من أضخم المكونات المعروفة، المجرات التي يبلغ قطر الواحدة منها مائة ألف سنة ضوئية، إلى الذرات التي لا ترى حتى بالمجاهر الإلكترونية، مع ما فيها من نظام الجاذبية، وسرعة الدوران وكل التفاصيل الأخرى، ألا يشد انتباهنا إلى عظمة الصانع، أولا يدفعنا إلى السجود أمام هذه العظمة ؟ وهل نحتاج معها إلى أدلة وجوده.

---

5 - ***The Encyclopedia of Space***, Hamlyn Publishing Group Ltd.,1969. Pp. 491-2, 498 .

ثم ينهي المتحدث خطابه بالقول : بأن الله الخالق العظيم تجتمع فيه كذلك صفات الرحمة والعدل، والحب، والجمال، وله علينا النعم التي لا تستقصى، ولذا، فإننا حينما نردد ما أنزله إلينا في كتابه الكريم، القرآن :

(قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له...)، [سورة الأنعام/أية رقم 162، 163].

وحين نلتزم بذلك قولاً وعملاً فإنما نفعل ما يمليه العقل، مع إقرارنا بأننا لا نستطيع أن نكافئ جزءاً ضئيلاً من فضل الله علينا.

والحقيقة أن عدد الآيات التي تشير إلى أهمية العقل من بين آيات القرآن كبير جداً، الأمر الذي لا يمكننا من حشدها هنا، وإنما نحيل القارئ للاطلاع عليها في القرآن نفسه، أو في ترجمة له، لمن لا يحسن العربية. ونكتفي بإيراد أمثلة قليلة منها :

يصف الله المؤمنين الصالحين بأنهم :

(الّذِينَ يّذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ....) ، **[سورة أل عمران/آية 191]**.

ويعلق على موقف المنكرين لوجود الله :

(أَوَ لَمْ يَتَفَكّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاّ بِالْحَقّ) ، **[سورة الروم/آية رقم 8].**

(أَو لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِنْ شَيْءٍ) [الأعراف/آية 185].

(إِنّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ) ، **[الزخرف/3].**

لا إكراه في الدين:

ولقد حرم الله إكراه الناس على قبول الدين الإسلامي، وجعل القبول نابعاً من حرية الاختيار، وذلك في قوله :

(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدّينِ قَدْ تَبَيّنَ الرُشْدُ مِنَ الْغَيّ) [سورة البقرة/256]
(وَقُلِ الْحَقُ مِنْ رَبّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...) ، [الكهف/29].
(ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟)، [سورة يونس/99].

الأخلاق الفاضلة :

وبجانب الدعوة إلى الإيمان دعا النبي إلى التزام الأخلاق الفاضلة، ونبذ كل ما يناقضها من رذائل. وكان مما دعا إليه الصدق، والأمانة والوفاء بالوعد والجد في العمل، واتقان العمل، والعدل في معاملة الناس، والرحمة والرفق بالضعفاء، والرفق بالحيوان، وكانت هناك رذائل معينة منتشرة بشكل واسع في المجتمع المكي، عدا عن عبادة الأصنام وتقديسها، مثل وأد البنات المولودات حديثاً خشية الفقر، وأكل مال اليتيم، واستغلال المحتاجين عن طريق الإقراض بالربا المضاعف، والعبث بالموازين والمكاييل في البيع و الشراء، والإسراع إلى سفك الدماء والقتل لأتفه الأسباب. وقد حاربت دعوة الإسلام كل هذه الرذائل ودعت إلى نبذها واستبدالها بالفضائل التي تليق بالإنسان الذي كرمه الله وجعله أكرم مخلوقاته جميعاً.

ونسوق هنا بعض آيات القرآن الكريم التي تلقاها رسول الله مبينة مجمل هذه التوجيهات الربانية التي أوجزنا :

(لَيْسَ الْبِرّ أَنْ تُوَلُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدَوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) ، [البقرة/ 177]

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنْونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ الَّلغْوِ مُعْرِضُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلاّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) ، سورة المؤمنون/آية 1 – 10]
.

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَو كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَنَّ هذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ، [سورة الأنعام/151-153].

الاضطهاد :

وقابلت قريش هذه الدعوة الكريمة بالعداء السافر، ومحاولة صد المؤمنين عن سبيل الله. وكان الرسول في حماية عمه أبي طالب، في بداية الأمر، فاتجه الاضطهاد إلى ضعفاء المؤمنين، بينما ووجه النبي نفسه بالحرب الدعائية والنفسية، فقالوا إنه مجنون، وقالوا إنه ساحر، وقالوا إنه شاعر، وأكثروا من نشر السخرية حوله وحول أتباعه. وقد سجل القرآن طرفاً من ذلك كله، وأورده في معرض المحاججة لادعاءات أعداء الإسلام :

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) ، [سورة الحجر/آية 6].

(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) ، [سورة ص/4]

ووصف القرآن سخريتهم :

(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ. وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ. وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هؤُلاَءِ لَضَالُّونَ)، [المطففين/29- 32].

ولكن الأمر لم ينحصر في السخرية كما ذكرنا، بل تخطى ذلك إلى التعذيب الجسدي الشديد لفقراء المسلمين وضعفائهم، ومن أمثلة ذلك ما لاقاه آل ياسر : كان ياسر وزوجته وابناه عمار وعبد الله موالي لِبَنِي مخزوم، شبه أرقاء فآمنوا بالله واتبعوا الرسول. فكان سيدهم يعذبهم ليردهم عن الإسلام، فكان يخرجهم إذا اشتد حر الظهيرة إلى الأبطح وهو واد منخفض بمكة تشتد فيه الحرارة، حيث تبلغ حوالي خمسين درجة مئوية. وكانوا يلقون بياسر على ظهره ويضعون حجراً ثقيلاً على صدره لكي يسب

محمداً ويمدح أصنام قريش. ومرة انفجرت سمية غضباً وشتمت أبا جهل، الذي كان يتولى عذابها، فطعنها في قبلها بحربة كانت في يده، ففاضت روحها، وكانت أول شهيدة في الإسلام. وزادوا من شدة عذاب زوجها ياسر حتى اضطر إلى أن يقول ما طلبوا منه قوله، فأطلقوه، فذهب يبكي إلى رسول الله. فلما سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن سبب بكائه قال : شر يا رسول الله، ثم حدثه بما أجبروه على قوله. فسأله الرسول عما يجده في قلبه، أي عن اقتناعه وإيمانه الحقيقيين. فقال ياسر إن قلبه مطمئن بالإيمان. فهدأه الرسول وافهمه أنه لا يحاسب على ما قاله مكرهاً. وجاء القرآن مؤكداً أن الله يحاسب الناس ويعاقبهم **(إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)** ، [سورة النحل/آية 106]. وأكد الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :

" رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ".

وكذلك وقع العذاب بعمار بن ياسر وأضافوا إلى تعذيبه بحرارة الشمس تعذيبه بالحرق بالنار.

وكان بلال عبداً رقيقاً، ومن أصل حبشي، وكان من المسلمين الأولين وقد تولى تعذيبه سيده أمية بن خلف. وكان يعذب بنفس الطريقة التي استعملت مع آل ياسر. وعندما كان معذبوه يطلبون منه مدح أصنامهم وسب محمد كان لا يزيد عن قول " أحد " يقصد أن الله واحد وأنه يرفض الأصنام ويرفض التعدد. ولما اشتد عليه العذاب اشتراه أبو بكر الصديق من سيده، ثم أعتقه. وكان أبو بكر من أوائل من أسلم، وكان ميسور الحال، يعمل بالتجارة. وقد عاش بلال طويلاً بعد انتصار الإسلام وتوفي سنة 20 هـ / 641 م.

وممن تعرض للتعذيب في هذه الفترة كذلك خباب بن الأرَت وكان عربياً من قبيلة بني تميم، إلا أنه كان رقيقاً أيضاً، استرق إثر سبيه وهو صغير؛ وقد أسلم في مرحلة الدعوة السرية، وظلت آثار التعذيب في ظهره وجسده طوال حياته. ومنهم صهيب الرومي، وعامر بن فهيرة، وأبو فكيهة. ومن الإناث غير سمية : لبيبة، جارية بني مؤمل بن حبيب، وزنيرة، والنهدية، وأم عبيس. وكلهم تقريباً من الأرقاء، ولكل منهم قصة مع التعذيب والصبر طويلة.

اشتداد الضغط على الرسول:

اشرنا إلى أن الرسول (ص) لم يتعرض للأذى – في بداية الأمر – بالقدر الذي تعرض له الضعفاء ممن آمنوا بالله ورسوله، وذلك احتراماً لعمه أبي طالب. لكن جيران محمد من قريش ما لبثوا أن أخذوا يلقون بالقاذورات على باب بيته، وفي طريق ذهابه وإيابه، كما أخذوا يلقون بالأشواك أيضاً. غير أنه لا الحرب الدعائية ولا السخرية ولا هذا اللون من الإيذاء الذي تعرض له محمد كفه عن مواصلة الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد، ولا الاضطهاد العنيف الذي تعرض له الضعفاء من المؤمنين أفلح في ردهم عن الإيمان. ومع ذلك أصر الوثنيون وعبدة الأصنام على عدائهم وحربهم للإسلام ورسوله، لأنهم أرادوا أن يستمروا على الطريقة التي سار عليها آباؤهم، كما يخبرنا القرآن الكريم :

(بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ)، [سورة البقرة/آية 170].

كذلك فقد استنكف زعماء قريش وأثرياؤها من أن يتبعوا محمداً، لأن أكثر أتباعه المؤمنين كانوا من الفقراء والعبيد.

ولما رأى الوثنيون شدة تحمل المسلمين للعذاب، وتأكدوا من تصميمهم على المضي في طريق الإسلام، فقد اقتنعوا بأن الاضطهاد غير مجد، ولذلك فكروا في أسلوب جديد يقضون به على الحركة الوليدة. وهداهم تفكيرهم إلى استبدال العنف بالملاينة، واستبدال التخويف بالإغراء. وهكذا نجدهم ينتدبون أحد زعمائهم، وهو عتبة بن ربيعة، ويكلفونه بمحاولة إقناع الرسول وتقديم عروضهم إليه. وقابل عتبة رسول الله وقال له متظاهراً بالحنان والإشفاق عليه :

" يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها :

1- إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أ موالنا حتى تكون أكثرنا مالاً.
2- وإن كنت تريد شرفاً سوَّدناك علينا، فلا نقطع أمراً دونك.
3- وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا.
4- وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ ".

فلما انتهى عتبة من كلامه لم يرد عليه الرسول بقول من عنده وإنما قرأ عليه شيئاً من القرآن :

(حم. تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ. وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ. قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُواْ إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالأَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)، [سورة فصلت/1-7]

وبهذه الآيات أفهم رسول الله محدثه أنه لا يطلب مالاً، ولا يطلب سيادة ولا ملكاً، وإنما ينفذ أمر الله، ويدعو إلى الله، وأن أي مغريات أو أخطار لن توقفه عن المضي في ما أمره الله به.

ولقد أخذ عتبة بروعة القرآن وبلاغته، وأدهشته عبارته فقام وقد تغير وجهه. ولاحظ عليه جماعته ذلك عند عودته فسألوه : " ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط؛ والله ما هو بالشعر، ولا هو بالسحر، ولا هو بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه. فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به ".

فلم يستجيبوا لنصحه، بل سخروا منه وقالوا له : " سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال : هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم ".

وعندما فشلت هذه المحاولة حاولت قريش التأثير على أبي طالب، ولكن أبا طالب ردهم رداً رقيقاً دون أن يستجيب لمطلبهم، واستمر محمد وأصحابه يدعون إلى دين الله ولم تستطع قريش أن تصبر طويلاً، فذهب وفد آخر منهم إلى أبي طالب وقال له :

" يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً، وإنا قد اشتهيناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل، وإنا لا نصبر على هذا من شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنه أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين " ؛ ثم انصرفوا .

وعظم على أبي طالب أن تقع الخصومة والحرب بينه وبين قومه، كما عظم عليه أن يتخلى عن حماية ابن أخيه، فبعث إليه وأخبره بمجيء وفد قريش وما قالوا له، ثم حدثه باستعطاف:

" يا ابن أخي، أبق على نفسك وعلي، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ". ويبدو أنه كرر على مسامعه ما عرضته قريش من إغراءات مالية ورئاسية.

فظن رسول الله أن عمه قرر التخلي عنه، وأنه قد ضعف عن مناصرته. فتوجه إليه بهذا القول الذي يشع إيماناً وتصميماً على البذل والتضحية في سبيل الله مهما كانت النتائج. قال الرسول لعمه أبي طالب :

والله يا عماه، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته.

ثم بكى النبي من شده تأثره وقام تاركاً عمه حتى بدا أنه سيبتعد عنه. فناداه عمه، ولما رجع قال له : " اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً " [6].

وبعد أيام قامت قريش بمحاولة أخرى مع أبي طالب، فذهب إليه وفد منهم، وأخذوا معهم أحد فتيانهم، وكان شاباً وسيماً وشاعراً مرموقاً بينهم، فقالوا :

يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، فتى قريش وأشعرهم وأجملهم، فخذه، فاتخذه ولداً وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفه أحلامنا وخالف دينك ودين قومك.

فرد عليهم أبو طالب مستهجناً قولهم :

" والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله لا يكون أبداً ".

فلما فشلت محاولتهم عادوا إلى عشائرهم وقد صمموا على تشديد الاضطهاد على المسلمين الجدد، فوثبت كل عشيرة من عشائر قريش على المسلمين من أبنائها يعذبونهم ويحاولون ردهم عن دينهم. وأحس أبو طالب بالخطر ، فدعا بني هاشم، وهم عشيرته والأقربون إليه من قريش، لمناصرته في حماية رسول الله، فاستجابوا لندائه، باستثناء أبي لهب، أحد أعمام الرسول.

الهجرة إلى الحبشة :

ولما اشتد الأذى على المسلمين أوعز رسول الله إلى من ضاقت بهم الحال بأن يهاجروا إلى أرض الحبشة. وكان ملك الحبشة يتمتع بسمعة طيبة في مكة حيث أنه يمنع أن يقع الظلم في بلاده. وهكذا هاجرت جماعات من المسلمين، تضم ثلاثة وثمانين رجلاً، سوى نسائهم وأطفالهم. وكان من بين الذين هاجروا رجال من أغنياء قريش، ومن عشائرها المعروفة، منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة رسول الله، والزبير

[6] محمد بن إسحاق / ***السيرة النبوية*** ، جزء 1 ، ص 190 .

بن العوام، وجعفر بن أبي طالب، ابن عم رسول الله ومصعب بن عمير وغيرهم ممن يطول الكلام بتعداد أسمائهم ؛ وعبر المهاجرون البحر الأحمر بعد خمس سنوات من بعثة رسول الله أي سنة 615/614 م. وحاول عتاة قريش اللحاق بهم إلا أنهم أفلتوا، فعندما وصل مطاردوهم إلى شاطئ البحر الأحمر كان المهاجرون على ظهور السفن يشقون عباب البحر في طريقهم إلى ملجئهم الجديد. ومع ذلك فإن قريشاً لم تكف عن حربهم فوجهت مبعوثين لمقابلة النجاشي، ملك الحبشة من أجل إقناعه بطرد المسلمين من بلاده ، وهما عمرو بن العاص السهمي ، وعبدالله بن أبي ربيعة. وقد حمل له الوفد الكثير من الهدايا. وعندما قابلا الملك قالا له :

إن غلماناً سفهاء من قومنا قد جاءوا إلى أرض الملك بعد أن تركوا دين آبائهم واتبعوا دينا مبتدعا لا نعرفه نحن ولا أنتم. وقد بعثنا أشراف قومنا إلى الملك ليردهم إلى آبائهم وأعمامهم وأهليهم.

وكان الملك رجلاً حصيفاً، فاستدعى المهاجرين ليسمع حجتهم وسألهم عن دينهم وصحة ما ذكره الوفد القرشي. فتكلم جعفر بن أبي طالب نيابة عن المسلمين، فقال :

" أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك ".

فما كان من الملك إلا أن رد وفد قريش خائباً، وبقي المسلمون هناك آمنين. وبعد أشهر من وصولهم إلى الحبشة تلقوا إشاعة مفاداها أن قريشاً هادنت المسلمين في مكة وسمحت لهم بممارسة شعائر دينهم بحرية، فغمر الفرح بتلك الإشاعة قلوبهم، وتاقت نفوسهم إلى العودة إلى وطنهم، فعادوا ليفاجأوا – قبل أن يدخلوا مكة – بأن ما بلغهم لم يكن أكثر من إشاعة بعيدة عن الواقع، وعرفوا أن الاضطهاد ما زال قائماً. وهكذا اضطر بعضهم إلى الالتجاء إلى حماية بعض أعيان مكة من قريش، بينما اختفى البعض الآخر عن الأنظار. وعاد الاضطهاد ليحرقهم بناره، فاضطر جماعة منهم إلى الهجرة إلى الحبشة مرة ثانية، وصبر آخرون على الأذى والنكال. وقد اشترى أبو بكر سبعة

من المسلمين الأرقاء، رجالاً ونساء، ممن كان سادتهم يعذبونهم، ثم حررهم وأعتقهم تقرباً إلى الله .

شخصيتان مهمتان تنضمان إلى المسلمين :

وفي هذا الوقت العصيب جاءت المسلمين نجدة وفرت لهم فترة أمان قصيرة التقطوا فيها أنفاسهم وقويت أثناءها عزيمتهم. كان حمزة بن عبد المطلب أحد أعمام رسول الله، وكان مشهوراً بالشجاعة وقوة الشكيمة، لكنه ظل مستنكفاً عن اعتناق الإسلام حتى ذلك الحين. وحدث أن تعرض أبو الحكم بن هشام للنبي صلى الله عليه وسلم بالسباب والإهانات ولم يرد النبي على شاتمه. وعاد حمزة من الصيد فعلم بالخبر بمجرد وصوله فتملكه الغضب، وسأل عن أبي الحكم فوجده في مجلس عام فأقبل عليه حتى وقف على رأسه وصاح به : كيف تشتم محمداً وأنا على دينه؟ ثم ضربه بقوسه على رأسه ضربة أدمته. ومنذئذ ذهب إلى النبي وتابعه وعمل على حمايته. وبعد إسلام حمزة بن عبد المطلب أسلم عمر بن الخطاب. وكان عمر أيضاً من شجعان قريش المعدودين. وكان شديد العداء للرسول، شديد الوطأة على المسلمين. ويوم اعتناقه الإسلام كان قد تقلد سيفه وأعلن عن عزمه على الذهاب إلى محمد لكي يقتله. فقال له رجل ممن سمعه : بدلاً من أن تذهب إلى محمد اذهب إلى زوج أختك وأختك، فقد أسلما وتابعا محمداً. فاشتد غضبه، وتوجه من فوره إلى بيت أخته، وقبل أن يطرق الباب سمع صوتاً يقرأ القرآن. وكان في البيت مع الزوجين أحد أصحاب الرسول، يعلمهما حفظ شيء من القرآن. وقد اختبأ بمجرد أن طرق عمر الباب. ودخل عمر ، فضرب زوج أخته، فلما تعرضت الأخت لتمنع عن زوجها لطمها عمر لطمة شديدة أدمت وجهها، فسقطت أرضاً وانخرطت في البكاء، وأكدت تمسكها هي وزوجها بالإسلام. ولما رأى عمر الدم يسيل من وجهها وسمع نشيجها، رق قلبه لها، وطلب منها أن تعطيه الصحيفة التي كانا يتعلمان منها القرآن. ولكنها أبت عليه وقالت له : إن القرآن كلام الله، ولا يمسه إلا المطهرون، وأنت نجس، فاذهب فاغتسل إن أردت أن تقرأها. فاغتسل عمر وأخذ الصحيفة فقرأ فيها صدر سورة طه :

(طه. مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءانَ لِتَشْقَى. إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى. تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى. الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى. الله لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى) [سورة طه/ آية 1 – 8].

فلما وصل عمر إلى هذا الحد من قراءته قال، وقد أسرته روعة القرآن : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! عند ذلك خرج الصحابي المختبئ ورغب عمر في الإسلام، فطلب منه أن يدله على مكان الرسول. ولما وصل عمر وأعلن إسلامه كبر المسلمون وفرحوا بإسلامه. ومنذئذ صاروا يؤدون صلاتهم لله علناً، عند الكعبة.

أسلوب جديد في الاضطهاد :

فلما رأى زعماء الوثنية من كبار قريش أن قوة الإسلام في تزايد مستمر، رغم كل عمليات الاضطهاد والتنكيل، اجتمعوا لتدارس الموقف، ثم اتفقوا على أن يكتبوا تعهداً بمقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب. أي أنهم اتفقوا على مقاطعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع كل أقاربه الذين يوفرون له الحماية رغم بقائهم على الوثنية. ولقد تضمنت شروط المقاطعة أن لا يزوجوهم بناتهم وألا يتزوجوا هم من بناتهم، وأن لا يشتروا منهم أو يبيعوهم أي نوع من السلع. ثم إنهم علقوا الصحيفة التي كتب في الاتفاق في داخل الكعبة لإعطائها صفة القداسة. وهكذا وجد المسلون أنفسهم محاصرين مع النبي صلى الله عليه وسلم، ومعهم كذلك أقاربه الأقربون، سواء الذين اعتنقوا الإسلام أو أولئك الذي ظلوا على الوثنية، هذا باستثناء أبي لهب، عم رسول الله، الذي لم يكتف بالسلبية تجاه ما تعرض له ابن أخيه من أذى، بل كان من أشد الكائدين، المحرضين على عداوته وأذاه. ولم يكتف زعماء الوثنية بالمقاطعة التي نفذوها من جانبهم بل عملوا على منع أية بضائع يجلبها التجار من أن تصل إلى المحصورين. وكان أبو لهب هو الذي يتولى كبر هذه القسوة الشنيعة، فكان كلما وردت قافلة تحمل مواد تموينية يحرض تجار مكة أن يعرضوا أسعاراً أعلى من أي سعر يعرضه أي واحد من المحصورين. وكان يضمن للتجار الربح وأن يعوض أي خسارة أو أي تدن في مستوى الربح من ماله الخاص، كي يحكم الحصار على المسلمين والمتعاطفين مع النبي من أقاربه الوثنيين.

واستمر هذا الحصار وتلك المقاطعة ثلاثة سنوات، أصاب المحاصرين خلالها الضنك الشديد، وكانوا يتضورون من الجوع ، وكان بكاء أطفالهم يثير الحزن والألم والعطف في نفوس بعض أهل مكة، فكان بعضهم يحمل البعير بالمواذ الغذائية ثم يوجهه تحت جنح الظلام نحو المحاصرين ويضربه فينطلق بمفرده. وهذا يدل على أن العناصر المتطرفة في عدائها للإسلام هي التي فرضت المقاطعة والحصار. وكان من الطبيعي أن يتطلع المسلمون إلى عون الله ونصره لهم وإخراجهم من ضائقتهم، فالله يعد المسلمين الصادقين العاملين الصابرين بالنصر، وإذ اشتد أثر الحصار على الرسول وصحابته فقد

أخذوا يتعجلون من الله العون والنصر. وكان الوحي يتنزل على الرسول داعياً إلى اليقين بوعد الله حاضاً المسلمين على مزيد من الصبر والثبات.

وما لبث أولئك الرجال الذين تعاطفوا مع المحاصرين أن جمعوا أنفسهم واتفقوا على أن وثيقة المقاطعة ظالمة، وصمم خمسة منهم على نقضها، وما لبثوا أن أعلنوا ذلك وحضوا زعماء قريش عليه، ولم يترددوا في إعلان تصميمهم رغم أصوات المتطرفين التي دعت إلى استمرار المقاطعة. وانطلق المطعم بن عدي ليمزق الوثيقة المودعة في جوف الكعبة منذ ثلاث سنوات فوجد أن الرطوبة والأرضة قد أبلتاها، وهكذا انتهت مرحلة المقاطعة، وشكر أبو طالب أولئك الرجال الشجعان الأوفياء الذين أفلحوا في إبطالها.

الدعوة تعاود نشاطها:

وما أن انقضى الحصار وخرج المسلمون من الشعب حتى استأنفوا نشاطهم في الدعوة إلى الإسلام . وفي الوقت نفسه عاد الحاقدون من رجالات قريش لمضايقة المؤمنين، بكل الأساليب التي استعملوها قبلاً. وبالرغم من ذلك ظلت الدعوة في تقدم، وظل عدد المسلمين في تزايد، وإن كان بطيئاً. وكان ممن اعتنق الإسلام في هذه الفترة وفد من نصارى العرب، جاءوا إلى الرسول يستطلعون أمر دعوته، وكانوا عشرين رجلاً. وقد وجه رجال الوفد للنبي عدداً من الأسئلة واستمعوا إلى آيات من القرآن الكريم فتأثروا تأثراً بالغاً جعل أعينهم تفيض بالدموع. وهكذا لم يفارقوا الرسول صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن أعلنوا إيمانهم بالإسلام وتصديقهم لرسوله واقتناعهم بصدق دعوته. وقد حاول أعداء الإسلام من قريش أن يردوا أعضاء الوفد عن الإسلام، وتولى هذه المهمة التخريبية أبو جهل بن هشام وجماعة معه. فلما خاب مسعاه وفشلت محاولته قال للوفد :

" خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال! ما نعلم ركباً أحمق منكم " .

فردوا عليه قائلين :

" سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً [7] "

عام حزين في حياة رسول الله :

---

[7] - إبن هشام، ***سيرة رسول الله*** ، مجلد 1 ، 392 .

وبعد فترة قصيرة من انتهاء الحصار، وفي نفس العام، حلت بالرسول صلى الله عليه وسلم نكبتان فقد بهم اثنين من أعز الناس عليه : عمه أبو طالب وزوجته خديجة. فأبو طالب هو الذي كفله ورعاه طفلاً، بعد وفاة جده عبد المطلب – كما مر معنا – وهو الذي بسط حمايته عليه منذ أن بدأ يبلغ رسالة ربه، وهو الذي رفض أن يسلمه إلى الأعداء أو أن يتخلى عن حمايته أمام كل الضغوط والإغراءات. ولذا فقد حق لرسول الله أن يحزن ويألم لتلك المصيبة.

أما زوجته فكانت مثال الزوجة الحانية التي وقفت بجانبه وساندته وشدت من عزيمته في كل المواقف الصعبة والخطيرة، وكانت أول من آمن بدعوته وصدقه، ولعل القارئ يذكر موقفها يوم جاءها الرسول مرتعداً من الفزع بعد أن تلقى الوحي أول مرة، ولم يكن متأكداً مما شاهده. وعلى الرغم من أنها كانت تكبره سناً، إذ تزوجها وهو في الخامسة والعشرين بينما كانت هي في الأربعين، إلا أنه عاش معها سعيداً طيلة خمسة وعشرين سنة. فلما توفيت شعر بوقع المصيبة المضاعفة، لا سيما وأن وفاتها جاءت بعد وفاة عمه أبي طالب بفترة قصيرة. وظل الرسول حافظاً لذكراها إلى حين وفاته، ولم يحتمل أن تذكر أمامه إلا بخير حتى بعد زواجه من غيرها، بعد بضع سنوات من وفاتها.

الفصل الثَـالِث

التوجّه بالدعَوة خَارج نطاق مَكة

رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف:

إذا كان زعماء قريش قد صموا آذانهم وأغمضوا عيونهم عن حقيقة دعوة الإسلام وحاولوا بكل ما وسعتهم الحيلة أنّ يصدوا الناس عن الإيمان، وأن يفتنوا المؤمنين عن دينهم فقد كان من المنطقي أن يتجه رسول الله ببصره إلى خارج مكة عله يجد في المجتمعات المحيطة بها تربة أكثر خصوبة، تتلقى دعوته بقبول ، وتسمح لها بالانتشار. وهكذا اتجه محمد إلى بلدة الطائف التي تبعد عن مكة بحوالي ثمانين كيلومتراً.

لقد قطع المسافة على قدميه ذهاباً وإياباً. وعندما وصل الطائف توجه بدعوته إلى من ظنهم من ذوي الحجا والمكانة من رجالاتها، فكان أن واجهوه بفظاظة وغلظة. لكن

إيمانه القوي بالحق الذي يدعو إليه، وتيقنه من صدق وعد الله له بأن يظهر دعوته جعله يتمسك بالأمل في أن يكون في تلك البلدة من يقبل منه، فظل طوال عشرة أيام يتردد على أهلها مثابراً على عرض الإسلام إلا أن النتيجة لم تتغير. ولم يكتف سادة الطائف بصد النبي والإغلاظ له بل إنهم طلبوا منه أن يغادر البلدة، وزادوا على ذلك بأن حرضوا عليه الصبيان والأوباش فأخذوا يطاردونه ويقذفونه بالحجارة، ومعه زيد بن حارثة الذي كان يعيش في كنفه ورافقه في هذه الرحلة. وقد شج رأس زيد وهو يحاول حماية النبي من الحجارة، كما أن الدماء نزفت من قدمي الرسول نفسه. فاضطر إلى الالتجاء إلى بستان على جانب الطريق ليفلت من هذا الأذى.

وبينما كان يجلس في البستان تحت ظلال كرمة يلتقط أنفاسه ويستعيد نفسه مما اعتصرها من ألم، وتتلاحق في ذاكرته ومخيلته ضروب ما لقيه من اضطهاد وصدود منذ أن بدأ يبلغ دعوة ربه في مكة ، فلم يجد ما يمكن أن يجلو كربه ويزيل همومه إلا أن يتوجه إلى الله ويطرح نفسه بين يديه، ثم أخذ يناجيه بهذا الدعاء الذي يفيد حزناً ، كما يفيض إيماناً وثقة بالله سبحانه وتعالى :

"اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس! يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي ! إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ! ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك. لك العتبى حتى ترضى .. ولا حول ولا قوة إلا بك".

ورآه أصحاب البستان فرقوا لحاله، وقالوا لخادم لهم – وكان مسيحياً – أن يأخذ عنقوداً من العنب ويعطيه إياه. فحمل عداس العنب إلى رسول الله، فمد الرسول صلى الله عليه وسلم يده ليأكل وقال : بسم الله، ثم أكل. فنظر عداس إليه في دهشة واهتمام وقال :

والله إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد. فسأله الرسول : ومن أهل أي بلاد أنت ؟ فأجابه بأنه نصراني من أهل نينوى. فعلق النبي قائلاً : من قرية الرجل الصالح

يونس بن متى. فسأله عداس : ما يدريك ما يونس بن متى ؟ فرد رسول الله بقوله : ذلك أخي كان نبياً، وأنا نبي. فأكب عداس على رسول الله يقبل راسه ويديه وقدميه.

العودة إلى مكة :

وبعد أن ارتاح النبي صلى الله عليه وسلم عاد إلى مكة، منطلق الدعوة الأول، ليستأنف منها نشاطه ؛ عاد ليواجه عداوة قريش ومناوأتها واضطهادها له ولأصحابه. وعندما سأل زيد بن حارثة رسول الله : كيف تعود إلى مكة مع كل ما لقيته من أهلها ؟ أجابه الرسول بكل ثقة وإيمان : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً.

رحلة الإسراء والمعراج :

لقد عانى الرسول منذ بدأ دعوة قومه إلى الإسلام من ضروب مختلفة من الصد والتكذيب والسخرية وألوان الأذى، وشعر بالألم المضاعف إذ يرى ضعفاء المؤمنين يتعرضون للعذاب الشديد دون أن يستطيع مساعدتهم. لقد آمن بما جاءه من الوحي من عند الله بأن الشدائد والمحن تمحص الإيمان وتقويه وتثبته، وتميز ضعيف الإيمان من قويه. ثم هو يفقد زوجته وعمه، في وقت واحد، وهما أقرب الناس إليه، ثم يلاقي الصد والفظاظة والمطاردة من أهل الطائف، ويعود بعد أن خاب أمله فيهم، وبعد كل ذلك يتوجه إلى ربه بتلك المناجاة المنطوية على أعلى درجات الإيمان وأعمق مشاعر المحبة، المعبرة عن أكبر قدر من الثقة في وعد الله ونصره. في هذه المرحلة تأتي رحلة الإسراء والمعراج. ولعلها كانت تنطوي على تطمين لرسول الله وتثبيت لفؤاده إذ يريه الله (مِنْ آيَاتِهِ الْكُبْرَى) ويجعله يمر بتجربة روحية فريدة خارقة للقوانين المألوفة تبعث في نفسه برد اليقين، ودفء الطمأنينة. إن يقين النبي وطمأنينته لم يتزعزعا، ولم يعتورهما أي ضعف، كما نرى في عبارات مناجاته في ختام رحلته إلى الطائف. ولكن آلام الصد والاضطهاد والأذى بَرَّحَتْهُ، فجاءت تجربة الإسراء والمعراج مسرية عنه، معيدة إليه الراحة والسعادة.

خلاصة قصة الإسراء والمعراج :

حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بعد استيقاظه من نومه بأنه أسري به في تلك الليلة إلى القدس، ثم عرج به إلى السماء ثم عاد إلى فراشه في ليلته. وقد شهد في تلك الرحلة من آيات الله، والتقى بالأنبياء الذين سبقوه، ورأى مصائر بعض

العصاة وبعض الصالحين، كما تلقى من ربه ما فرضه على المؤمنين من الصلوات الخمس.

وقد اختلف علماء المسلمين في العصور التالية ما إذا كانت هذه الرحلة بالروح أو بالجسد، أي أن بعضهم ذهب إلى أنها كانت رؤيا في المنام وأن جسد الرسول لم يغادر فراشه، بينما قال الآخرون إنها كانت رحلة بالروح والجسد معاً [8]. ولقد طلب رجالات قريش من النبي أن يصف لهم بيت المقدس، وكانوا على معرفة بها من خلال رحلاتهم التجارية، بينما يعلمون أنه لم يزرها قط ، فوصفها وصفاً دقيقاً.

وسواء كانت الحادثة مناماً أو كانت حقيقة مادية، فقد آمن المسلمون بصدق رسول الله في ما قال، ورأوا فيها تأكيداً على أن الله لن يضيع عباده المؤمنين بل سينصر الحق وأهله.

دعوة الوافدين إلى مكة :

كانت مكة – كما ذكرنا في فصل سابق – ملتقى للقادمين من مختلف أرجاء الجزيرة العربية للحج والطواف بالكعبة، وللقيام بالأعمال التجارية، وإنشاد الشعر. فأراد الرسول صلوات الله عليه أن يستفيد من موسم الحج وفرصة تجمع الناس ليخرج بدعوته من نطاق مكة، خاصة بعد أن شدد قومه معارضتهم لدينه، وبعد أن رده أهل الطائف رداً سيئاً. ومن أجل هذه الغاية أخذ يدور على وفود القبائل المشاركة في الحج، ومع ذلك لم يتركه قومه وشأنه، بل جعل عمه عبد العزى بن عبد المطلب، الملقب بأبي لهب، يتابعه فإذا حدث النبي جماعة ودعاهم إلى الإسلام جاء أبو لهب وحرضهم على عدم الاستجابة له أو الاستماع إليه. واستمر النبي على ذلك حتى لقي جماعة جاءوا من المدينة، وكانت آنذاك تسمى يثرب، وكانت تلك الجماعة من الخزرج. فلما عرض عليهم الإسلام قبلوا ما عرضه وآمنوا به وكانوا ستة رجال وامرأة. ولما عادوا إلى يثرب دعوا قومهم إلى الإسلام فآمن عدد منهم. وفي السنة التالية جاء وفد منهم يضم اثني عشر رجلاً، بينهم نفر من الأوس، القبيلة الأخرى التي تشارك الخزرج استيطان يثرب ؛ وقد أكدوا إيمانهم بالإسلام وولاءهم لدعوته. وإذ أدرك النبي أهمية انتشار الإسلام في المدينة فقد كلف أحد أصحابه المؤمنين، واسمه مصعب بن عمير، وهو من بني عمومته، بني هاشم، كلفه بمرافقة المؤمنين الجدد إلى يثرب ليعلمهم فرائض الإسلام وشعائره،وليعمق فهمهم لمبادئه العامة وأصوله وتطبيقاته السلوكية في الحياة الاجتماعية.

---

[8] - إبن هشـام ، مجلد 1 ، ص 399 – 400 .

سكان يثرب:

انقسم سكان يثرب قبل الإسلام في ثلاث جماعات متباينة، وهي :

- قبيلة الأوس.
- قبيلة الخزرج.
- اليهود، وكانوا ثلاث قبائل : بنو النضير، وبنو قريظة وبنو قينقاع.

وكان الأوس والخزرج يشكلون أغلبية سكان المدينة، من حيث العدد، غير أنهم كانوا على خلاف دائم، تثور بينهم المعارك لأتفه الأسباب. وفي ظل هذا الخلاف وجد اليهود فرصتهم للإثراء والسيطرة الاقتصادية عن طريق الإقراض بالربا.

وكان سكان يثرب يحيَوْنَ حياة مستقرة، في مساكن ثابتة، أي أنهم لم يكونوا يمارسون حياة الترحال كأهل البادية. ومع ذلك فقد احتفظوا بانتماءاتهم القبلية، ولم تكن ثقافتهم وعقليتهم تختلفان كثيراً عن الأعراب، أي البدو الرحل، الذين كانوا يحيطون بالبلدة ويترددون عليها. وينطبق هذا الوصف على الأوس والخزرج كما ينطبق على القبائل اليهودية الثلاث التي لم تختلف عنهم في شيء إلا في الدين وفي ممارسة بعض أفرادها للأعمال المالية وبعض الحرف، مثل الحدادة وصياغة الحلي الفضية والذهبية. وكانت العربية لغة الجميع، لم تكن لليهود لغة غيرها، كما كان شعرهم عربياً وأسماؤهم عربية. وكان عدد كبير من سكان المدينة يمارس الزراعة ويملك البساتين.

نجاح الدعوة الإسلامية في يثرب :

لقد أحسن الرسول الاختيار إذ كلف بالمهمة مصعب بن عمير الذي كان نِعْمَ الداعية الناجح، فما أن مضت على وصوله المدينة بضعة أشهر حتى كان الإسلام قد دخل كل بيت من بيوتها، باستثناء البيوت اليهودية من أهلها. والظاهر أن مصعب بن عمير قد جمع إلى صدق الإيمان ومضاء العزيمة قدرة ممتازة على الحوار، ومعرفة فطرية بمداخل النفوس، وأسلوباً مناسباً لترويض النافرين المعاندين. وكان قد نزل – عند وصوله يثرب – في دار أسعد بن زرارة بن عدس، أحد المؤمنين الأوائل الذين التقى بهم الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة. وكان سعد بن معاذ، زعيم الأوس، ابن خالة أسعد بن زرارة الذي نزل مصعب في بيته. ويبدو أن سعداً قد تضايق من وجود مصعب ونجاحه في نشر الإسلام في يثرب، وتمنى لو أنه استطاع وقف هذا النشاط حتى لا ينسلخ قومه عن دينهم القديم ؛ غير أن صلة القرابة التي تربطه بأسعد أحرجته ومنعته من أن يضايق ضيف ابن خالته. ولكن صبره نفد في النهاية، فطلب من صديقه أسيد بن حضير – وكان أسيد من سادات يثرب المرموقين – أن يقوم بالمهمة نيابة عنه، نظراً

لحرجه من ابن خالته، بل إنه طلب منه أن يزجر أسعد ومصعباً معاً، وأن يحذرهما من مواصلة نشاطهما في صرف القوم عن دينهم القديم. وذهب أسيد بن حضير حاملاً حربته حتى وصل إلى الرجلين الشــر باد في وجهه.

وعندما رأى أسعد أسيداً وهو مقبل عليهما من بعد نبه مصعباً إلى أهمية كسبه وإقناعه بعقيدة الإسلام. وما أن وقف أسيد قبالتهما حتى بادرهما زاجراً متوعداً قال :

" ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ! ".

فاقترح عليه مصعب أن يجلس ليسمع ما لديه، فإن اقتنع به قبله، أما إذا كرهه فسيكف عنه ما يكرهه. قال أسيد : أنصفت . ثم ركز حربته وجلس. فأخذ مصعب يشرح له الإسلام ويقرأ له شيئاً من القرآن، وأخذ الاهتمام يبدو على وجه أسيد بما يسمع، ثم بدا وجهه يتألق ويتهلل، وانبسطت أساريره، ورأي مصعب في وجهه بشائر الإيمان الصادق فمضى يشرح له معنى وحدانية الله وقربه من خلقه ورحمته بهم، ويبين له ما يفرضه الإسلام من استقامة النفس وحب الآخرين والتعلق بالعدل والامتناع عن الاعتداء على حقوق الآخرين، ونصرة المظلوم ومساعدة الضعيف وإخلاص النية لله في القول والعمل، وتذكره والحرص على رضاه بالعمل الصالح في كل لحظة من حياة الإنسان.. وإذا بأسيد يهتف : " ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ " فأجباه مصعب بأن الأمر في غاية البساطة ولا يحتاج إلى طقوس أو اعتراف أو كهانة. وأفهمه أن كل ما عليه حتى يدخل الإسلام أن يغتسل فيطهر بدنه وأن يغسل ثيابه فيطهرها، ثم يعلن الشهادتين بقوله : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم يصلي.

فنهض أسيد ونفذ كل ذلك في الحال. ثم أخذ حربته وعاد إلى صديقه سعد بن معاذ بغير ما كان يأمله. وذهب سعد بنفسه إلى ابن خالته وأخذ يلومه على ما يقوم به من نشاط في سبيل الدعوة إلى الإسلام. ودعاه مصعب إلى الجلوس.. وتكرر المشهد السابق، ودخل سعد في الإسلام. وبعد أن أنهى صلاته أخذ حربته وذهب إلى حيث يجتمع أكابر قومه، وخاطبهم بقوله :

" كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأوصلنا وأفضلنا وأيمننا نقيبة. قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم حرام علي حتى تؤمنوا بالله ورسوله ".

فلم يأت مساء ذلك اليوم حتى دخلوا الإسلام جميعاً. وهكذا واصل الإسلام انتشاره حتى دخل معظم بيوت يثرب كما ذكرنا.

وبعد أن وصل الداعية الناجح إلى هذه النتائج الباهرة حمد الله حمداً كثيراً لما وفقه إليه من خير، ولما ساعده به حتى جرى كل هذا الإنجاز على يديه، ثم رأي أن يعود إلى مكة ليقدم تقريراً إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعرفه مدى ما أحرزه الإسلام من تقدم ونجاح، وليصف له مقدار تشوق المسلمين الجدد للقائه والاستماع إليه والأخذ عنه.

الفَصل الـرَابع

الـهـجـرة

الهجرة هي انتقال النبي محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، وانتقال أصحابه والمؤمنين به كذلك، حيث جعل من المدينة مستقر وقاعدة الدعوة، بعد أن أصر أهل مكة على محاربته ومحاولة خنق دعوته والقضاء عليها. وتشكل الهجرة أعظم نقطة تحول في تاريخ جهاد الرسول، وفي تاريخ قيام الأمة والدولة الإسلامية؛ وهي المعلم البارز الذي يفصل بين المرحلتين الرئيستين في حياة الرسول وحياة الرعيل الأول من صحابته. وسنحاول أن نرسم الملامح الرئيسية لمرحلة ما بعد الهجرة، وأن نذكر أهم التفاصيل التي تعين القارئ على فهم كيفية قيام الإسلام وفهم مضمونه من خلال ممارسات الرسول وتوجيهاته عبر هذه المرحلة الرئيسية المهمـة.

اللقاء الثالث مع الأنصار:

مر معنا أن رسول الله التقى بنفر من أهل يثرب الذي قدموا مكة لأداء مناسك الحج. وقد حدث أول لقاء في السنة العاشرة بعد مبعثه، وهي سنة 619 م. وكان اللقاء الأول مع سبعة أشخاص كما ذكرنا. وتكرر اللقاء في الموسم التالي، أي سنة 620 م عندما قدم اثنا عشر رجلاً قاصدين لقاء النبي. وفي هذه المرة كلف رسول الله صاحبه وابن عمه مصعب بن عمير بمصاحبتهم إلى يثرب، حيث نجح نجاحاً باهراً في نشر الإسلام وتوطيد أساس الدعوة في هذا الموطن الجديد. وعاد مصعب إلى مكة كما ذكرنا ليقدم تقريره إلى رسول الله.

وعندما حل موسم الحج التالي جاء وفد كبير من مسلمي يثرب للقاء الرسول، وكان مجيئهم ضمن الوافدين من غير المسلمين من بلدهم. وتواعدوا مع النبي كي يلتقي بهم سراً، بعيداً عن عيون قريش، وكان اللقاء ليلاً بعد الانتهاء من مناسك الحج. وقد انتظر الوافدون الرسول عند العقبة وكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين. وتم الاتفاق في ذلك اللقاء على أن ينتقل الرسول ومن معه من المسلمين في مكة إلى يثرب، وتعهد وفد المسلمين في يثرب بأن يقف المسلمون هناك مع رسول الله، يحمونه ويحمون دعوته كما يحمون نساءهم وأولادهم وأنفسهم. وبايعوه على ذلك، وعلى السمع والطاعة له في المنشط و المكره.

بدء الهجرة :

وإذ تيسر للمسلمين أن يتحرروا من نير الاضطهاد الذي صبه عليهم أعداء الإسلام من قومهم في مكة فقد أذن رسول الله لصحابته في الهجرة إلى يثرب. وهكذا أخذت جماعات من مسلمي مكة تهجر موطنها لتتخذ لها موطناً جديداً حيث تجد الأمان وحرية العقيدة والتعبد إلى الله والحياة بالطريق التي يحبها الله والتي حَضَّ عباده المؤمنين على سلوكها والالتزام بها.

ولم يدع سادة قريش هذا التحول ليمر بحرية وسلام، فقد شددوا على المسلمين الخناق وحاولوا منعهم من الهجرة، ولكن أنى لهم ذلك في بلد وسط الصحراء لا سور له، يغدو أهله ويروحون للتجارة والرعي خارج بلدهم. وقد كان المهاجرون من المسلمين يحرصون على كتم أمرهم والتحضير للهجرة في سرية تامة، حتى إذا واتتهم الفرصة خرجوا من مكة مخلفين دورهم وأموالهم وكل ذكريات حياتهم؛ كل ذلك تلبية لهاتف الإيمان في قلوبهم، وحباً في الله وحباً في رسوله، حتى يتيسر لهم أن يحيوا كما يأمرهم الله ويريد لهم أن يحيوا.

بل لقد حاول بعض سادة قريش أن يطاردوا المؤمنين بعد وصولهم إلى يثرب ومن أمثلة ذلك ما جرى مع الصحابي عياش بن أبي ربيعة. فبعد أن هاجر عياش واستقر في يثرب لحقه اثنان من أبناء عمه من وثنيي مكة، وخدعاه بأن قالا له إن والدته في حالة سيئة وأنها أقسمت ألا تستظل من الشمس وألا يمس رأسها مشط حتى تراه. فرق قلبة لأمه وعزم على الذهاب معهما لرؤيتها. وقد حذره أصدقاؤه من المسلمين ونبهوه إلى أن في الأمر خديعة، لكنه أصر على الذهاب . ومضى مع قريبيه بالفعل حتى إذا قطعا من طريق العودة مسافة يسيرة به أوثقاه وعادا به إلى مكة مشدود الوثاق، وهنا حبس وأخضع للتعذيب لحمله على الارتداد عن الإسلام.

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم :

وتأخر رسول الله في مكة حتى هاجر جميع أصحابه، إلا من حبس وحيل بينه وبين الهجرة. وقد استبقى الرسول معه صاحبه أبا بكر الصديق، كما استبقى معه صاحبه وابن عمه علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهما. ويبدو أن سادات قريش قد رأوا في انتقال الرسول إلى يثرب خطراً عليهم، ولذا تآمروا للحيلولة دون هجرته. وأوصلهم تآمرهم إلى ضرورة قتله، وظنوا أنهم بذلك سيقضون على دعوته. ولكن الله الذي أراد لدينه الرسوخ والانتشار تكفل بحماية رسوله، وعرفه ذلك بقوله جل من قائل : (والله يعصمك من الناس). وإذ هاجر معظم المسلمين إلى يثرب، وبلغ التآمر في مكة إعداد خطة لقتل الرسول ينفذها عشرة شبان أقوياء منتخبين من عشرة قبائل، على أن يضربوه كلهم بسيوفهم مرة واحدة وفي وقت واحد، وبذلك يتفرق دمه في كل هذه القبائل فلا تستطيع قبيلته أن تحاربهم جميعاً طلباً لثأره فتضطر لقبول الدية، وعند هذا الحد أذن الله سبحانه وتعالى لرسوله بالهجرة إلى يثرب.

وكان قادة الوثنية من قريش قد شددوا الرقابة على الرسول حتى في أثناء نومه ، ولذا فقد طلب من علي أن ينام في فراشه ليلة قرر مغادرة مكة. وكان صاحبه أبو بكر قد أعد راحلتين ليركباهما في رحلتهما إلى يثرب. ثم خرج رسول الله من مكة ليلاً تحت جنح الظلام يصحبه أبو بكر الصديق؛ وبدلاً من أن يواصلا الرحلة إلى يثرب دخلا غاراً بجبل ثور، أحد الجبال المحيطة بمكة، وذلك تحسباً لمحاولة عدوهما ملاحقتهما في الطريق إلى المدينة. وكان أبو بكر قد رتب الأمر جيداً، فكان ابنه عبد الله يتسمع الأخبار في مكة نهاراً ويأتيهما بها ليلاً، وكانت ابنته أسماء تأتيهما بما يحتاجانه من الطعام، بينما كان خادمه عامر بن فهيرة الموكل برعي غنمه، يأتي بالغنم فيمر بها على آثار عبد الله وأسماء حتى لا يكتشف الأعداء مخبأ المهاجرين في الكهف. واكتشف الأعداء في الصباح أن النائم في الفراش لم يكن محمداً، بل كان علياً ابن عمه، فاشتد غيظهم، وأخذوا يرسلون جماعات المطاردة في كل اتجاه ويحاولون تحري آثار الرسول و صاحبه دون جدوى. وفي إحدى المرات وصلوا قريباً من باب الغار حتى سمع الرسول وصاحبه أصواتهم. وقد حزن أبو بكر خوفاً على رسول الله، فشجعه النبي بقوله : " لا تحْزن إن الله معنا ". وقد سجل القرآن خبر ذلك الموقف في إشارة موجزة، وذلك في قول الله تعالى :

(إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا وَالله عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ، [سورة التوبة/ أية رقم 40]

.

وبعد مضي ثلاثة أيام يئس أعداء الإسلام فكفوا عن طلبه، وإذ ذاك خرج وصاحبه، وركبا راحلتيهما وسارا وأمامهما دليل استأجراه متوجهين إلى يثرب. أما علي فقد ظل في مكة بعض الوقت بأمر من النبي لينوب عنه في إرجاع الودائع التي كانت بحوزة رسول الله إلى أصحابها، وذلك أن رجال مكة العاديين من غير المسلمين كانوا يثقون برسول الله ويودعون عنده حاجياتهم الثمينة. وإذ اضطر الرسول إلى الهجرة فقد كلف ابن عمه برد تلك الودائع إلى أصحابها. وبعد هذه الرحلة المضنية وصل المهاجران إلى مشارف يثرب في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة، أي في الرابع والعشرين من شهر أيلول (سبتمبر) سنة 622 للميلاد. واستقبله المسلمون في يثرب بالتكبير وقد عمتهم الفرحة الغامرة بوصول الحبيب، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي كان أكثرهم يرونه أول مرة.

وهكذا دخل رسول الله ودخلت دعوته مرحلة جديدة من مراحل تبليغ الرسالة وبناء الأمة التي كلفه الله ببنائها.

خصائص المرحلة الجديدة ومميزاتها :

تتميز المرحلة التالية للهجرة، من حياة الدعوة الإسلامية، بالخصائص التالية:

أولاً : بينما كان المسلمون في مكة أقلية دينية مضطهدة أصبحوا في المدينة أكثرية، وصاروا يعملون بحرية، دون اضطهاد.

ثانياً : صار المسلمون يعيشون في مجتمع يتولى الرسول قيادته الدينية والسياسية معاً، بينما عاشوا في مكة في مجتمع سيطرت عليه قيادة وثنية.

ثالثاً : صار للمسلمين كيان سياسي متميز، وغدوا يشكلون نواة دولة جديدة.

رابعاً : أذن الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالقتال، رداً للظلم والعدوان، بعد أن ظلوا في مكة طوال ثلاثة عشر عاماً يسكتون على ما يقع عليهم من ظلم ويحاولون الرد على الإساءة بالإحسان . وفي الإذن للمسلمين بالقتال دفاعاً عن أنفسهم أوحى الله لرسوله :

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُواْ رَبُّنَا الله ...) [سورة الحج/ الآيتان 39 – 40]

وهكذا دخل المسلمون معركة صراع عسكري وسياسي، لإعادة الحق إلى نصابه.

ومنذ وصول الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب، التي سماها المسلمون – منذئذ – المدينة بدأ العمل لتوطيد أركان المجتمع الجديد. وقد شمل اهتمامه ونشاطه خلال السنوات العشر التي قضاها في المدينة، القضايا التالية :

(أ) تحديد وتوطيد العلاقة بين المهاجرين[33] والأنصار[34].

(ب) وضع قواعد تحدد العلاقة بين المسلمين من ناحية وسكان المدينة من اليهود من ناحية أخرى.

(ج) بدأ الصراع القتالي ضد قريش التي اضطهدت المسلمين مما اضطرهم إلى الفرار، كما واصلت الضغط على الذين لم ينجحوا في محاولة الفرار وكل من دخل الإسلام بعد ذلك.

(د) مد أفق الإسلام خارج نطاق المدينة ونشره في أرجاء شبه الجزيرة العربية.

(هـ) توجيه الدعوة إلى العالم الخارجي، حيث بعث النبي برسائل إلى الملوك والحكام والأمراء في الدول والأقطار المعروفة آنذاك.

(و) مواجهة الاحتياجات التنظيمية والتشريعية للمجتمع الجديد بالقدر الذي يتناسب مع نموه وتطور أوضاعه، وفي إطار البنية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لذلك المجتمع.

وسنحاول – في الصحفات التالية – أن نأتي على ذكر هذه الجهود بشيء من التفصيل بالقدر الذي يعطي القارئ صورة واضحة ومتكاملة.

خطوات لتوحيد المجتمع المـدينـي :

بناء المسجد:

المسجد عند المسلمين الأوائل لم يكن مجرد مكان للعبادة، وإنما كان – بجانب ذلك – مدرسة يتعلم فيها الكبار والصغار، يتعلمون فرائض الدين وشرائعه، كما يتعلمون القراءة والكتابة. وفضلاً عن هذا كان المسلمون يهرعون إلى المسجد إذا واجههم موقف هام، فيجتمعون لمناقشة الأمر والتشاور فيه والوصول إلى الرأي الصواب. ومن المسجد كان الرسول يمارس القيادة والتنظيم، بل ويعقد ألوية قادة الحملات العسكرية. وإذا كانت هذه وظيفة المسجد فلا غرابة في أن نرى النبي يبادر ببناء المسجد بُعَيْدَ وصوله إلى المدينة. وكان البناء في غاية البساطة، دخلت فيه الحجارة والطوب الطيني النيء (اللِّبِن) وخشب جذوع النخل، وجعل سقفه من جريد النخيل، بينما فرشت أرضه بالرمل والحصى[35].

وكان ذلك المسجد المتواضع البناء هو الذي ربى الجيل الأول من رجال الإسلام الذين حملوا عقيدتهم إلى الشرق والغرب، حيث وضعت أسس حضارة لم تلبث أن بزت كل الحضارات المعاصرة لها على كل صعيد.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

خرج المهاجرون من مكة فارين بدينهم، وقد تركوا فيها الأهل والولد والأحبة، كما تركوا المال والعقار والتجارة. ولكي لا يشعروا بالغربة في مهجرهم، وتأكيداً لمعنى الأخوة التي أمر بها الله عباده المؤمنين فقد آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار مؤاخاة خاصة بجانب المؤاخاة العامة. أي إنه لم يكتف بالمعنى العام للأخوة بل خصص وحدد بأن قال : فلان من المهاجرين وفلان من الأنصار أخوان، وعمم الأخوة بالنسبة للمهاجرين والأنصار. وعلى أثر ذلك ظهرت روح الإيثار في الأنصار بأجلى صورها، فقد عرضوا على إخوانهم المهاجرين أن يشاطروهم أموالهم وما يملكون، غير أن المهاجرين تعففوا واكتفوا بما يعينهم على بدء حياتهم الاقتصادية من جديد. ومن أمثلة ذلك أن سعد بن الربيع الأنصاري عرض على عبد الرحمن بن عوف – وكان أحد كبار الصحابة المهاجرين – عرض عليه أن يقاسمه ماله مناصفة، وكان أكثر الأنصار مالاً، فشكره عبد الرحمن ودعا الله أن يبارك له في ماله، واعتذر عن قبول شيء، واكتفى بأن طلب منه أن يدله على السوق ففعل. وكان عبد الرحمن من تجار مكة المرموقين ، وبعد أن دله أخوه الأنصاري على السوق تمكن المهاجر المعدم من أن يكون له عملاً تجارياً ناجحاً واغتنى من جديد. بل لقد توارث الإخوة من المهاجرين والأنصار أموالهم في حالات الوفاة، إلى أن نزل الوحي وبيّن أن ذوي القرابة النسبية أولى بالوراثة، وذلك في قول الله تعالى : (وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ الله إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ، [سورة الأنفال/الآية رقم 75] . وبذلك ألغى توارث التركات بين المهاجرين والأنصار.

العلاقات مع غير المسلمين:

عندما حل المسلمون في المدينة صار سكانها يتكونون من أربعة فرقاء رئيسيين :

1- المسلمون من أهل المدينة (الأنصار).
2- المسلمون القادمون من مكة (المهاجرون).
3- ذلك القسم من أهل المدينة الذي ظل على دينه القديم وتأخر إسلامه بعض الوقت.
4- الجماعات اليهودية.

وقد أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن العلاقة بين هؤلاء الفرقاء لا بد أن تضبط على أسس واضحة ومتفق عليها حتى لا يظل الباب مفتوحاً للنزاعات والاضطراب. وقد تجلت سماحة الإسلام في ذلك العصر الموغل في التعصب عندما حدد رسول الله تلك العلاقة على أساس الاحترام المتبادل، وحرية كل فريق في ممارسة دينه، وتعاون الجميع لتحقيق المصلحة العامة المشتركة، وصيغ كل ذلك كتابة، ونصه موجود في كتاب سيرة رسول الله لابن هشام(37) الذي رواها عن ابن اسحاق. وقد توفي ابن اسحاق سنة 152 هـ / 769 م ، أي بعد 142 سنة من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم. وأهم النقاط التي أكدها ذلك الدستور ما يلي :

أولاً : إن المسلمين كلهم فريق واحد وجماعة واحدة يتعاونون في السراء والضراء متكافئين متكافلين، وإن سلمهم واحد وحربهم أيضاً واحدة، بمعنى أنهم يلتزمون بالسلم جميعاً، ويكونون في حالة الحرب معاً كذلك.

ثانياً : إن للجماعات اليهودية حرية الاحتفاظ بدينها وممارسة شعائره.

ثالثاً : يتعاون الجميع في رد أي خطر تتعرض له المدينة بما في ذلك حالة الحرب.

رابعاً : يتعاون الجميع في رفع الظلم ومناصرة المظلومين في نطاق العلاقات بين سكان المدينة.

خامساً : لا يجوز لأحد أن يتعاون مع قريش أو أن يوفر الحماية لأفرادها وتجارتها.

سادساً : ما يحدث من خلاف بين من يشملهم الاتفاق يحكم فيه رسول الله.

سابعاً : توفير الأمان لمن أقام في المدينة أو غادرها إلا أن يكون قد ارتكب ظلماً ضد أحد.

ثامناً : إذا اعتدى شخص أو ارتكب جريمة ضد الآخرين تقع المسؤولية والعقوبة عليه وليس على الفريق الذي ينتمي عليه من الجماعات القاطنة في المدينة.

الفَصل الخامِس
المواجَهة معَ الأعداء الخارجيين

وبعد أن رتب رسول الله الأوضاع الداخلية في المدينة على النحو الذي ذكرنا، التفت إلى علاقات المسلمين بالقوى الخارجية. فبجانب عداوة أهل مكة من قريش للمسلمين كانت هناك قبائل الأعراب من البدو الرحل الذين انتشروا في صحاري شبه الجزيرة العربية الواسعة. وكانت حياة هذه القبائل وتقاليدها القديمة تقوم على شن الغارات والسلب والنهب في أغلب الأحوال، كما ذكرنا في غير هذا الموضع. وقد أدرك الرسول هذا الخطر ولم يغفل عنه؛ ومن هنا فإن استعداداته وجهوده توجهت لدرء هذين الخطرين معاً.

مواصلة الجهاد ضد قريش:

بالرغم من هجرة الرسول ومن معه من المؤمنين والتجائهم إلى المدينة فإن الصراع بين الجانبين لم ينته. فالنبي ومعه المسلمون لم يهاجروا طلباً للسلامة فحسب، بل هاجروا ليقفوا في موضع يكونون فيه أكثر قدرة على مواجهة باطل الوثنية وظلمها وعدوانها، ولكي تتوفر لهم حرية التبشير بدين الله والدعوة إليه. لقد كانت الهجرة انسحاباً مؤقتاً بغرض التحضير والاستعداد لجولات قادمة من الصراع. ولا مراء في أن الإسلام يدعو إلى السلم بين الناس، ويعتبره الأصل والقاعدة. أما الحرب فهي الاستثناء الذي لا ينبغي أن يقع إلا لضرورة. ولقد حض الله الرسول والمؤمنين على الدعوة بالرقة واللين، حتى في المناقشات العادية :
(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [سورة النحل/آية 125].

وقد حرم الله استعمال الإكراه أو القوة في فرض قبول الدين على الناس، فقال تعالى : **(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ)** ، [سورة البقرة/256] .

وقد علم الله رسوله والمؤمنين وأمرهم برد الإساءة بالإحسان، وذلك في قوله تعالى : **(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)** ، [سورة فصلت/ آية 34]

ولا شك أن هذا الأسلوب الكريم يصلح مع كرام الناس، والعناصر الطيبة منهم. فإذا أساء إليك شخص من هؤلاء وقابلت إساءته بكلمة طيبة ندم على إساءته وجاءك معتذراً، وتحول إلى صديق. ومع ذلك فإن كثيرين لا يعيدهم هذا الأسلوب الإنساني إلى صوابهم، وإنما يجعلهم يستمرون في العدوان ويواصلون ممارسة الظلم والطغيان. ومن أجل هذه الحقيقة فإن سياسة الصبر على الأذى دون رده بمثله لم تكن الأسلوب الدائم والسياسة الثابتة اللذين لا يتغيران، وإنما كان ذلك موقفاً مؤقتاً قصد به إعادة الظالم إلى إنسانيته وإقناعه بأن الحوار السلمي هو الأفضل والأليق بالناس الخيرين؛ فإذا عاد إلى رشده كان في ذلك الخير للطرفين. أما إذا واصل عدوانه وظلمه ولم يتأثر بروح المسالمة عندها يفرض الإسلام على أتباعه جهاد المعتدي بالحرب وإجباره على كف عدوانه وظلمه. وعلى هذا الأساس خاطب الله الرسول والمؤمنين بعد الهجرة بقوله :

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله وَلَوْلاَ دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ الله كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ ..) ، [سورة الحج/ آية 39] .

ومن خلال هذا المفهوم الشامل لمعنى الهجرة قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم إفهام قريش بأن هجرته مع أصحابه إلى المدينة لا تمثل انسحاباً نهائياً من حلبة الصراع، وإنما تمثل بداية مرحلة جديدة. ولذا نجده يسير بخطى محسوبة، تضافر فيها العمل السياسي مع الضغط العسكري، ويوجه سراياه وكتائبه في عدة اتجاهات وفق برنامجه الشامل. وسنتناول هذا النشاط العسكري وإدارة الرسول للصراع بشكل شامل ولكن من غير احتفال بالتفاصيل الصغيرة التي لا فائدة من حشدها، مع تكرارها، ومع عدم وثاقة روايات بعضها. وقد قاد النبي المقاتلين بنفسه سبعاً وعشرين مرة لم يحدث

في أكثرها قتال، وأرسل حملات أو مجموعات صغيرة من المقاتلين يقودها رجال من أصحابه سبعاً وأربعين مرة [9](42). وسنعرض مجرد أمثلة من الحملات الصغيرة التي لم يزد عملها عن عمل الدوريات العسكرية في العصر الحديث، بينما نسلط مزيداً من الضوء على المواجهات العسكرية الكبيرة ذات الآثار الهامة أو الحاسمة في تطور الدولة الإسلامية.

فبعد سبعة أشهر من وصوله إلى المدينة مهاجراً شكل النبي قوة صغيرة من ثلاثين رجلاً أعطى قيادتها لعمه حمزة بن عبد المطلب، ووجهها لاعتراض قافلة تجارية لقريش. ولم تحدث إلا مناوشة بسيطة ترامى فيها الفريقان بالسهام، ثم انضم اثنان ممن كانوا مع القافلة إلى المسلمين، وجاء زعيم قبلي من المنطقة فحجز بين الطرفين وعادت القافلة إلى مكة. وفي الشهر الثامن بعد هجرته وجه قوة أخرى تراوح عددها بين ستين وثمانين رجلاً، كانوا كلهم من المهاجرين، قادها ابن عمه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب. وقد تقابلت القوة مع قوة قرشية كبيرة عند مكان يسمى ثنية المرة، وجرت مناوشة رمياً بالسهام، وتجنب الفريقان الالتحام وعاد المسلمون إلى المدينة. ثم قاد النبي بنفسه قوة من أصحابه وسار إلى مكان يدعى ودّان، وذلك بعد أحد عشر شهراً من هجرته. وهناك عقد اتفاق سـلام مع رئـيـس قبيلة بني ضمرة وعاد إلى المدينة دون قتال.[10]."

المعارك الرئيسية ضد قريش :

وقعت خمس مواجهات عسكرية رئيسية بين المسلمين وبين قريش وحلفائها. وعرفت أول مواجهة باسم " غزو بدر الكبرى " نسبة إلى موضع به نبع ماء يسمى بدر، وحدثت المواجهة الثانية عند جبل أحد، قرب المدينة، ولذلك سميت بغزوة أحد. أما الثالثة فكانت غزوة الخندق، أو غزوة الأحزاب. وسميت بـ " الخندق " لأن المسلمين حفروا خندقاً تحصنوا به لمنع قوات الأعداء من اقتحام المدينة. وقد ضَمَّتْ قوات العدو – بالإضافة إلى قريش – عدداً من القبائل التي تحالفت مع أهل مكة وعدداً من اليهود، ولذلك سميت غزوة الأحزاب. أما المواجهة الرابعة فجرت في الحديبية، قرب مكة، ولم يكن الرسول ذاهباً للحرب، بل لأداء العمرة، ولكن قريشاً رفضت السماح للمسلمين بالدخول، وكاد ينشب القتال بين الفريقين إلا أنهما توصلا إلى اتفاق مصالحة مدته عشر

---

[9] - محمد بن عمر الواقدي ، ***كتاب المغازي*** ، مجلد 1 ، ص 2 – 7 .

[10] - خليفة بن خياط ، ***تاريخ خليفة بن خياط*** ، ص 56 ؛ إبن هشام ، مجلد 1 ، ص 591 – 592 .

سنوات. وجاءت المواجهة الخامسة إثر إقدام قريش على نقض الصلح، فغزا الرسول مكة، فاستسلمت دون قتال.

وسنحاول في الصفحات التالية أن نتناول بشيء من التفصيل كل واحدة من هذه المواجهات، مركزين الأضواء على ما توضحه من مبادئ الإسلام وسياساته.

غزوة بدر الكبرى :

لقد أدرك رسول الله بثاقب نظره أن حياة أهل مكة في تجارتهم، وأن تعطيل هذه التجارة يشكل ضربة كبيرة لهم. وهكذا قرر الضغط عليهم من هذه الناحية، وأخذ يبعث بالطلائع لتحسس أخبار قوافل قريش في طريق عودتها من الشام إلى أن وافاه عيونه بالخبر بأن قافلة قد عادت وأنها مرت على مسافة من المدينة. فدعا النبي المسلمين للخروج في أثرها ، وذلك في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، 624 للميلاد. ولكن قائد القافلة، أبا سفيان بن حرب، كان قد أحس بهذا التحرك – على ما يبدو – فأسرع السير، وجعل القافلة تواصل السفر بالنهار والليل حتى ابتعد عن المدينة قبل أن يتمكن المسلمون من اللحاق به. وفي الوقت نفسه فقد بعث رسولاً إلى أهل مكة يستصرخهم للدفاع عن قافلتهم التي باتت في خطر. وهكذا هبت قريش حاملة السلاح لإنقاذ القافلة المذعورة. وسار القرشيون على الطريق المألوف الذي تسلكه القوافل، دون أن يعلموا أن أبا سفيان قد تجنب الطريق الرئيسية فور إحساسه بالمطاردة.
وبعد أن اطمأن إلى أن قافلته أفلتت من مطارديها بعث إلى النجدة التي هبت لإنقاذه فأخبرهم بنجاته مع القافلة، ونصحهم بالعودة إلى مكة. ولكن بعض الزعماء القرشيين ممن حملوا لواء الحرب ضد الإسلام منذ ظهوره رفضوا نصيحة أبي سفيان، وأقسم أبو جهل بن هشام بألا يرجعوا حتى يصلوا ماء بدر، أي إلى مسافة قريبة من المدينة نسبياً، وأن يقيموا هناك ثلاثة أيام فيذبحون الذبائح ويقيمون الموائد للناس ويعزف العازفون ويغني المغنون وتسمع العرب كلها بمجيئهم ومقامهم هناك. ونجح أبو جهل ومن وافقه في دفع المكيين إلى القيام بهذا العرض الصاخب للقوة والتحدي.

وكان المسلمون قد خرجوا من المدينة في طلب القافلة، ولم يكونوا يتوقعون أن يضطروا لخوض معركة كبيرة ؛ ولهذا فإن الرسول عندما دعاهم إلى الخروج لم يطلب منهم ذلك على سبيل الأمر، ولم يعلن النفير الشامل، بل ترك لهم الخيار بين المشاركة في العملية أو البقاء في المدينة؛ ولذلك فقد تخلف عنه رجال ما كانوا ليتخلفوا لو علموا أن الهدف من العملية الدخول في معركة كبيرة مع قوات قريش. فلما أفلتت القافلة

رأى أكثرهم العودة إلى المدينة. لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في الانسحاب على النحو الذي مال إليه بعض الصحابة خطرا كبيرا، إذ كان ذلك سيزيد من عنجهية قريش ورغبتها في القتال بهدف القضاء على الإسلام والمسلمين؛ ولذلك حرص على المضي في المواجهة لتحقيق النصر. وقد حث المسلمين على خوض المعركة ، واحتاج إلى شيء من الجهد حتى أقنعهم بالتصدي لعنجهية قريش. وقد وردت في القرآن الكريم إشارة واضحة إلى هذا الموقف، وذلك في قول الله تعالى :

(كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيْقَاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ. وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) ، [سورة الأنفال/آية 5- 7].

وهكذا تهيأ الموقف للصدام، إذ إن قلة عدد المسلمين الذين خرجوا للمعركة شجعت قادة قريش على مواصلة موقف التحدي. وكان جيش قريش يتكون من تسعمائة وخمسين مقاتلاً، منهم مائة فارس يمتطون ظهور الجياد، ويلبسون الدورع، كما كان معهم سبعمائة بعير. وكان عدد من الرجّالة يلبسون الدروع أيضاً. وقد اصطحب الجيش معه الكثير من الأموال، وعدداً من العازفات والمغنيات. والخلاصة أنه كان جيشاً ممتاز التسليح والتجهيز، يصحبه كثير من مظاهر الثروة والأبهة والترف بمقاييس تلك البيئة وذلك العصر. أما قوة المسلمين فتكونت من ثلاثمائة وخمسة مقاتلين، معهم سبعون من الإبل، بينما لم يكن معهم من الخيل سوى فرسين.

وطوال الرحلة لم يدخر النبي (ص) جهداً في جمع المعلومات عن تحركات جيش العدو من الأعراب الذين يمرون بهم. ولما وصل إلى واد يعرف باسم ذفران نزل به ليحصل الرجال على قدر من الراحة، وليستوثق من استعداد الأنصار خاصة لخوض المعركة معه بتصميم وإصرار. وكان الرسول يتحسب من أن الأنصار ربما اعتقدوا أن التزامهم بالحرب دفاعاً عن الإسلام وعن الرسول إنما ينحصر بحدود المدينة، وهو مقبل على معركة يخوضها بعيداً عن حدود المدينة. ولهذا كان حرص على استطلاع المواقف. وعندما نزل المسلمون في ذلك الوادي واستراحوا قليلاً ووصل الخبر عن تقدم قوة قريش، وجه رسول الله الحديث إلى أصحابه قائلاً: أشيروا عليّ أيها الناس. فقام أبو بكر الصديق فتحدث عن استعداد الجماعة لبذل أنفسهم في سبيل الله وأحسن القول، وقام عمر بن الخطاب والمقداد بن عمرو فقالا مثل قوله. ولكن النبي عاد يسأل : اشيروا عليّ أيها الناس! عند ذلك أدرك زعماء الأنصار أن الرسول يطلب رأيهم

بالذات. فقال له سعد بن معاذ : " والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ " قال : أجل. قال : فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر وخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسُرَّ رسول الله بقوله وأمر بالرحيل، فارتحلوا، واستمر النبي في ارسال الطلائع العيون تأتيه بالأخبار حتى اقترب من ماء بدر. وهناك أرسل جماعة من أصحابه فيهم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص يستطلعون أخبار العدو، فألفوا غلامين لقريش يستقيان من النبع فأخذوهما وسألوهما فاعترفا بأنهما من غلمان قريش، وأنهما جاءا لأخذ الماء. وسأل النبي الغلامين عن عدد الإبل التي كان يذبحها جيش قريش في اليوم لطعامهم فأفاداه بأنهم يذبحون تسعة أو عشرة إبل كل يوم، وبذلك عرف النبي العدد التقريبي لقوة عدوه، ثم سألهما عن بعض زعماء قريش المعروفين وما إذا كانوا ضمن الجيش، فعرف بوجودهم.

الإعداد لخوض المعركة:

وسبق النبي عدوه ونزل وجيشه الصغير قرب الماء، بينما نزلت قريش في موضع بعيد نسبياً، وساد جو التأهب، وأحس كل الرجال في الجانبين بأن الصدام واقع لا محالة. وسأل الحباب بن المنذر بن الجموح رسول الله عن سر اختياره للموضع الذي أنزل فيه جيش المسلمين وقال له :

" يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أَنْزَلَكَهُ الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ " فرد النبي بأن اختياره للموضع كان اجتهاداً منه لاعتقاده أنه موضع مناسب للقتال ولم يكن اختياره بأمر من الله لا يجوز نقضه. عندئذ اعترض الصحابي على الاختيار، واقترح على الرسول أن ينقل جيش المسلمين حتى يسيطروا على أغزر عيون الماء، وأن يقيموا حولها السواتر ويملأوها بالماء ثم يدفنوا العيون الأخرى وبذلك يحرمون عدوهم من الماء. وكان ذلك. ثم أقام المسلمون عريشاً ليكون فيه رسول الله خلفهم أثناء المعركة. وصفَّ النبي أصحابه للقتال، ثم رجع إلى العريش وأخذ يدعو الله بضراعة وعاطفة فياضة أن ينصر الحق وجنوده، ثم بشر رجاله بالنصر وشجعهم.

ونشبت المعركة في السابع عشر من رمضان بين جيش قريش المتفوق عدداً وعدة وسلاحاً، الممتلئ غروراً وعنجهية وغطرسة وبين جيش المسلمين الذي ينقصه العدد والعدة، لكنه يتفوق بصدق الإيمان، والاندفاع للتضحية في سبيل الله، وتقديم النفوس رخيصة طلباً لرضوان الله، كما يتفوق بالروح المعنوية العالية لشعوره بأنه في جانب الله خالق الكون وأقوى الأقوياء وأن قيادته بيد رسول الله الذي أكد لهم وعد الله بالنصر المبين. (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)، [سورة محمد/آية رقم 7] . وقد تفاءل المسلمون بنزول المطر لأن الموضع الذي نزلوا فيه كان أرضاً رملية تغوص فيها الأقدام، فلما نزل عليها المطر ثبتت وأصبحت أصلح لحركة الرجال.

وعندما توقف القتال كان جيش قريش قد تبدد بين قتيل وأسير هارب، وقد خسر جيش المسلمين أربعة عشر شهيداً منهم ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصارن بينما قتل من جيش قريش سبعون رجلاً، ووقع سبعون آخرون في الأسر، وفر الباقون.

نتائج معركة بدر:

لو قسنا معركة بدر بعدد القوات المشاركة فيها فحسب فإننا سنعتبرها معركة صغيرة دون شك، ولكن المعارك تقاس بنتائجها لا بعدد المشاركين فيها. ولقد كانت هذه المعركة واحدة من المعارك العظيمة في نتائجها، والتي ساهمت في تحويل مجرى التاريخ. فلو أن قريشاً تمكنت من القضاء على القوة الإسلامية الصغيرة التي واجهتها إذن لقضت بذلك على الإسلام في مهده، ولبطل كل ما أحدث الإسلام في تاريخ المنطقة الممتدة من حدود الصين إلى شواطئ المحيط الأطلسي، وما تردد من آثار وأصداء التحركات الإسلامية خارج هذه المنطقة، وعلى امتداد العالم. أما بالنسبة للمسلمين فقد كانت المعركة فاصلة بين عهدين، عهد الرضوخ للاضطهاد والصبر على الظلم والعجز عن رده إلى عهد القوة التي تجابه قوة العدو المقابلة. ولقد كان لهزيمة قريش وما فقدته من قتلى وأسرى دوي هائل في أرجاء شبه جزيرة العرب، وأصبح الإسلام الجديد عزيزاً ذا قوة تجبر الآخرين على احترامها والتعامل معها بحساب. وعلى ذلك زادت ثقة المسلمين بأنفسهم، ومضوا – بعد ذلك – في مواجهة عدوهم واثقين من النصر. ومع ذلك فإنهم لم يعزوا النصر إلى شجاعتهم وقواهم الذاتية بل عزوه إلى نصر الله وتثبيته إياهم. وهكذا المؤمن ينسب كل نجاحاته لعون الله وتوفيقه مع حرصه على الأداء الجيد وبذل أقصى الجهد في سبيل النجاح من قبل أن يشرع في العمل وأثناء تنفيذه وبعد تحقيقه. وما ذاك إلا لإيمان المسلم بأن الله هو الذي خلقه وهو الذي وهبه القوة

ومختلف القدرات، وهو الذي يملك الكون ويمده بالقوة والحياة والنظام والاستمرار، وهو الذي يقول لأي شيء: كن، فيكون. يقول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه :
(**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) [سورة آل عمران/آية رقم 123] .

أما من استشهد من المسلمين فقد انتقلوا إلى رحاب الله.. إلى الحياة الأفضل جزاء ما قدموا من تضحية جلى لنصرة دين الله، وللدفاع عن الحق، وعن الضعفاء والمظلومين، ومن أجل رد الظلم وقمع الظالمين. وكل ذلك مما يحبه الله، ويأمر به، ويثيب عليه، لأن جوهر الإسلام هو الإيمان القلبي، والحياة في إطار المبادئ و القيم الصالحة العادلة التي بينها الله للبشرية.

وقد غاظ هذا النصر إحدى الجماعات اليهودية القاطنة في المدينة، وهم بنو قينقاع، الذين لم يقووا على إخفاء حقدهم وأضغانهم، فأخذوا يكيدون للإسلام وأهله بالدس والوقيعة. وتحمل المسلمون ذلك ورجوا أن يعود المنحرفون إلى رشدهم، وحافظوا على الأسلوب الكريم الذي يأمرهم به القرآن الكريم في قوله تعالى : (وَلاَ تَجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [سورة العنكبوت/آية رقم 46].

لكن الأمر لم يعد محصوراً في حدود النقاش والجدال. ثم جاءت حادثة أشعلت شرارة الصدام. فبينا كانت امرأة مسلمة جالسة عند صائغ يهودي في سوق بني قينقاع غافلها الصائغ وعقد طرف ثوبها في أعلى ظهرها. فلما قامت انكشفت سوءتها، فأخذ اليهود يضحكون منها. وجاء رجل من المسلمين كان قريباً من المكان فغضب استنكاراً لما حدث، وانقض على الصائغ فقتله. فأحاط اليهود بالمسلم فقتلوه، ونشب القتال العفوي إذ كانت النفوس مهيأة . وأسرع اليهود بحشد مقاتليهم والتحصن في قلاعهم يقاتلون المسلمين منها. وقد أعلنوا انتهاء المعاهدة التي وضعها الرسول غداة وصوله إلى المدينة مهاجراً لتنظيم علاقات الجماعات الساكنة فيها. وعندما علم النبي بتأهب يهود بني قينقاع للقتال دعاهم إلى السلم فردوا على دعوته بقولهم : " لا يغرنك من لقيت، إنك قهرت قوماً أغماراً ". وكانوا يشيرون بهذا القول إلى الانتصار الذي أحرزه في بدر. غير أنهم ما لبثوا أن اضطروا للتسليم بعد اسبوعين من الحصار. وأدرك النبي أن بقاء هذه الجماعات المعادية في داخل المدينة، وفي قلب نواة الدولة الإسلامية الناشئة إنما يشكل خطراً قاتلاً قد ينفجر في أي وقت. ولذا صار اجلاؤهم ضرورة لا محيص عنها. وقد تم ذلك.

وجاء خبر الهزيمة في بدر إلى من بقي في مكة من قريش وكأنه صاعقة. وفي بادئ الأمر رفضوا تصديق الخبر، وظنوا أن بناقله مساً من الجنون. ولكن عندما تيقنوا مما حدث مات بعضهم من القهر، وأصيب آخرون بحالة هستيرية. ولما أفاقوا من هول الصدمة أعلنوا تصميمهم على الانتقام، وأخذوا يعدون له العدة.

غزوة أحـد :

وجاءت المعركة الرئيسية التالية بعد سنة من غزوة بدر. وطوال تلك السنة كانت قريش تعد العدة وتحشد قواها للثأر لهزيمتها. وقد جرت بعض المناوشات البسيطة بين المسلمين وقريش كما قام المسلمون ببعض التحركات العسكرية ضد القبائل البدوية. وما أن حل شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة حتى اقتربت جموع قريش من المدينة.

وكان من استعدادات قريش للمعركة أنهم جمعوا من بينهم خمسين ألف دينار ذهباً رصدوها للتجهيز للمعركة. وقد اتصل القرشيون بحلفائهم من العرب وطلبوا منهم العون، ثم إنهم قرروا أن يأخذوا معهم إلى الحرب نساءهم يقمن بتحريضهم وتحميسهم، وحتى يمنعهم وجود النساء من الفرار عنهن وتركهن للمسلمين. واجتهدت قريش في جمع المعلومات عن وضع المسلمين وقوتهم؛ ومن أجل ذلك سار أبو سفيان على رأس قوة صغيرة إلى مشارف المدينة وحاول الاتصال باليهود ليحرضهم ويحصل منهم على المعلموات التي يريدها، فرده بعضهم على أساس أن بينهم وبين المسلمين اتفاقاً يمنعهم من التعاون معه، بينما قبل التعاون يهود آخرون تغاضوا عن تعهدهم لرسول الله.

قـوة قـريـش :

واستطاعت مكة أن تحشد ثلاثة آلاف مقاتل، معظمهم من أبنائها مع من انضم إليهم من حلفائهم. وكان مع هذا الجيش مائتا فرس. وقد تجهز سبعمائة مقاتل بدروع يلبسونها أثناء القتال، وحمل الجيش وتجهيزاته على ثلاثة آلاف بعير.

الحالة في المدينة :

ووصلت أخبار هذا الزحف إلى المدينة، فأظهر اليهود والمنافقون شماتتهم، وأخذوا يطلقون الإشاعات التي قصدوا بها تخذيل المسلمين وإضعاف روحهم المعنوية. أما المتحمسون في عداوتهم لنبي الإسلام فقد تجمعوا، وكانوا خمسين رجلاً، وقادهم

زعيم لهم اسمه أبو عامر الراهب وتوجهوا إلى مكة للانضمام إلى قريش في زحفها. أما بقية المنافقين مع زعيمهم عبد الله بن أبيّ فقد كان شأن آخر.

وكلف رسول الله الحباب بن المنذر باستطلاع قوة العدو، فخرج متخفياً فمر من بينهم، وعاد بعد ذلك سراً كما ذهب، وأخبر الرسول بعددهم وعدد خيلهم والدارعين منهم، وعدد الإبل، وبما تحمله النســاء من دفوف وطبول، وبما يقمن به من التحريض. ووصلت طلائع جيش قريش إلى مشارف المدينة وأخذت تخرب المزارع وتقطع النخل وتطارد كل من وجدته.

وجمع الرسول صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه لبحث الأمر والوصول إلى رأي من خلال الشورى، عملاً بقول الله في وصف المؤمنين :
(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) [سورة الشورى/آية رقم 38].

وعرض رسول الله رأيه، فأشار بأن يظل المسلمون داخل المدينة، فإذا هاجمهم العدو صدوه من خلال الدور والأزقة. لكن المتحمسين من المسلمين، خاصة أولئك الذين لم يشـاركوا في معركة بدر، ألحوا مطالبين بأن يخرج المسلمون لمجابهة عدوهم في معركة مكشوفة خارج المدينة. ورأي الرسول أن الأكثرية تميل إلى هذا الرأي، فدخل بيته، ولبس عدة الحرب وخرج عليهم يأمرهم بالاستعداد للخروج. ويبدو أنهم راجعوا أنفسهم ففطنوا إلى أنهم ربما يكونون قد أحرجوا النبي فحملوه على الخروج، فقالوا له إنهم لا يصرون على الخروج ولا يحبون أن يستكرهوه على ذلك. فرد عليهم بأن التردد غير مقبول، وأنه إذا عزم المرء على القتال فلا بد أن يمضي إليه. وهكذا تقرر الخروج. فتجهز المهاجرون والأنصار وخطبهم النبي مؤكداً لهم أن النصر مع الصبر وحببهم في التضحية بالنفس والاستشهاد في سبيل الله. وسار جيش المسلمين يقوده رسول الله متجهاً إلى لقاء العدو قرب جبل أحد. وعندما أخذ كل من الجيشين مركزه للقتال، ووقف المسلمون في مواجهة عدوهم، بادر زعيم المنافقين بالانسحاب ومن كان معه من أتباعه وكذلك حلفاؤه من اليهود، فانسحبوا. وكان عدد من انسحب معه يزيد على ثلث القوة التي خرجت من المدينة، فلم يبق مع النبي إلا أقل من سبعمائة رجل.

ورتب الرسول صحابته بحيث كان جبل أحد خلف ظهورهم، وأمر خمسين من الرماة بأن يحموا مؤخرة الجيش من أن تتعرض لحركة ألتفاف من جانب خيالة العدو الذين كان يقودهم خالد بن الوليد، وشدد عليهم بأن لا يغادروا أماكنهم، وأن يردوا الخيالة بنبالهم إن حاولوا مهاجمة المسلمين من الخلف. واندلعت المعركة، وقاتل المسلمون

بحماسة وقوة، يحدوهم حادي الإيمان ويدفعهم حرص على نيل الشهادة في سبيل الله، وصبروا لتفوق قريش بعدد محاربيها وأفضلية تسليحهم. وبالرغم من استشهاد حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله الذي كان من أبرز أبطال مكة في حروبها، ثم هو أكثر المسلمين قوة في الحرب، فقد واصل المسلمون هجومهم حتى أزالوا عدوهم عن مواقعه، فانهارت صفوف قريشن وأخذ المسلمون في مطاردة فلولهم. وشاهد الرماة ما حدث، فتركوا أماكنهم على جبل أحد ونزل لكي يشاركوا في مطاردة الفارين وجمع الغنائم. وعلى الفور أدرك خالد قائد خيالة قريش أهمية اللحظة، فاندفع بمن معه من الفرسان في الألتفاف حول المسلمين. ويبدو أنه كان قد حاول ذلك أثناء المعركة ثم تراجع عندما رأى موقع الرماة على الجبل ويقظتهم. أما وقد نزل الرماة وتركوا الثغرة التي أنُيط بهم سدها فقد حانت الفرصة، ولم يضيعها خالد. فلم يستفق المسلمون إلا والخيالة المعادية تهاجمهم من الخلف، وتعمل فيهم سيوفها ورماحها، فانقلب النصر المبدئي إلى هزيمة، والتجأ النبي إلى موضع في الجبل، وأخذ ينادي أصحابه، فثاب إليه منهم ثلاثون رجلاً، فهاجمهم المكيون أشد الهجوم لكنهم قرروا الدفاع عن الرسول وأن يفدوا حياته بأرواحهم، وأخذ الصحابة يتجمعون. وأشاع العدو قتل النبي، فقال أصحابه، الذين صدقوا الخبر، بعضهم لبعض قوموا فلنقاتل حتى نموت كما مات. وحاول مقاتلو قريش الوصول إلى النبي فلم يمكنهم المسلمون من ذلك، حتى أن كثيراً منهم قد سقطوا بين يديه. وجعل أبو دجانة نفسه ترساً يتلقى السهام التي أطلقها العدو في اتجاه رسول الله فتنغرز كلها في ظهره حتى أصبح مثل ظهر القنفذ.

وأخيراً كلت قريش عن مواصلة القتال أمام هذا الصمود العنيد، واعتبرت أنها أخذت بثأرها لهزيمتها في معركة بدر وتوقف القتال. وصاح قائدهم أبو سفيان بأن ذلك اليوم رد على يوم بدر. فرد عليه عمر بن الخطاب بتكليف من النبي وقال له إن اليومين غير متساويين لأن المسلمين قاتلوا واستشهدوا في سبيل الله وابتغاء مرضاته، دفاعاً عن الحق، ورداً للظلم والطغيان، أما قتلى قريش فحاربوا الله ورسوله ودافعوا عن الباطل والظلم والفساد. ولذا فإن قتلانا في الجنة وقتلاكم يا أبا سفيان في النار. وطلب أبو سفيان من عمر أن يقترب منه ليسأله، فأمره النبي أن يقترب، فسأله أبو سفيان : أنشدك الله أقتلنا محمداً ؟ فقال عمر : اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن. فقال أبو سفيان : أنت أصدق عندي من ابن قميئة وأبر. ذلك أن ابن قميئة هو الذي أشاع الخبر الكاذب عن قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد انسحاب قريش تجمع من بقي من المسلمين حول رسول الله وقد أعياهم التعب، وأخذوا يتفقدون شهداءهم وجرحاهم، وصلوا على الشهداء ودفنوهم، ثم عادوا إلى المدينة. ومما يلفت النظر أن الرسول دعا صحابته في اليوم التالي أن يستعدوا

للخروج في أثر قريش. وأعلن أنه لن يسمح للذين تخلفوا عن معركة أحد بالخروج إلى هذه الحملة الجديدة. ولبى المسلمون النداء وخرج رسول الله على رأس القوة حتى وصلوا إلى موضع يعرف باسم حمراء الأسد. وعسكر المسلمون في ذلك الموضع ثلاثة أيام، وسمعت بهم قبائل العرب، ووصلت أخبارهم إلى قريش وهي ما زالت في طريقها إلى مكة، لم تبتعد كثيراً عن المدينة. وقد ظفر المسلمون بأفراد من مقاتلي قريش متخلفين عن جماعتهم فأخذوهم.

ولا مراء في أن هذه الحملة تدل على بعد النظر الرسول القائد، فقد رفعت الروح المعنوية لدى المسلمين، وأشعرت أعداءهم من قريش ومن قبائل العرب أن قوتهم لم تتحطم وأنهم ما زالوا قادرين على القتال ومواصلة التحدي.

وكانت معركة أحد وما أصاب المسلمين فيها درساً بليغاً أدركه المسلمون وظل خطباؤهم ووعاظهم يرددونه جيلاً بعد جيل ؛ إنه لا يكفي أن نعلن الإيمان وننتسب إلى الإسلام لكي نضمن النجاح والنصر، بل لا بد مع الإيمان مقرونا بالعمل الجاد، ولا بد أن نعمل على توفير كل ما نملك من الوسائل والأسباب المادية والعملية لتحقيق النصر، ثم بعد ذلك نطلب من الله العون والنصر ونعتمد عليه ونثق بوعده ونطمئن إليه. ولقد كان في ترك الرماة لموضعهم أثناء المعركة عصيان لأمر الرسول القائد، وطمع في الغنائم، وخلل في الأداء، فكانت الهزيمة. ثم إن مواجهة خسارة كخسارة جيش المسلمين يوم أحد تنطوي على تدريب وإعداد للنفوس لتحمل النكبات والكوارث بثبات. وقد استطاع المسلمون مداواة جراحهم، وتمكنوا من الانتصار على الشعور بالهزيمة، بل ودعاهم قائدهم رسول الله – في اليوم التالي للهزيمة مباشرة – إلى حمل السلاح والخروج في أثر عدوهم، وقد نزلت آيات من القرآن الكريم بعد معركة أحد تذكر المسلمين بتقصيرهم وتطيب نفوسهم بما يبعث فيها الثقة والقوة :

(ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، مِنكُم مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ. هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ. وَلاَ تَهِنُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ؛ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) [سورة آل عمران/ الآيات 152 و 137- 140] .

ثم عاتبهم لتفرقهم وارتباكهم عندما سمعوا إشاعة قتل الرسول :

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَّاتَ أَو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) [سورة آل عمران/آية 144].(48)

مزيد من النكبات:

وعلى الرغم مما تركه خروج المسلمين إلى حمراء الأسد من أثر خفف من الأذى المعنوي الذي لحق بهم من جراء هزيمتهم في أحد فإن بعض القبائل العربية ظنت أن الفرصة مواتية، فحاول بعض الزعماء القبليين تحريض المجموعات القبلية وتحشيدها لمهاجمة المدينة، وقد استطاع الرسول أن يجهض هذه المحاولات ويقضي عليها قبل أن تكتمل. ولجأ آخرون إلى الغدر والخديعة؛ فقد جاء إلى رسول الله وفد من قبيلتي عضل والقارة، وزعموا للنبي أن الإسلام بدأ ينتشر بينهم، وطلبوا منه أن يبعث معهم نفراً من المسلمين يعلمونهم القرآن. واستجاب الرسول الكريم وبعث معهم ستة من أصحابه. فساروا بهم حتى وصلوا إلى بئر الرجيع فنادوا على قومهم لكي يشدوا وثاق المسلمين. فدافع ثلاثة من المسلمين عن أنفسهم فقتلوا، واستسلم الثلاثة الآخرون، فأخذوهم ليبيعوهم إلى أهل مكة. وفي الطريق حاول أحدهم التخلص فقتل، أما الاثنان الباقيان فقد اشتراهما أهل مكة ليقتلوهما.

وقد تزامنت هذه الحادثة مع حادثة مماثلة : فقد جاء إلى النبي أحد الزعماء القبليين من نجد، في وسط شبه الجزيرة العربية، وهو عامر بن مالك، وطلب منه أن يرسل نفراً من أصحابه ليعلموا رجال القبائل الإسلام. وهكذا اختار الرسول أربعين من أصحابه القادرين على أداء المهمة ووجههم إلى نجد مع عامر بن مالك المذكور؛ وبينما هم في طريقهم إلى نجد، عندما وصلوا إلى بئر معونة، هاجمهم الأعراب فقتلوهم عن آخرهم، ولم ينج منهم سوى كعب بن زايد، الذي برئ بعد مدة مما أصابه من جراح، ولعلهم ظنوه مات عندما سقط على الأرض فتركوه.

غزوة الأحزاب:

وقعت هذه الغزوة في السنة الخامسة للهجرة، وقد سميت بغزوة الأحزاب لأن قوى متعددة تحزبت وتضافرت وجاءت متحالفة لحرب المسلمين وتدمير قوتهم والقضاء عليهم. وقد قام اليهود بالدور التحريضي، كما عملوا على تجميع هذه القوى للقيام بحملة مشتركة ؛ فقد ذهبت وفود منهم إلى قريش في مكة، وإلى قبيلة غطفان وقبيلة بني مرة ؛ وبعض فروع هذه القبائل وحرضوهم أشد التحريض، ووعدوهم أن يشاركوهم ويعاونوهم في حرب المسلمين.

وعندما تدفقت هذه القوات على المدينة في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة (آذار سنة 622م) لاحظ المسلمون التفوق العددي الكبير لعدوهم، فاختاروا أسلوب الدفاع على أطراف المدينة، وعدم مواجهة العدو في ساحة مكشوفة تسهل عليه الاستفادة من تفوقه. وقد اقتراح أحد أصحاب النبي، وهو سلمان الفارسي، أن يحفر المسلمون خندقاً حول المدينة ليعطلوا به قدرة العدو على الاقتحام السهل بأعداد كبيرة. وقد نفذ الاقتراح على الفور، وشارك رسول الله بنفسه في الحفر، وكان يشجع المسلمين ويصبرهم، ويبشرهم بنصر الله الشامل لهم، وأنهم سيرثون ملك كسرى وقيصر. وقد سخر المنافقون من أهل المدينة من تأكيدات رسول الله بأن الله وعده النصر، وأشاروا إلى حالة الحصار التي عانى منها المسلمون دليلاً على صحة موقفهم ؛ وقد أشار القرآن إلى موقف المنافقين هذا في قول الله تعالى :

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً) [سورة الأحزاب/آية رقم 12] .

وقد صدق المسلمون وعد الله ووعد رسول الله، وآمنوا به، وعملوا بمقتضى التصديق والإيمان. ووصلت جموع الأعداء إلى المدينة وقد زادت على عشرة آلاف مقاتل، ثم تمكن الزعيم اليهودي حيي بن أخطب من إقناع كعب بن أسد زعيم يهود بني قريظة بالانضمام إلى الأحزاب، وأظهر المنافقون من أهل المدينة، ممن كانوا تظاهروا بالإسلام مجاراة لقومهم، أظهروا شماتتهم بالمسلمين. وهكذا شعر المسلمون بقساوة المحنة وخطورة الموقف، ولكنهم ظلوا على ثباتهم وثقتهم بالله. وقد لجأ النبي صلوات الله عليه إلى عدد من الوسائل للتخلص من هذه المحنة، ففاوض بعض زعماء القبائل لترضيتهم حتى ينسحبوا، كما كلف نعيم بن مسعود بالاتصال بالأعداء وبذر الشكوك في نفوسهم تجاه بعضهم بعضاً، وكان نعيم بن مسعود قد اعتنق الإسلام قبل ذلك بفترة

قصيرة ولم يعلم بإسلامه إلا القليل، ولذلك اتصل بالمشركين باعتباره غير مسلم. وقد نجحت خطته.

وكان لحفر الخندق حول المدينة أثر كبير في إضعاف قدرة الأعداء على الاقتحام، لا سيما وأنهم لم تكن لهم خبرة بهذا النوع من وسائل الدفاع. وكانت الفكرة جديدة بالنسبة للمعارف العسكرية عند العرب آنذاك. ومع ذلك فقد حاول فرسان قريش اقتحام الخندق في جزء ضعيف منه، ونجح عدد منهم في عبوره، لكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد، فقتلوا ثلاثة منهم وهرب الآخرون. وجرى تراشق بالسهام عبر الخندق دون أن يغير ذلك في الموقف العسكري. ولقد استمر الحصار والتناوش ما يقرب من شهر أصاب العدو فيه اليأس والملل، كما أثرت اتصالات نعيم بن مسعود فأشاعت الشكوك والتخاذل بين قادة التجمعات المعادية. ثم جاءت ليلة هبت فيها ريح عاصفة اقتلعت خيام الأعداء وقلبت قدورهم وهي على النار، ففزعوا وتشاءموا، وما لبثوا أن انسحبوا فاشلين، دون تحقيق غرضهم. وكان لاندحارهم أثر معنوي كبير؛ فمثل هذا العدد من المقاتلين كان كبيراً لدرجة غير عادية بمقاييس جزيرة العرب في تلك الأيام. وكان انسحابهم على هذا النحو يحمل معنى الهزيمة.

وقد أدرك النبي أن اندحار الأحزاب يشكل نقطة تحول بارزة في تاريخ الدعوة الإسلامية وفي مسيرة الجهاد لإرساء العقيدة وإقامة المجتمع والدولة الإسلامية ، ولذلك أعلن لأصحابه أنهم ينتقلون بذلك من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم وقال :

" الآن نغزوهم ولا يغزونا "

وقد كان الأمر كذلك وصدقته ، الأحداث اللاحقة كما سنرى.

صلح الحديبية :

وعلى أثر انسحاب القوات المتحالفة نظم النبي بعض التحركات العسكرية للمحافظة على هيبة المدينة في نفوس القبائل العربية. وفي شهر شعبان من العام السادس بعد هجرته قرر زيارة بيت الله الحرام في مكة لأداء شعيرة العمرة. ولهذا خرج على رأس الف وخمسمائة رجل من أصحابه يسوقون معهم الأضاحي التي كانوا سينحرونها عند البيت العتيق تقرباً إلى الله، وعملاً بسنة نبيه إبراهيم عليه السلام. وقد حرص النبي أن يعلن قريشاً ويعرفها أنه لا يزمع حرباً ولم يأتهم لقتال، وإنما جاء لزيارة بيت الله الحرام. ورغم ذلك فقد صممت قريش على منع المسلمين من أداء الزيارة، واستعدت

للحرب، والتف المسلمون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعونه على الاستشهاد في سبيل الله، ويعلنون تصميمهم على زيارة البيت الحرام. وترددت الرسل بين الفريقين حتى توصلا إلى صيغة اتفاق حال دون اندلاع القتال، وقد نص الاتفاق على ما يلي :

1- اتفق الطرفان على هدنة مدتها عشر سنوات.
2- يتخلى المسلمون عن زيارة البيت الحرام في ذلك العام.
3- يعود المسلمون للزيارة في العام التالي، وتستمر زيارتهم ثلاثة أيام، على أن لا يحملوا من السلاح غير سيوفهم في أغمادها.
4- من خرج من مكة وذهب لينضم إلى المسلمين بغير إذن وليه في مكة يلتزم المسلمون برده إلى سادته.
5- من خرج من المدينة وذهب إلى مكة للانضمام لقريش لا تلتزم قريش برده إلى المدينة.
6- أي قبيلة أو عشيرة من القبائل والعشائر العربية رغبت من أن تنضم إلى أحد الفريقين المتعاقدين كان لها ذلك، ويلتزم لها الفريقان بالشروط المنصوص عليها.

وقد انضمت قبيلة خزاعة إلى المسلمين بينما انضمت قبيلة بكر إلى أهل مكة، وصارت القبيلتان مشمولتين بالاتفاق.

وعلى الرغم من تعظيم المسلمين لرسول الله واحترامهم الكبير له إلا أنه وجد صعوبة كبيرة في إقناعهم بقبول اتفاق رأوا فيه غبناً لهم كما لو كانوا طرفاً ضعيفاً. ولقد حاول عدد من أكابر الصحابة إقناع الرسول بالتشدد في موقفه، واعتبروا الاتفاق ماساً بكرامة المسلمين. وجاء أول اعتراض عندما قبل الرسول أن يمحو من النص لقبه؛ فقد أملى النبي النص على عليّ بن أبي طالب هكذا :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين وأنه من أتى منهم رسول الله بغير إذن وليه رده إليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله لم يردوه عليه ؛ ومن

أحب أن يدخل في عهد رسول الله دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل.

وقد اعترض ممثل قريش – سهيل بن عمرو – على لقب رسول الله، فأصر أن يكتب " محمد بن عبد الله " بدلاً من " محمد رسول الله " ووافق النبي على ذلك. ثم وافق على العودة دون أداء المناسك في ذلك العام، كما وافق على رد المسلمين الذين يخرجون من مكة دون إذن إلى ذويهم من غير أن يصر على أن تلتزم قريش بموقف مماثل.

حقاً إن النظرة العاطفية تعطي انطباعاً بأن المسلمين قدموا تنازلات دون مقابل، ولكن النظرة الموضوعية تكشف أن الأمر غير ذلك. فالاتفاق جرى بين طرفين مختلفين عقيدياً متحاربين عمليّاً. ولو اعترفت قريش بأن محمداً رسول الله لما ظل هناك خلاف ولما كان هناك مبرر لعقد الهدنة. ولذا لم يصر النبي على إلزام خصمه على قبول استعمال لقب "رسول الله" ، لكنه كان راغباً في السلم حقاً. أما إرجاع المسلمين الفارين من مكة فإنه يمثل تنازلاً معنوياً دون شك ؛ ولكن المسلمين الأوائل صبروا على كثير من الأذى، ويمكن أن يتحمل المؤمنون الجدد من أهل مكة شيئاً من الاضطهاد في سبيل تحقيق هدف أكبر للرسالة وللأمة على السواء. أما عدم مطالبة النبي قريشاً بأن ترد من هرب من المدينة والتجأ إليها فإنه يدل على تساهل لا ينطوي على أية تضحية ؛ فالمسلمون ليسوا بحاجة إلى أن يحتفظوا بين ظهرانيهم بمن يضمر لهم العداوة، لا سيما وأن الدين الإسلامي لا يقبل إكراه الناس على اعتناقه ؛ ولم يكن من سياسة الرسول أن ينتقم لمجرد الانتقام.

والخلاصة أن التنازلات كلها كانت شكلية لا تمس المبادئ. وقد استفادت الدعوة الإسلامية أجل الفائدة من فترة الهدنة؛ فقد تفرغ النبي لنشر الإسلام في طول شبه الجزيرة العربية وعرضها. أما من جانب قريش فقد أخذ العقلاء من رجالها يراجعون مواقفهم. وقد أسلم في الفترة التي تلت هدنة الحديبية عدد من أنبه الرجال في معسكر قريش، وعلى رأسهم خالد بن الوليد الذي يعتبر واحداً من ألمع القادة العسكريين في تاريخ العرب . وبعد أن تم الاتفاق مشافهة بين النبي وممثل قريش، وبينما كان الكاتب يدون نص الشروط التي تم التوصل إليها ، تعرضت الاتفاقية لأول اختبار عندما جاء شاب مسلم، تمكن من الخروج من مكة، ليلتحق بمعسكر المسلمين، وهو مقيد بالحديد. وكان هذا الشاب هو أبو جندل بن سهيل بن عمرو، أي ابن ممثل قريش نفسه الذي كان يفاوض النبي بشأن الاتفاق. فلما رأى سهيل ابنه قال لرسول الله : يا محمد، قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. فأجابه النبي : صدقت.

فلما شعر الفتى بأنه سيرد إلى قريش صاح بأعلى صوته :

" يا معشر المسلمين، أأردّ إلى المشركين ليفتنوني عن ديني ؟ " فحزن المسلمون وتألموا، وتمنوا لو أن ذلك لم يحدث؛ ولكن رسول الله واجه الموقف بحزم، وخاطب المسلم المضطهد قائلاً:

" احتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد أعطينا القوم عهودنا على ذلك، فلا نغدر بهم [11] ".

وفي العام التالي عاد النبي إلى مكة – حسب الاتفاق – وصحبه كل من كان معه في عامه السابق، وخرجت قريش من البلدة، وأدى النبي والمسلمون شعائر العمرة ثم عادوا إلى المدينة دون أن يحدث ما يكدر السلم.

وفي ظل الهدنة التي رتبت مع قريش تفرغ رسول الله للعمل على توطيد دعائم الإسلام، سواء بالتربية والتوجيه، أو بنشر الإسلام في مناطق جديدة عن طريق الدعوة. كذلك عمل على تثبيت وتقوية مركز الدولة الإسلامية الناشئة، وتأكيد سلطتها وفرض احترامها. وهكذا أخذ يبعث برسائله إلى رؤساء القبائل، وحكام المناطق المجاورة يدعوهم إلى الإسلام، كما أنه وجه عدداً من السرايا لردع القبائل البدوية التي تثير الاضطراب، وتتطلع إلى حياه الغزو والسلب والنهب.

غزوة مؤتة :

وكان من بين الرسائل التي بعث بها رسول الله خطاباً وجهه إلى حاكم بُصْرى، الواقعة إلى الجنوب من دمشق. وقد حَمَّل الرسالة مبعوث اسمه الحارث بن عمير الأزدي ؛ وسار الحارث من المدينة متجهاً إلى بلاد الشام، فمر بمنطقة مؤتة[(51)]. وهناك اعترضه رئيس قبليّ يدعى شرحبيل الغساني، وسأله عن وجهته والغرض من سفره وما إذا كان مبعوثاً للنبي محمد. فأجابه الحارث وأخبره بمهمته. ويبدو أن شرحبيل كان يحمل عداء شديداً للإسلام ولرسول الله، ولذلك قتل المبعوث، على الرغم من أن العرف السائد في تلك الأيام كان يمنع قتل السفراء الذين ينقلون الرسائل.

ولما وصل الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب لهذه الجريمة ورأى أن الأمر يستدعي إرسال حملة تأديبية لمنع القبائل من التجرؤ على أطراف الدولة الإسلامية. ومن أجل ذلك شكل قوة من ثلاثة آلاف مقاتل ووجهها إلى مؤتة لردع شرحبيل الغساني وأمثاله من زعماء القبائل التي تستوطن المنطقة الممتدة بين الحجاز والشام ، وتربطها وتربط شيوخها علائق ولاء وتبعية للبيزنطيين، الروم. وكانت

---

[11] - إبن هشـام ، مجلد 2 ، 308 – 321 .

الدولة البيزنطية تستعمر بلاد الشام كما ذكرنا قبلاً، كما كانت تقيم علاقات مع القبائل البدوية وتحاول وضعها تحت سيطرتها. ومن المؤكد أن قيام الدولة الإسلامية الناشئة في الحجاز وتطور قوتها لم يغب عن علم الدولة البيزنطية، ولم يكن مبعث سرور وارتياح لقادتها .

وعندما تحركت القوة الإسلامية من المدينة ووصلت إلى بلدة معان ، وهي مدينة معان الحالية، جنوب الأردن، علم قادتها أن قوات معادية ضخمة تنتظرهم في مؤتة، وتضم جماعات من أعراب وقبائل البادية بالإضافة إلى فرقة من الجيش البيزنطي. وعند ذلك توقف الجيش الإسلامي عن التقدم وأخذ قادته يتشاورون في ما يفعلون. وعندما عرفوا أن القوة المعادية يبلغ عددها أضعاف عددهم اقترح أحد القادة أن يكتبوا إلى رسول الله يطلبون منه إمداداهم بقوات إضافية ؛ ولكن قائداً آخر متحمساً للقتال حضهم على مهاجمة العدو لكي يحققوا النصر أو الاستشهاد، فهم جند الحق، والحق لا ينبغي أن يتراجع أمام الباطل. ونشبت المعركة غير المتكافئة، يقود المسلمين زيد بن حارثة، حاملاً راية رسول الله، فقاتل زيد حتى أخذته رماح العدو وسقط شهيداً، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وانطلق يهاجم العدو. ولما اشتد القتال ترك فرسه وهاجم العدو راجلاً حتى استشهد، بعد أن أصيب بأكثر من ثمانين ضربة. ثم تولى القيادة من بعده عبد الله بن رواحة فقاتل هو الآخر حتى استشهد. وكان هؤلاء القادة هم الذين عينهم النبي للقيادة مرتبين واحداً بعد الآخر قبيل خروج الجيش من المدينة. وهنا اختار المسلمون خالد بن الوليد للقيادة ؛ وكان خالد حديث الإسلام، إذ أسلم بعد هدنة الحديبية. فناور خالد حتى تمكن من الخروج بقواته الصغيرة من الطوق الذي فرضته قوات العدو وتمكن من الانسحاب بمن بقي على قيد الحياة، وكان الانسحاب في نظام، ومع الاحتفاظ بتماسك أفراد القوة. وعندما وصلت القوة إلى المدينة قذفهم بعض المسلمين بالتراب، ووبخوهم لانسحابهم، وسموهم بالفرّار. ولكن النبي كف أولئك الثائرين، ودافع عن المنسحبين من معركة مؤتة.

وترجع أهمية هذه الحملة إلى أنها كانت مقدمة لما شهدته السنوات التالية من مواجهة بين جيوش المسلمين والجيوش البيزنطية، إذ أنها صنعت الموقف الذي وضع الطرفين في جو التحدي والرغبة في إثبات القوة والسيطرة.

فـتـح مكــة :

كان المفروض أن تمتد الهدنة بين المسلمين وقريش عشر سنوات حسب الاتفاق الذي سجلنا نصوصه ، ولكن الحرب نشبت بين حلفاء الطرفين، قبيلة خزاعة وقبيلة بكر. لقد كان بين القبيلتين ثأر قديم يرجع إلى سنوات طويلة قبل ظهور الإسلام ، فلما عقد اتفاق الحديبية انضمت خزاعة إلى جانب المسلمين بينما انضمت بكر إلى جانب قريش، كما ذكرنا. وحانت لقبيلة بكر فرصة للانتقام من خزاعة فلم تشأ أن تضيعها، معتمدة على تحالفها مع قريش ، رغم التزام الطرفين بشروط الهدنة. وقد حصلت بكر على معونة عسكرية من قريش في غارتها الغادرة، إذ زودتهم قريش بالسلاح وعدد من الدواب، كما شاركهم في القتال عدد من شباب قريش المتحمسين، منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهل بن عمرو. وشنت بكر هجومها ليلاً بينما كانت خزاعة مطمئنة في ظل الهدنة. وقد التجأت خزاعة إلى الاحتماء بالحرم. وكانت العرب تحتفظ للكعبة بحرمة كبيرة، حتى قبل مجيء الإسلام ، وكان من يحتمي بالحرم يجد الأمن والحماية ، ولكن بكر واصلت هجومها غير آبهة لا بتقاليد الجاهلية ولا باتفاق الحديبية، وإنما كانت تدفعها رغبة جامحة في الانتقام لثأرها القديم الذي مضت عليه عشرات السنين.

وأصيبت خزاعة بكارثة. وبعد توقف القتال فزع أحد رؤسائهم إلى المدينة يشكو لرسول الله ويطلب عونه على أساس التحالف الذي قام بين الطرفين منذ الحديبية. وهكذا حان الوقت الذي يوضع فيه حد لغطرسة زعماء الوثنية لكي يخرج الناس من ظلمات الجهالة، ومن مفاسد التقاليد الطافحة بالظلم والاستغلال والفساد وامتهان كرامة الإنسان، إلى رحاب الإسلام حيث الأخوة والعدل وعدم التمايز بين الناس إلا بالعمل الصالح، وحيث التعاون والتكافل والمحبة في إطار الإيمان بالله الخالق العظيم، راعي الكون والإنسان، وكل ما في الوجود من كائنات. وأسرع أبو سفيان – زعيم مكة – وقابل النبي صلى الله عليه وسلم، وحاول أن يعتذر عما حدث ويجدد الهدنة لكن الرسول رده خائباً.

مكة تنضوي تحت راية الإسلام :

وهكذا أخذ النبي يستعد لفتح مكة، وأمر المسلمين بالاستعداد لليوم المنتظر وحرص رسول الله على إخفاء استعدادته عن قريش وحلفائها حتى يأخذهم على حين غرة. وفي شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة سار النبي على رأس قوة ضخمة – بمقاييس شبه الجزيرة العربية في تلك الأيام - قاصداً مكة. وقد قدر عدد المقاتلين المشاركين في الحملة بعشرة آلاف، ولم تكن هذه قوة المدينة وحدها بل كانت تضم ما

انضاف إليها ممن أسلموا بعد الحديبية، ومن تظاهروا بالإسلام حرصاً على التحالف مع القوة الصاعدة.

وأدركت قريش ألا قبل لها بمقاومة المسلمين، وأصابها الفزع من احتمال أن تتعرض للانتقام جزاء ما أنزلت بالمسلمين من أذى واضطهاد وظلم. ولذا أخذ بعض زعمائها يتلمسون السبل لسلامتها. ولما أشرف رسول الله على مكة وهو يركب راحلته ظل حانياً ظهره مطأطئاً رأسه تواضعاً لله الذي مَنَّ عليه بالنصر، وأعاده إلى موطنه وقد علت راية الإسلام وارتفع مناره. ولم يكن في ذلك القلب الكبير الفياض بالرحمة، مكان للانتقام وحب التنكيل بخصوم الأمس، فعفا عن قريش وأمر مناديه أن يعلن : أن من دخل بيته وأغلق عليه بابه فهو آمن، كما أراد أن يستميل زعيم مكة، أبا سفيان بن حرب، فقال : ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

ولم يحدث قتال ذو بال عند دخول المسلمين مكة، وكل ما جرى من قتال كان اشتباكاً صغيراً أنشبه بضعة رجال من شباب مكة المتحمس سرعان ما انهزموا وفروا مختفين عن الأنظار.

وطاف الرسول حول الكعبة سبعاً، وصلى فيها، ثم إنه أزال الأصنام التي على ظهرها؛ وكان عددها ثلاثة وستين صنماً، وتلا أثناء ذلك قول الله سبحانه وتعالى :

(**وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**) ،
[سورة الإسراء/آية 81].

مـخـاوف الأنـصـار :

ولما تم فتح مكة واستسلم زعماؤها لرسول الله وأعلنوا الندم على ما سبق منهم أخذت تساور الأنصار المخاوف من أن يفقدوا صحبة رسول الله. فقد فكر بعضهم في أن النبي – وقد عاد إلى موطنه ظافراً – ربما يختار الاستقرار في مكة بدل المدينة. وأحس الرسول بهذه الهواجس والهمسات، فأفهم الأنصار أنه واحد منهم، وأنه سيحيا بينهم ويموت بينهم كذلك.

معركة حنين :

ولما تم لرسول الله فتح مكة شكل بعض السرايا العسكرية كي تمر بالمناطق المحيطة بمكة لإشعار القبائل البادية بقوة السلطة الجديدة حتى لا تقوم بتعكير صفو الأمن والسلام. ولم يقابل المسلمون في هذا العمل صعوبة تذكر.

وكانت الطائف إحدى المدن المهمة في الحجاز، وفي المرتبة الثالثة بعد مكة والمدينة. وعلى أثر فتح مكة كان رد الفعل لدى سكان الطائف وما حولها عنيفاً ؛ ويبدو أنهم توقعوا أن دورهم قد حان ، وأن الدولة الإسلامية الناشئة لن تتركهم في جاهليتهم كما كانوا من قبل، طوال مئات السنين. لذا، فقد تجمعوا حول إحدى الشخصيات القيادية من بينهم، ويدعى مالك بن عوف النصري. وتذكر المصادر أن الذي شاركوا في هذا التجمع قبيلتا هوازن وثقيف، ثم قبائل نصر وجشم كلها، وسعد بن بكر، وبعض عناصر من بني هلال. وقد طلب قائد هذا التحالف من أتباعه أن يصطحبوا معهم نساءهم وأطفالهم لكي يكون وجود عائلة الرجل مانعاً له من الهرب أثناء المعركة. ووصل الخبر إلى النبي قبل أن يبرح مكة، فأرسل بعض رجاله لجمع المعلومات عن هذا العدو الجديد، ثم خرج للقاء الأعداء على رأس اثني عشر ألف مقاتل جاء عشرة آلاف منهم معه من المدينة وانضاف إليهم ألفان من مكة.

وكمن قائد هوازن وحلفائها وأتباعه في جنبات وادي حنين ينتظرون جيش المسلمين. وقد اختار المكان بعناية، إذ كانت أرض الوادي منحدرة تجعل هَمَّ السائر فيها مركزاً على حفظ توازنه. ووصل المسلمون في عتمة الصبح، وبينما هم منحدرون في سيرهم انقض عليهم الأعداء من يمين وشمال في مفاجأة صاعقة. وخلع الفزع قلوب كثيرين ففروا لا يلوون على شيء للإفلات من الموت الذي أحاط بهم من كل جانب. وعندما يجتاح الخوف صفوف قوة مقاتلة يصبح الصمود صعباً حتى على الشجعان. وكان الجيش الذي خرج مع رسول الله من المدينة يضم أعداداً كبيرة من حديثي العهد بالإسلام، وممن أسلموا لا عن قناعة بل ليلتحقوا بركب القوة الصاعدة التي ظنوا أن المستقبل لها. ثم انضاف إلى هؤلاء أمثال لهم من أهل مكة، ممن أسلم بعد فتحها، أي قبل معركة حنين بأسابيع. وهكذا شكلت هذه العناصر الضعيفة الولاء نسبة كبيرة من جيش المسلمين ، ولذا كان طبيعياً أن لا يثبتوا لمفاجأة العدو.

وهنا جاء دور الرسول القائد، فقد انحاز إلى جانب من الوادي ومعه بعض أصحابه، ونادى على الفارين، وأمر رجلاً قوي الصوت بالمناداة كذلك. وكان النداء على جنود الدعوة الأوائل من المهاجرين والأنصار، فصار كل من سمع النداء منهم يرد بقوله : لبيك! لبيك! ثم يعود مسرعاً حتى يصل إلى رسول الله. وهكذا توقف الفرار وزال الرعب الذي أحدثته المفاجأة واختلال الصفوف، وعاد المؤمنون الأولون إلى الثبات

والفداء وبيع نفوسهم من أجل إعلاء كلمة الله ومن أجل نصرة الحق الذي جاء به الإسلام. وهكذا تمكنوا من صد الهجمات، ولم يلبثوا أن تحولوا للهجوم وطاردوا الأعداء في كل اتجاه فولوا منهزمين.
وقد نبه الله سبحانه وتعالى المسلمين إلى ما أصاب كثيرين منهم من غرور قبيل المعركة وذلك في قوله :

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ؛ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُّدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِيْنَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) ، [سورة التوبة/آية رقم 25].

وبعد أن حولت القلة المؤمنة الهزيمة إلى نصر أمر رسول الله قواته بالزحف على بلدة الطائف. وكان يرغب في أن تستلم المدينة من غير معركة حقيقية؛ لكن أهل الطائف تحصنوا في قلاعهم وأخذوا يرشقون الجيش الإسلامي بالسهام. وكان الرسول واثقاً من أن الطائف ستقبل الإسلام في النهاية، ولذا تجنب اجتياحها بالقوة لما سنطوي عليه الاقتحام من إراقة دماء وسقوط ضحايا وتعميق أحقاد. ولذا أمر جيش المسلمين بالرحيل نحو مكة.

ورتب النبي صلى الله عليه وسلم أمور مكة، وترك فيها معاذ بن جبل ليعلم أهلها الإسلام، ثم ولى عليها أميراً هو عتاب بن أسيد، وبعدئذ عاد ومعه أصحابه وجنده من المهاجرين والأنصار إلى المدينة في الشهر الأخير من السنة الثامنة للهجرة.

وهكذا ولت مرحلة الضعف التي كان الرسول فيها مطروداً من بلده، مطارداً من أهله وعشيرته، وأصبحت له اليد العليا في أمور الجزيرة العربية كلها. ووفاء للمدينة وأهلها الأنصار الذين آووه ونصروه في فترة الشدة اختار أن يقضي بقية سني حياته في المدينة بين الأنصار، وتابعة في اختياره أصحابه المهاجرون. وهكذا أصبحت المدينة أول عاصمة للدولة الإسلامية الناشئة. وبهذا انتهت مرحلة في جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وفي بناء كيان الإسلام، لتبدأ مرحلة جديدة.

الفصل السادس
تأمين الدولة الإسلامية

وبعد أن انضمت مكة إلى الدولة الإسلامية الناشئة ساد الشعور بأن الجزيرة العربية كلها ألقت قيادها للإسلام، وأصبحت مسألة خضوع الجيوب الصغيرة – مثل الطائف – مسألة وقت لا غير. وهكذا توجهت عناية الرسول صلوات الله عليه إلى أهداف أربعة :

1- تأكيد السلطة الإسلامية في كل أنحاء الجزيرة.
2- نشر الإسلام في الداخل والخارج دون إكراه.
3- تحقيق الأمن والسلامة في الداخل للمجتمع والدولة بتطبيق الشريعة الإسلامية.
4- تحقيق الأمن والسلامة من الأخطار الخارجية.

تأكيد سلطة الدولة الناشئة:

وعلى أثر تسامع العرب بفتح المسلمين لمكة بدأت القبائل القاطنة في النواحي النائية من شبه الجزيرة تسعى لكسب مودة هذه القوة الجديدة؛ ولذا كان العام التاسع للهجرة عام الوفود، وهكذا سماه مؤرخو السيرة القدماء. ولقد كان واضحاً أن معظم الأعراب لم يأتوا إلى رسول الله ليعلنوا إسلامهم عن اقتناع وإيمان حقيقيين، بل بشعور الذي لا خيار له. جاءوا ليعلنوا ولاءهم من أجل كسب ود القوة الصاعدة. وهذا ما سجله القرآن الكريم بقول الله سبحانه وتعالى :

(قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ولَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيَمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [سورة الحجرات/آية رقم 17].

وعندما جاء وفد بني أسد قالوا للنبي : " أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولاً ". وقد نزل قول الله تعالى يرد عليهم تمننهم على رسوله :

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوتِ والأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [سورة الحجرات/آية 18].

وعندما جاء وفد بني تميم قدموا بكل كبرياء وخيلاء زعماء القبائل المشهورة. وكانت تميم من أضخم قبائل العرب، إذ انتشرت عشائرها والجماعات المنتسبة لها في منطقة تمتد آلاف الكيلومترات طولاً وعرضاً، من سواحل الخليج العربي وجزره إلى مشارف مكة القريبة من ساحل البحر الأحمر، ومن عمان إلى العراق. وحينما خرج إليهم رسول الله ليستقبلهم لم يظهروا أمامه بمظهر من جاء يلتمس الهداية والعلم، ومن جاء مسلماً خاضعاً، بل أبت غطرستهم إلا أن تعلن عن نفسها، فقد قالوا له :
" جئنا إليك نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ".

فلما أذن لهم قام خطيبهم ليقول : " الحمد لله الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثرهم عدداً، فمن يفاخرنا فليعدد مثل عددنا ".

وكلف الرسول أحد أصحابه بالتعليق على هذا الغرور الساذج السخيف، ورد أولئك الجهلة إلى القيم الإنسانية الحقة التي جاء بها الإسلام، والتي يتضمنها معنى الإيمان.

وكان من بين الوفود التي جاءت إلى رسول الله وفد بني حنيفة، وهي أيضاً من القبائل الكبيرة التي سكنت وسط شبه الجزيرة العربية، في منطقة اليمامة التي تقع ضمنها مدينة الرياض الحالية. وقد استقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم، وأكرمهم ومنحهم الجوائز.

وحينما عادوا إلى موطنهم كتب أحد شيوخهم إلى الرسول خطابا يقول فيها:
" من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله : سلام عليك، أما بعد، إني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون ".
أي أنه نظر إلى كل ما قام به النبي على أنه عمل لمصلحة قبيلة قريش، فأراد أن يقاسمه المغانم. وقد رد عليه الرسول بكتاب جاء فيه :

" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإن الارض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين ".

وقد استمر قدوم الوفود على رسول الله سنتي تسع وعشر للهجرة، وبلغ عدد تلك الوفود واحداً وسبعين وفداً. وقد ثبت إيمان بعض القبائل، لكن أكثرها كانت ضعيفة الإيمان.

تحذير القبائل البادية :

وجاء موسم الحج. فكلف النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق، رضي الله عنه ، برئاسة الموسم، وكلفه بجانب ذلك – بالإعلان عن إجراءات جديدة سوف تتخذها السلطة الإسلامية لوضع حد للممارسات الوثنية البدائية القديمة. وقد تضمن الإعلان إنذاراً إلى القبائل يبين أن النبي سيلتزم بجميع المعاهدات التي عقدها مع القبائل وسيفي بالتزاماته بموجب تلك المعاهدات إلى أن تنتهي مدتها المتفق عليها، وإذ ذاك يتوقف سريانها، وعندئذ لن يقبل الرسول تمديدها أو تجديدها، وسيكون على رجال القبائل الوثنية أن يخضعوا للسلطة الجديدة، ولن يسمح لهم بالاستمرار في ممارساتهم المتوحشة. وقد شدد الإعلان بشكل خاص على أنه لن يسمح للمشركين بالحج بعد ذلك العام، ولن يسمح لأحد بأن يطوف الكعبة وهو عريان.

وهكذا لم يكن لهم اختيار سوى القبول بالأمر الواقع الذي لا يملكون له دفعاً. ومع ذلك فإن العقلاء منهم آمنوا إيماناً صادقاً، ووقفوا مع الإسلام في ساعات الشدة، وضحوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم.

تعيين العمال (الولاة) :

وكان من مظاهر نشر سلطة الإسلام على شبه الجزيرة العربية ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من إرسال عماله، أي ممثليه وممثلي السلطة الإسلامية إلى نواحي شبه الجزيرة العربية. وكان هؤلاء العمل يكلفون بتعليم الناس واجباتهم الإسلامية، وبجباية الزكاة والصدقات. وتختلف الزكاة والصدقات في المصطلح الإسلامي عن الضرائب من ناحية أن المسلم حين يؤديها إنما يؤدها طاعة لله، وتعبداً له، وطاعة لرسوله، قبل أن تكون طاعة للسلطة الحاكمة، ومع هذا يقينه بأنها ستصرف في ما يرضي الله سبحانه وتعالى من تطبيق لمبادئ الإسلام ومثله. وقد كان الرسول – وخلفاؤه الراشدون من بعده – يوصون العمال بأن ينفقوا من الصدقات التي جمعت من

ولايتهم بالقدر الذي يسد احتياجات الولاية؛ وما زاد عن الحاجة المحلية يرسلونه إلى المدينة، أي إلى السلطة المركزية. ومن بين الشخصيات الصحابية التي عينها رسول الله على القبائل والأقاليم للقيام بهذه المهمات: علي بن أبي طالب الذي أرسل إلى اليمن، داعياً إلى الإسلام، فاستجابت له قبيلة همدان كلها دفعة واحدة، وهي تشمل نسبة كبيرة من سكان اليمن، لأنها من أكبر قبائله ، ثم تتابع اليمانيون في اعتناق الإسلام ؛ ثم وجهه النبي بعد ذلك إلى نجران. وممن ذهب إلى اليمن أيضاً المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة، بعث به رسول الله إلى صنعاء ؛ وكذلك وجه النبي زياد بن لبيد الأنصاري إلى حضرموت، والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين. أما عمان فقد أرسل لها عمرو بن العاص السهمي، وقيس بن سكن بن زيد بن حرام المعروف بأبي زيد الأنصاري.

ولم يتصرف هؤلاء المبعوثون كالحكام والولاة، بل كانوا أقرب إلى المرشدين والمعلمين. وكانوا – بجانب ذلك – يمثلون الأمة التي نبتت بذرتها في المدينة، وامتدت لتصبح قوة جذب توشك أن تتوحد مع سكان شبه الجزيرة كلها، ثم لا تقف عند حدود بلاد العرب، بل تتطلع إلى التوحد مع الإنسانية كلها في إطار الإسلام. وكان المبعوثون يحيون حياة بسيطة ملؤها التقشف، ويتعاملون مع الناس بروح الأخوة والتواضع، والزهد في المطامع المادية الزائلة.

نشـر الإسـلام :

يأتي نشر الإسلام بين الأولويات الإسلامية في المرتبة الأولى، لأن الحياة وفق مفهوم الإسلام وتوجيهاته هي وحدها التي تستحق أن يحرص عليها الإنسان. غير أنه حتى يعيش مجتمع ما في ظل الإسلام، متمتعاً بالفضائل والمزايا التي يوفرها أي نظام إسلامي حق، فلا بد أن تسود في ذلك المجتمع سلطة المبادئ والقيم الإسلامية، وأن يستمد المجتمع نظامه وقوانينه من تلك المبادئ والقيم. وهذا لا يعني إقامة حكومة كهنوتية من (رجال الدين)، لأن الإسلام لا يوجد فيه، ولا يسمح أن يوجد فيه مجموعة تحتكر صفة (رجل الدين) ؛ إن كل مسلم رجل دين. ومعنى رجل الدين هنا هو حرصه على الاهتمام بالإسلام وعلى انسجام سلوك صاحب العلاقة مع توجيهات الإسلام. والإسلام لا يفصل بين الدين والدنيا، فالحياة كل لا يتجزأ. ولقد جاء الإسلام لإصلاح دنيا الناس قبل إصلاح آخرتهم . والحقيقة أن آخرة المسلم لا يمكن أن تكون صالحة إلا إذا كانت دنياه صالحة ؛ والحياة الصالحة الطيبة هي المصوغة وفق مباديء الإسلام وتوجيهاته، كما يعرفنا القرآن الكريم. ولذا فإن المجتمع الإسلامي يحرص على إقامة نظام إسلامي.

لقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أداء رسالته داعياً للإسلام، مبشراً به، ناشراً له. وعندما استجاب له الصحابة عملوا أيضاً على نشر الإسلام. وبعد الهجرة وتحقيق النصر، واصل الرسول والمؤمنون مهمتهم في نشر الإسلام. وقد مر معنا كيف بعث رسول الله الدعاة ليعلموا رجال القبائل، الذي غدروا بهم وأبادوهم. ثم أصبح العمال والولاة يحملون عبء الدعوة وتعليم الإسلام. واستمر هذا النشاط وتوسع مع رسوخ أركان المجتمع الإسلامي، وأصبح الرجال النابهون الباحثون عن الحقيقة يأتون من أقاصي أرض العرب ليلقوا رسول الله ويأخذوا عنه؛ وأصبحت القبائل تبعث الموفدين ليعرفوا الإسلام، بجانب ما تحدثنا عنه من وفود كانت مهمتها أكثر التصاقاً بالمعاني السياسية. وقد أشرنا من قبل إلى خضوع رجال القبائل لسلطة الإسلام الغالبة من غير أن يكون الإيمان قد استقر في قلوبهم. ولكن بالرغم من ضعف أو غياب إيمان بعض الجماعات فإن الإقرار بسلطة الإسلام وإظهار الولاء له فتح الأبواب واسعة على مصاريعها أمام انتشار الإسلام وتعمق الإيمان، سواء عن طريق احتكاك غير المسلمين بالمسلمين، أو عن طريق جهود دعاة متطوعين من عامة الناس، بجانب الجهد الرسمي. وهكذا امتدت دوحة الإسلام وتعمقت جذورها، حتى غطت أرض العرب في فترة جد قصيرة، ثم انطلق الدعاة إلى خارج شبه الجزيرة كما سنرى. ولم يعرف عن المسلمين في أي عصر أنهم أكرهوا أحداً على اعتناق دينهم، لأن القرآن الكريم استبعد واستنكر الإكراه، وحض على استعمال الحكمة والموعظة الحسنة.

مواجهة الأخطار الخارجية:

غـزوة تـبـوك:

بعد أن خضعت مكة والتحق أهلها بركب الدولة الإسلامية الصاعدة، وزال الخطر الداخلي الأكبر المتمثل في تهديد مكة، عندئذ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم اهتمامه لمواجهة الخطر الجديد الذي ظهر في مناطق الحدود الشمالية مع الدولة البيزنطية. ولم ينسَ النبي أثر الهزيمة القاسية التي تجرعها المسلمون في مؤته في السنة الثامنة، قبل فتح مكة ببضعة أشهر، وما يمكن أن يتركه مثل ذلك الحدث في موقف القبائل العربية ، في تلك المنطقة وفي غيرها ؛ ولم يغب عن باله أن السلطات البيزنطية، التي كانت تستعمر بلاد الشام، لم تكن لتسكت على قيام قوة جديدة على حدودها، وهي التي كانت تطمح دائماً، وحتى ذلك الحين، إلى ربط القبائل العربية

بسياساتها من أجل استخدامها في صراعها الدولي مع الامبراطورية الساسانية في الشرق.

لقد أدرك رسول الله ضرورة إظهار قوة المسلمين أمام القبائل العربية، خاصة تلك القريبة من مناطق الحدود، ولعله أراد أيضاً أن يشعر البيزنطيين بأن القوة الناشئة في قلب شبه الجزيرة العربية، أي قوة الإسلام، ليست مثل القوى القبلية، ولا يمكن أن ترضخ للتخويف أو تقبل بالإرتباط بسياسة الامبراطورية البيزنطية. فالدولة الإسلامية قامت تحمل رسالة إلى الجنس البشري كله، رسالة من عند الله لهداية البشر إلى طريق الحياة التي يريدها الله لعباده. إنها حركة تغييرية شاملة، عن طريق الدعوة ومخاطبة عقول الناس. وإذا كانت لا تعتدي فهي قادرة ومصممة على رد أي عدوان وفي هذا الإطار بعث النبي برسائل إلى الملوك و الحكام – بما فيهم قيصر، الإمبراطور البيزنطي – يدعوهم إلى الإسلام. أما وقد فرغ رسول الله من أمر مكة وعداواتها فلا بد من القيام بتحرك عسكري كبير في منطقة الحدود. ومن أجل ذلك كانت حملة تبوك في السنة التالية لفتح مكة. ورأى رسول الله أن يقود الحملة بنفسه إلى تلك الأطراف النائية ليحذر جميع الأعداء والمتربصين، وليزيل أوهام الواهمين. وقد اختار أن تكون الحملة في فصل الصيف، في الحر اللاهب ليتميز المخلص من المنافق بين صفوة المسلمين. وما دام هناك احتمال بحدوث مواجهة مع قوات الحدود البيزنطية وحلفائها من الأعراب فلا بد أن يكون الاستعداد كبيراً؛ ولذلك بذل المسلمون كل ما يستطيعون لإعداد الحملة وتجهيزها. وقد سميت باسم " غزوة العسرة " نظراً للصعاب التي تحملها المسلمون في إعدادها.

ونظراً للظروف الصعبة التي أحاطت بإعداد هذه الحملة وقيامها بمهمتها فقد تخاذل كثيرون من ضعاف الإيمان، وتذرعوا بشتى الحجج حتى يجنبوا أنفسهم مخاطر المشاركة فيها. وكان من بين هؤلاء أناس من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام وقلوبهم منطوية على خلافه، كما كان بينهم أناس من المؤمنين الذين ضعفت عزائمهم أمام ما توقعوه لذلك الجيش من مصاعب ومخاطر. ولذا نجد أن آيات القرآن قد تتابعت – قبيل انطلاق الحملة – تستنهض الهمم، وتستفز الإيمان، وتنكر على المستسلمين لهواجس الضعف والوهن، وتهاجم المثبطين والمشككين، وتؤكد وعد الله للمؤمنين بالنصر والتأييد، وذلك من مثل قول الله تعالى :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ؟ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ

إِلاَّ قَلِيلٌ. إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [سورة التوبة/ الآيتان 38 و 39].

وقوله :
(فَرِحَ الْمُخَلَّفُون بِمَقْعَدِهِم خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُواْ أَنْ يُجَاهِدُواْ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ) [سورة التوبة/الاية رقم 81] .

وقد تسابق المؤمنون في التبرع لتجهيز الجيش، فقدم أبوبكر كل أمواله، وفاق تبرع عثمان أي تبرع آخر، إذ بلغت مساهمته ثلاثمائة جمل، وألف دينار. ومع ذلك فإن بعض المسلمين الذين رغبوا بإخلاص في المشاركة في هذه الحملة لم يجدوا لدى القيادة دواباً تعطيهم إياها ليركبوها في الرحلة الطويلة الشاقة. وقد عادوا وهم يبكون أسفاً إذ فاتتهم بركة المشاركة، وقصر بهم فقرهم عن شرف المساهمة، فاضطروا إلى التخلف عن رسول الله.

وبلغ عدد الجيش ثلاثين ألف مقاتل سار بهم رسول الله في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة – على الأرجح – حتى وصل تبوك، وعسكر بها حوالي أسبوعين. وأثناء مقامه هناك جاءه أمير أيلة، وكان يدعى يوحنا بن رؤبة، فأعلن الطاعة لرسول الله وعاهده على أداء جزية سنوية. كما عاهد أهل أذرح وأهل مقنا. ووجه رسول الله خالد بن الوليد على رأس قوة صغيرة إلى دومة الجندل، فعادت بأميرها أكيدر بن عبد الملك الكندي أسيراً. وأخيرا عاد مع رجاله إلى المدينة دون أن تحدث مواجهة بينه وبين الروم أو حلفائهم من نصارى العرب.

موقف النبي من المخلفين:

لقد تخلف عن المشاركة في غزة تبوك أكثر من ثمانين رجلاً، بعضهم لأنه لم يجد دابة يركبها ولم تستطع القيادة توفيرها له كما ذكرنا، وبعضهم تخلف عن ضعف، بينما تخلف آخرون نفاقاً، بسبب افتقارهم للإيمان الحقيقي، وتظاهرهم بالإسلام من غير إيمان به. وبعد عودة الحملة إلى المدينة جاء كثيرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ممن كانوا تخلفوا نفاقاً ، يحلفون الأيمان لإظهار عذرهم في التخلف، فقبل الرسول اعتذارهم لعل الأيام تعيدهم إلى صوابهم.

ثم جاءه ثلاثة من أصحابه: كعب بن مالك، ومرارة بن ربيع وهلال بن أمية، يعترفون بأنهم لم يتخلفوا عن عذر قاهر أو لعجز ظاهر، وإنما تخلفوا تخاذلاً، وضناً بأنفسهم وطلبوا منه أن يستغفر لهم الله ليعفو عن تقصيرهم. لكن الرسول الذي تساهل مع المنافقين وقبل اعتذارهم من غير تدقيق أو مساءلة اتخذ موقفاً آخر مع هؤلاء المخلصين من أصحابه. ذلك أن حساب أهل الإيمان غير حساب المنافقين، فأهل الإيمان لا بد أن يعرفوا مقدار ذنبهم وأن يقوموا ويعاقبوا حتى لا يعودوا لمثلها. وهكذا أمر الرسول المسلمين بمقاطعة أولئك الثلاثة مقاطعة تامة حتى إشعار آخر. وقد نفذ المسلمون أمر المقاطعة بدقة وحزم، فكان الواحد منهم إذا كلم أخاه أو قريبه أو صديقه لا يرد عليه بكلمة واحدة. وكان لهذه المقاطعة أثر شديد في نفوسهم طهرها من إثمها وأعاد إلى إيمانهم نقاءه وطهارته. وفي هذه الأثناء أرسل ملك غسان كتاباً إلى كعب بن مالك ينبئه بأنه علم بالمقاطعة ويدعوه للذهاب إليه في بلاد الشام. لكن إيمان كعب جعله يعتبر أن تلك الدعوة من قبيل الفتنة والإغواء، فأحرق الكتاب بالنار.

وانتهت المقاطعة بعد خمسين يوماً حين تاب الله على هؤلاء المؤمنين وأنزل على رسوله قوله سبحانه وتعالى :

(وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَحِيمُ) [سورة التوبة/آية 118].

وكان فرح الثلاثة بهذه التوبة فرحاً يفوق الوصف، ولا يدانيه إلا فرح النبي وصحابته بانتهاء محنة إخوتهم المؤمنين الثلاثة الذي عرفوا منهم صدق الإيمان، رغم تعرضهم لهذه المحنة القصيرة.

الفَصل السَـابع

قواعد بناء المجتمع الإسـلامي

سرنا مع محمد رسول الله من مولده إلى طفولته وصباه ورجولته، ثم تعرفنا على المراحل الأساسية في فترة حمله الرسالة وجهاده في سبيلها ونجاحه في إقامة مجتمع وكيان سياسي جديد، وفتحه مكة وإخضاعه شبه الجزيرة العربية للنظام الجديد ولكن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجهوده ، لم تنحصر في نطاق السياسـة والحرب، ولم تكن السياسة والحرب تشكلان الهم الأول لمحمد بن عبد الله، ولم يكن النصر فيهما يشكل الغاية التي سعى إلى تحقيقها في الحياة. لقد تمثلت أهداف رسول الله، التي عمل على تحقيقها بأمر ربه، وبتوجيهه وهدايته، في ربط عقول الناس وقلوبهم بخالقهم وخالق الكون، وإقامة مجتمع جديد على قواعد من الإيمان بهداية الله وتوجيهاته كما بينها في القرآن الكريم. وإذا كان محمد قد نجح في توحيد شبه الجزيرة العربية سياسياً، فقد عمل كذلك على تثبيت القواعد والمبادئ الكفيلة باستمرار هذه الوحدة السياسية، واستمرار التماسك الاجتماعي بعد وفاته. ونود أن نحدد هذه القواعد والمبادئ لتكتمل في ذهن القارئ صورة البناء الذي أقامه رسول الله، وإن كنا لا نستطيع التوسع في إعطاء التفاصيل لحرصنا على تجنب الإطالة.

إن أهم ما يوفر للمجتمع أسباب تماسكه ووحدته واستمراره هو أن تكون لذلك المجتمع مفاهيم مشتركة تؤمن بها عناصره القيادية كما تؤمن بها أغلبيته، على أن تشتمل تلك المفاهيم القيم التي يحيا بها والأنظمة والقواعد التي تضبط علاقاته وتوجه مسيرته، والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها. ولقد سار وضع هذه القواعد وتثبيت هذه المفاهيم في عقول الطلائع من المسلمين منذ أن بدأت الاستجابة لدعوة رسول الله في مكة، بيد أنها لم تأتِ دفعة واحدة، وإنما تدرجت ونمت مع نمو الجماعة المسلمة، متناسبة مع تطورها وتقدمها العقيدي والسياسي. وحين اكتملت للإسلام السيطرة على شبه الجزيرة العربية وتوحيدها سياسياً كان قد اكتمل أيضاً تثبت المفاهيم والقواعد والمبادئ التي تضمن استمرار البناء بعد وفاة رسول الله. ففي الفترة المكية آمن المسلمون

الأوائل بالله الواحد، وأصبح لديهم مفهوم موحد عن علاقة الإنسان بالله، وبالكون الذي يعيش فيه، وعن أهدافه في الحياة، ومصيره بعد الموت. وبجانب ذلك أصبحت لهذا المجتمع الناشئ الصغير نواة قيم مشتركة يصدرون عنها جميعاً، فالخير هو الخير عند كل فرد منهم، والشر هو الشر، ينفرون منه جميعاً ويحاولون مجانبته. لكن ذلك المجتمع الناشئ الصغير كان جزءاً من مجتمع أكبر، هو المجتمع المكي الذي كان يخالفه في العقيدة والمفاهيم ويخالفه في قيمه، وكانت السيطرة المسيرة للمجتمع المكي هي سيطرة أعداء الإسلام كما بينا في الفصول السابقة.

وعندما هاجر المسلمون إلى المدينة وصار لهم كيان مستقل يملكون قيادته؛ إذ ذاك بدأت مرحلة جديدة في صياغة علاقات المجتمع وتوجهاته. ولقد عرفنا كيف آخى النبي بين المهاجرين والأنصار، وكيف وضع دستور المدينة ليوحد مجتمعها وينظم العلاقات بين الفرقاء فيه. لكن تثبيت القواعد وتزويد المجتمع بمبادئ جديدة لم يتوقف، بل واكب مسيرة الإسلام النامية المتطورة خطوة خطوة. وكانت آيات القرآن الكريم تنزل على رسول الله ، صلوات الله عليه، بالتدريج، حسب احتياجات مجتمع المدينة وتطوره، حتى اكتملت الصورة قبيل وفاة الرسول بفترة قصيرة، وجاء خطاب الله إلى رسوله وإلى المسلمين مبيناً لهم بلوغ هذا الاكتمال، وذلك في قوله سبحانه وتعالى :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)
[سورة المائدة/آية رقم 3].

ولقد قصد بهذه القواعد والمبادئ أن تكون صالحة للتطبيق والدوام في كل زمان ومكان، ولذلك اتصفت بالعمومية، والسعة والمرونة. وليس معنى هذا أن المجتمع الإسلامي الأول قام على العموميات وحدها، فلقد صاغ رسول الله كثيراً من التفصيلات، وعالج كثيراً من الجزئيات حسب حاجات مجتمع شبه الجزيرة العربية في عصره. وقد نظر المسلمون إلى بعض أعمال رسول الله وإجراءاته على أنها كانت مؤقتة ومرتبطة بظرف معين، أو حادثة بعينها ولا يلبث حكمها أن يزول بزوال الظرف وانقضاء الحادثة. وهكذا قرروا أن في الأحكام الشرعية أحكاماً عامة التطبيق، وأن هناك أحكاماً خاصة التطبيق، وأصبح لديهم مصطلحان للدلالة على هذين المفهومين: " العام " و" الخاص ". بل إن بعض الأحكام الخاصة نسخت النصوص المبينة لها بزوال الظروف التي أوجبتها في رأي كثيرين من الفقهاء. وثبات القواعد والمبادئ التي قررت أحكاماً عامة ودائمة التطبيق لا يعني الجمود، بل إنه مرتبط بثبات الصفات الفطرية والخِلْقِيّة في الإنسان وباستمرار هذه الصفات عبر الأجيال، وفي كل الأقطار والبلدان. وقد ترك

الإسلام كل ما يخضع لسنة التطور محدداً بالمبادئ والقواعد العامة فقط. أما التفصيل والضبط التفصيلي فقد تركهما للأجيال الإسلامية المتعاقبة لتصوغهما وفق الظروف المتغيرة من جيل لآخر، ومن بلد لآخر ضمن حدود المبادئ العامة والقواعد الكلية التي حددها القرآن الكريم بوضوح. وأهم المبادئ والقواعد التي أعطاها القرآن وأعطاها رسول الله للمجتمع الإسلامي الذي أقامه وظهرت ملامحها متكاملة واضحة فيه عندما تمت للمسلمين السيطرة على شبه الجزيرة العربية ما يلي :

1- مبدأ المساواة بين الأفراد من حيث القيمة الإنسانية الواحدة وأن التمايز والتفاضل بينهم لا يقوم إلا على العمل الصالح والسلوك القويم.
2- مبدأ حرية الإنسان وحرمة دمه وكرامته وماله بما في ذلك حرمة بيته وحقه في أن لا يتعرض للتجسس عليه، سواء من قبل الأفراد أو من قبل السلطة.
3- مبدأ حكم الشورى، الذي يعني اتخاذ القرارات حيال المشاكل الهامة العامة من خلال التشاور بين أهل الرأي في المجتمع.
4- مبدأ التعاون و التكافل بين أفراد الأمة من أجل تحقيق الخير العام، وفي سبيل تطبيق المثل الإسلامية.
5- مبدأ وحدة الإنسانية المنبثق من أصل التوحيد العقيدي، فالله الواحد هو الخالق الواحد للبشر جميعاً؛ وهم عنده سواء من حيث المبدأ، ليس لأحد منهم علاقة نسب مع الله؛ وأصل الإنسان واحد، والفطرة البشرية واحدة؛ ولذا فإن الشعور بالأخوة الإنسانية هو النتيجة المنطقية التي تنبثق من هذه الأصول.
6- مبدأ تحقيق العدالة لجميع الناس دون تفريق بسبب اللون أو العرق أو الدين أو الجنس.
7- مبدأ احترام العلم، والحض عليه والحرص على اكتسابه.
8- مبدأ احترام العمل واعتباره الوسيلة الأولى للكسب المشروع.
9- مبدأ احترام المرأة، والنظر إليها على أنها شقيقة الرجل، مساوية له في إنسانيتها، ولها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات.

10- مبدأ حب السلم واحترامه والسعي لتحقيقه في العلاقات الدولية والعلاقات الداخلية سواء.
11- مبدأ شمولية التوجيهات الإسلامية العقيدية لكل جوانب الحياة.

تلك كانت أهم القواعد والمبادئ التي عمل محمد على غرسها وتثبيتها جنباً إلى جنب مع جهاده لإقامة سلطة الإسلام السياسية وتحقيق الوحدة السياسية في مجتمع الجزيرة العربية المغرق في قَبَلِّيتِه.

بيد أن بعض من يقرأون هذا الكلام – من غير المسلمين – قد يظنون أن هذه المبادئ من ابتكار العصر الحديث، وأن بعض المسلمين قد تبناها ونسبها إلى الإسلام من قبيل الدعاية. وبتعبير آخر، قد يقال : إن المسلمين يستعيرون هذه المبادئ من الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة وينسبونها إلى أنفسهم وإلى عقيدتهم بغير دليل. لهذا نجد لزاماً علينا أن نقدم الدليل على أن هذه المبادئ أصيلة في الإسلام، وأنها كانت هادية لمسيرة المجتمع الإسلامي في عصر الرسول، وفي عصر الصدر الأول من خلفائه، قبل ظهور الحضارة الغربية الحديثة بقرون طويلة.

مبدأ المساواة :

لقد نص القرآن الكريم الذي بلغه رسول الله لأتباعه، وكان يقرأه عليهم صباح مساء، سواء في خطبه أو توجيهاته وعظاته، نص على مبدأ المساواة في أكثر من موضع، من ذلك قوله:

(**يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الذِي خَلَقَكُم مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَــاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَــآءَلُــونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إَنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**) [سورة النساء/آية رقم 1] .

وفي قوله :

(**يَأَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**) [سورة الحجرات/ آية 13].

ومما تجدر ملاحظته هنا – في هذين النصين- أن الخطاب موجه للناس جميعاً، للبشرية كلها، وليس للعرب وحدهم، ولا للمسلمين دون غيرهم، يذكرهم بأن أصلهم واحد، وأن التفاضل بينهم إنما يكون بالتقوى والعمل الصالح، هذا مع أن القرآن وجه

الخطاب للمؤمنين وحدهم في مواضع وقضايا أخرى كثيرة خاصة بهم، أو ذات صفة جزئية [12] ؛ لكنه هنا يوجه الخطاب للناس، لجنس الناس ليشملهم بمعنى المساواة.
ثم إننا نجد في حديث الرسول تأكيداً على هذا المعنى في قوله :
"الناس سواسية كأسنان المشط الواحد، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ".
كذلك نجد كثيراً من الآيات والأحاديث التي تعضد هذا المعنى بصورة مباشرة أو غير مباشرة، هذا فضلاً عن دلالة الممارسة العملية والتطبيق الفعلي في عهد رسول الله، وعهد خلفائه الراشدين، مما لا يتسع المجال لتعداده في هذا الوصف السريع لمراحل تطور ونمو المجتمع الإسلامي.

مبدأ حرية الإنسان:

والحرية أصل من الأصول الرئيسية في عقيدة المسلمين، فقد أكدها الله في كتابه أكثر من مرة، كما أكدها رسول الله في أحاديثه وتوجيهاته. فمن توجيهات الله في القرآن الكريم :

(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يكْفُرْ بِالَّطاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [سورة البقرة/آية 256].

وفي نص آخر خاطب الله رسوله في سياق ينطوي على النهي عن الإكراه، وذلك في قوله :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كَلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يكُونُواْ مُؤْمِنينَ) [سورة يونس/99] .

وفي قول رباني آخر :

(وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) [سورة الكهف/29].

وفي نص آخر :

(فَذَكِرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ)، [سورة الغاشية/21].

وجاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :
" رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه." [13]
"(66)
.

[12] - ***القرآن الكريم*** ، سورة البقرة ، الآيات 104 و 153 و 172 و 178 و 183 ؛ وقد ورد الخطاب للمؤمنين في القرآن مئات المرات ، وإنما اكتفينا بهذه الأمثلة القليلة ، ليس على سبيل الحصر .

[13] - ***سنن ابن ماجة*** ، كتاب الطلاق ، الحديث رقم 16 .

ومن البديهيات الإسلامية التي آمن بها المسلمون الأوائل، وما زالت أجيال المسلمين تؤمن بها حتى يومنا هذا أن نية الإنسان هي التي يعوّل عليها في أعماله، فالصلاة والعبادات الأخرى لا يقبلها الله إلا إذا كانت النية – في داخل نفس الفرد – متوجهة بالعمل إلى الله سبحانه وتعالى ؛ وكذلك الخطأ الذي يرتكبه الإنسان عن غير قصد يكون موضع عفو ومغفرة، إلا أن يتعلق بحقوق الناس، عندها ترتبط المغفرة برد الحق إلى أهله. وقد أشار القرآن إلى هذا في مواضع عدة عندما تناول الرياء والنفاق وأمثالهما [14] ؛ وأوضح الرسول هذا المعنى بجلاء بقوله : " **إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى ...** [15] **"**. **والمكره** على إعلان الإيمان وهو ليس في قلبه، ولا نية عنده لا يعتبر عند الله مؤمنا ولا مسلما، وعمله المظهري في سبيل الخير غير مقبول عند الله رغم تظاهره ، ولا هو مقبول عند المسلمين . لذا فإن عملية الإكراه لا خير فيها، بل فيها الكثير من الشــر ؛ فالذي يضطر مكرها إلى إظهار الإيمان يمكن أن يمتلئ قلبه بالحقد ، وأن يكون عدوا في ثوب صديق؛ ولا نحتاج أن نطيل الشرح هنا.

والحرية مرتبطة بمبدأ التوحيد، ومبدأ المساواة؛ فما دام الله هو خالق الكون والمهيمن عليه، وما دام الناس سواسية، يحاسبون أمامه أفراداً، فليس لأحد أن يتسلط على أحد تكبراً وتجبراً. ويؤمن المسلم أن أحداً لا يستطيع أن يصيبه بأي نفع أو ضرر إلا بإذن الله، وأن الحياة والموت بأجل محدود لا ندركه، وأن الرزق عند الله، يحصل بالسعي والعمل. هذه المعاني مجتمعة علمت المسلمين الصادقين أن لا يخشوا أحداً غير الله. وقد رباهم الرسول القائد على ذلك، وظلوا في خير ما تمسكت أكثريتهم بتعاليمه وتعاليم كتاب الله التي بلّغهم إياها وقادهم على هديها. فلما تراخوا في التزامهم بها تدهورت أحوالهم.

وثمة قصة طريفة جرت في عهد عمر بن الخطاب، الخليفة الثاني بعد وفاة رسول الله. فقد فتح المسلمون مصر سنة 641م، أي بعد وفاة النبي بعشر سنوات. وكان الذي قاد جيش المسلمين لفتح مصر وأصبح والياً عليها هو عمرو بن العاص، الذي هاجر من مكة إلى المدينة واعتنق الإسلام وتابع رسول الله سنة سبع للهجرة (628 ميلادية). وفي يوم من الأيام جرى في الفسطاط – عاصمة مصر أنذاك – سباق، اشترك فيه ابن الوالي، عمرو بن العاص حاكم مصر. وقد تمكن متسابق مصري قبطي، غير مسلم من التفوق، وسبق ابن الأمير الوالي. فغضب هذا وضرب القبطي

[14] - القرآن الكريم : أنظر سورة البقرة/225 : وسورة الأحزاب/ 5 ، على سبيل المثال .
[15] - صحئح البخاري ، كتاب العتق .

وعنفه قائلاً : " كيف تسبقني وأنا ابن الأكرمين ؟ ". وكان القبطي يسمع بعدل الخليفة عمر بن الخطاب، فصمم على السفر إلى الحجاز لعرض شكواه على الخليفة في المدينة وهو متيقن من أن الخليفة سيأخذ له حقه. وقد سافر ، وقدم شكواه إلى الخليفة ؛ وهنا بعث الخليفة يستدعي أمير مصر (عمرو بن العاص) طالباً منه أن يحضر ابنه معه وجاء عمرو في موسم الحج ومعه ابنه المتهم.

وعلى مشهد من الناس جميعاً في موسم الحج قال الخليفة للقبطي : " اضرب ابن الأكرمين كما ضربك " فضرب القبطي خصمه واقتص لنفسه. فلما فرغ من ذلك قال له الخليفة : " اضرب أباه، فوالله لولا اعتماده على حماية أبيه لما تجرأ على ضربك ". لكن القبطي قال إنه اكتفى بالاقتصاص من الابن. وهنا التفت الخليفة إلى عمرو بن العاص وقال قوله خلدها التاريخ، وظلت أجيال المسلمين تتناقلها وتتوارثها جيلاً بعد جيل :

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، **"ونصها الأصلي : "مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتـهـم أمـهاتهم أحـرارا ؟ " [16].**

موقف الإسلام من الرق:

كان حديثنا السابق عن الحرية بمعناها العام. لكن ظاهرة الرق كانت معروفة عند المسلمين وظلت حتى العصر الحديث. والحقيقة أن ظاهرة الرق كانت مشكلة عالمية، وجدت قبل مجيء الإسلام بآلاف السنين. وعندما جاء الإسلام لم يكن في مقدور المسلمين إلغاؤها لأنهم لم يكونوا يسيطرون على العالم كله، ولم تكن وسائل الاتصال بين الدول كما صارت في العصر الحديث. وفضلاً عن ذلك فإن الرق الوافد إلى أرض الإسلام، وممارسات أعداء المسلمين حيث كانوا يسترقون الأسرى أجبر المسلمين على معاملتهم بالمثل أحياناً، من الناحية العملية. لكن الإسلام لم ينص على أن الأسر طريق إلى الرق. والآية التي تحدثت عن ما يفعل بالأسرى قالت:

(فـإمـا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدآءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) ' [سورة محمد/آية 4].

فإما إطلاق الأسرى منًّا وتفضلاً دون مقابل، أو إطلاقهم مقابل فدية. ولقد كان الرق متغلغلاً في حياة الناس الاقتصادية قبل الإسلام، ولم يكن من الممكن إلغاؤه بجرة

---

[16] - عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم (توفي 257هـ/8570م. ، *فتوح مصر وأخبارها* ، ص 167 – 168 .

قلم، أو قرار أو إعلان. لقد كان لا بد من التدرج وسلوك طريق عملي ؛ وهذا ما وجه إليه الإسلام وعمل على تطبيقه، وذلك باتباع الخطوات التالية :

1- مبدأ المساواة بين الناس الذي كان من صلب العقيدة الإسلامية.
2- نص حديث رسول الله وتوجيهاته على هذه المساواوة وإشارته إلى أن ظروفاً عارضة هي التي أوقعت بعض الأفراد في الرق. ولذلك وجه رسول الله أتباعه بقوله:

3- " إخوانكم خولكم. فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم ".

وهكذا أكد أن العبيد إخوان لسادتهم وأن على السادة أن يساووهم بأنفسهم في الغذاء والكساء.
وبهذا التوجيه رمى الإسلام إلى تحرير النفوس من الداخل، نفوس السادة ونفوس العبيد على السواء.

4- وجه القرآن وحديث رسول الله المسلمين إلى تحرير الأرقاء بطرق ثلاث :
(أ) تحرير الرقيق تقرباً إلى الله وطمعاً في رضاه.
(ب) تحرير الرقيق لتكفير الذنوب التي يرتكبها المسلم صغيرها وكبيرها [17]، وذلك في ما لا يتعلق بأكل حقوق الآخرين.
(ج) المكاتبة : فإذا شعر الرقيق برغبته في الحرية، واعتقد أنه يستطيع تحمل مسؤولية نفسه وحده فإنه يطلب من سيده أن يتفق معه على مبلغ من المال يؤديه إليه لكي يتحرر. وقد وضعت شروط تمكن العبد من الكسب حتى يفي بالمال المتفق عليه. وإذا عجز فقد كان بيت المال يدفع المال للسيد لتحقيق الحرية للعبد. وقد نص القرآن بوضوح على أن أحد وجوه صرف الأموال العامة التي تأتي من ضريبة الزكاة هو دفع المال من الخزينة العامة لتحرير الأرقاء الراغبين في الحرية حين يعجزون عن أداء المال المتفق عليه، وذلك في قوله:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) [القرآن الكريم، سورة النور/آية 33 ؛ وانظر سورة البقرة/177 ؛ سورة التوبة/ 60].

---

[17] - سورة النساء/ آية 92 ؛ سورة المائدة/ آية 89 ؛ سورة المجادلة/آية 3 ؛ سورة البلد/ آيـة 13 .

بل إن الدولة ملزمة فرضا أن تقدم العون للمكاتب – من مال الصدقة – إن هو عجز عن توفير القدر المناسب من المال ، فذلك أحد مصارف الصدقات كما تبين الآية القرآنية : (إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم ، ***وفي الرقاب*** ، والغارمين ، وفي سبيل الله وابن السبيل، ***فريضة من الله*** ، والله عليم حكيم .) [التوبة/60].

وإذا كان الإسلام قد وضع القواعد لمنع الرق وإلغائه بالتدريج وذلك بتحريمه فرض الرق على أي حر داخل حدود دولته فإن الرق القادم من الخارج ظل يتدفق على الدولة الإسلامية. ولقد كانت هناك بعض الشعوب التي تبعث بأبنائها لكي يجدوا في المجتمع الإسلامي فرصة للبروز وتبوّء المناصب العالية ، حتى أن بعض أمراء وملوك شعوب وسط آسيا دخلوا بأنفسهم وأتباعهم ساعين للحصول على حظوة في ركاب خلفاء المسلمين بعد أن توسعت الدولة الإسلامية، وقد وردت أسماؤهم في كتب التاريخ على أنهم رقيق، مع أن أصلهم معروف من أسر ملكية. ومن أشهر هؤلاء طغج بن جف، وابنه الأخشيد الذي أصبح ملكاً على مصر الإسلامية وبلاد الشام بعد وفاة أبيه، ثم خلفه في الحكم عبده الرقيق الذي اشتراه بالمال واسمه كافور [18] . وابتداءً من سنة 1250م حكم مصر والشام والحجاز رجال عرفوا كلهم باسم المماليك. وكان حكام الأسرة الأيوبية يشترونهم ويدربونهم ويتخذونهم جنوداً. ثم إنهم ورثوا ساداتهم وحكموا مصر مدة تقرب من قرن ونصف، أي من سنة 1250م وحتى سنة 1390م. وكان هؤلاء يجلبون من وسط آسيا، من تركستان والقوقاز. ومع ذلك فقد عرف من بينهم أفراد من أصول أوروبية، مثل اليونان، والسلاف، بل وعرف من بينهم أفراد من أصل سويدي [19](75) .

لقد كان الرق نظاماً عالمياً راسخاً من قبل مجيء الإسلام بمدة طويلة كما ذكرنا، ولم يكن إلغاؤه ممكناً إلا بإلتقاء إرادة المجتمع الدولي كله. ولم تكن وسائل الاتصال في تلك العصور قوية بحيث يتفق العالم كله على قضية معينة، الأمر الذي تم في العصر الحديث نتيجة للاتصالات التي ربطت العالم كله بعضه ببعض. وقد حاول بعض الغربيين أن يدعوا لأنفسهم شرف تحرير الرق، بينما الواقع يقول إنهم استعبدوا شعوباً بأسرها، ولعبوا بمقدراتها ومصائرها ولم يتركوها وشأنها إلا بعد ضغط المقاومة الشديدة. ولقد كان الأوروبيون هم الذين استرقوا ملايين الأفارقة الأحرار فساقوهم من بلادهم مقيدين بالسلاسل لتشغيلهم في المزارع في قارتي أميركا الشمالية والجنوبية. هذا

---

[18] - حكم الإخشيديون مصر من سنة 935م إلى سنة 969 م ، وقد حكموا معها بلاد الشام حتى نهر الفرات .

[19] - من أوفى الكتب التي تناولت تاريخ المماليك كتاب ***النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة***، وقد توفي مؤلفه سنة 1469م، وقد عاش مؤلفه في العهد المملوكي .

بينما يحض القرآن المسلمين على تحرير الرقيق تطوعاً قبل ألف وأربعمائة سنة، ويلزمهم بتحرير أي عبد طلب ذلك وفق نظام المكاتبة، ويأمر النبي محمد أتباعه بقوله : " لا يقل أحدكم : عبدي، وأمتي؛ بل ليقل : فتاي، وفتاتي ". كما يقول لهم : " إخوانكم خولكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس. ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم ".

مبدأ الشورى :

ولقد نوهنا بمبدأ الشورى في صفحات سابقة، وقلنا إنه يستند إلى تعاليم القرآن وقول الله تعالى لرسوله موجهاً له في تعامله مع أصحابه وأتباعه :

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ..) [سورة آل عمران /الآية 159.]

وقد كان نزول هذه الآية بعد معركة أحد، حيث كان رأي الأغلبية أن يخرج المسلمون لمواجهة العدو خارج المدينة، بينما كان رأي النبي غير ذلك، إلا أنه سار حسب رأي أغلبيتهم وقادهم حيث رأوا، فكانت هزيمة. ومع ذلك جاء القرآن يؤكد على ضرورة الشورى [20] . كذلك استند مبدأ الشورى إلى وصف الله للمؤمنين بقوله :

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) [سورة الشورى/آية 38.]

وعلى هذا سار الرسول وسار بعده خلفاؤه في الفترة التي تلت وفاته مباشرة، وإن كانت الأطماع قد أطلت برأسها بعد ذلك فتعرض المبدأ للعبث، فحصد المجتمع ثمار ذلك الإنحراف تفككاً وتمزقاً ومآسيَّ.

مـبـدأ الـتـعـاون:

لا يخفى أثر المبادئ الثلاثة التي عددناها في توجيه المجتمع نحو التعاون في سبيل الخير العام. لكن تعاليم القرآن الكريم أضافت نصوصاً تبرز مطلب التعاون بصفة خاصة وذلك حيث يوجه الله الأمر إلى المسلمين بقوله :

---

[20] - أنظر ما كتبناه عن معركـة أحد فيما سبق من صفحات هذا الكتاب.

(وتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب .)، [المائدة/آية 2].

وفي مثل قول الله تعالى :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا...)، [سورة النساء/الآية 135].

والحقيقة أن الإسلام يؤكد روح الجماعة في كل توجيهاته وتعليماته، يتضح ذلك – مثلاً – من سورة الفاتحة، السورة الأولى في القرآن والتي يرددها المسلم وجوباً سبع عشرة مرة في اليوم أثناء صلاته، لو أدى الفرائض فقط. وقد يقترب عدد المرات من الضعف لو صلى السنن المؤكدة بجانب الفرائض. إن معظم عبارات السورة دعاء يخاطب به المؤمن ربه، ولكنه لا يخاطبه متكلماً عن نفسه بضمير الفرد بل يدعو بضمير الجماعة، باسمه وباسم إخوانه في الدين جميعاً :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِ الْعَالَمِينَ. الْرَحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِينِ. إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينَ. إهْدِنا الصِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمُ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ)

فالفرد المسلم يقول في صلاته، وهي أخص وأهم الأعمال التعبدية، يقول : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) ولا يقول: " إياك أعبد ". وهكذا في بقية النص. ولقد أوصى النبي أتباعه بالتحدث بلسان جماعتهم عندما يدعو الواحد منهم ربه، يطلب منه الخير لا لنفسه فقط، وإنما لأمته كلها. وهناك أحاديث نبوية كثيرة في التعاون لا يتسع المجال لذكرها أو ذكر أكثرها، وإنما تكفي بعض الأمثلة هنا :

- قال رسول الله : " المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً "[21].
- وقال : " مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "[22](82).

---

[21] - ***صحيح البخاري*** ، كتاب الأدب ، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا ؛ وقد أورده مسلم في صحيحه أيضا.
[22] - ***صحيح مسلم*** ، تاب البر والصلة والأدب ، باب تراحم المسلمين وتعاطفهم وتوادهم.

مبدأ وحدة الإنسانية :

إن مبدأ وحدة الإنسانية هو نفسه مبدأ المساواة بين الناس. ولكن التركيز في حديثنا السابق عن المساواة انصب على المساواة بين الأفراد. وهنا ينتقل التركيز على المساواة بين الشعوب والأمم والأجناس. ولقد أشرنا إلى أن الآية التي تحدثت عن المساواة لم يوجه الله فيها الخطاب للمؤمنين وحدهم وإنما وجهه للناس جميعاً، وتحدث فيها عن الشعوب والقبائل. وإليها يستند مبدأ المساواة بين الأمم والشعوب، يعضدها عدد من الآيات الأخرى والأحاديث في مثل قول الله تعالى:

(يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدةٍ...)، [سورةالنساء/آية رقم 1].

ومثل قول رسول الله: "لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأحمرعلى أسود إلا بالتقوى".

فالانتماء العرقي واللون ليسا مما يميز الناس بعضهم عن بعض، كما أن الولادة من أصل فقير أو متواضع لا تحرم الإنسان الفرد من فرصة المساواة مع غيره من الأفراد. والفرد لا يؤخذ بجريرة غيره، ولا يتأثر مركزه أو قيمته أو فرصته بجرائم أو ذنوب أو إنحرافات ارتكبها غيره من أقاربه. وفي ذلك أعلن القرآن الكريم قبل ألف وأربعمائة سنة : **(ولا تزر وازرة وزر أخرى).**

وعلى الرغم من أن المجتمع المسلم يؤمن بأن دينه هو الحق وما عداه باطل، إلا أن ذلك لا يعني السماح بأي تمييز في المعاملة أمام القانون، فلا محاباة للمسلم حين يخطئ أو يعتدي، ولا إهمال لحق غير المسلم حين يتعرض للأذى أو العدوان ولا تمييز ضده إطلاقاً. وهنا نعيد التأكيد على حماية الإسلام للحرية الدينية لغير المسلمين، وإلتزام المجتمع الإسلامي بحماية أرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم وكراماتهم من أي عدوان أو أذى، ومعاقبة من يتعرض لهم بالإساءة، استناداً إلى قول الله سبحانه وتعالى :

(لاَّ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ.)، [سورة الممتحنة/آية رقم 8].

وإلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آذى ذمياً أو كلفه فوق طاقته فإنا حجيجه يوم القيامة ".

ومن خلال إيمان المسلم بهذه المبادئ يشعر انه ينتمي إلى الإنسانية كلها، وأن البشر كلهم يجب أن يلتقوا على مبادئ الأخوة والحق والخير.

مبدأ تحقيق العدالة لجميع الناس:

العدالة جزء مكمل للمبادئ الخمسة التي تحدثنا عنها، حيث تتكامل المبادئ لينتج عنها واقع عضوي واحد متكامل لمجتمع صالح. ولا يمكن أن تكون هناك مساواة أو حرية أو شورى أو وحدة أو تعاون إلا على أساس توفر العدالة، لأن هذه المبادئ نفسها تشكل هذا الأساس.

و" العدل " لفظة مقدسة عند المسلمين لأنها أحد أسماء الله الحسنى، بالإضافة إلى دلالتها اللغوية التي تعني العدالة في إعطاء كل ذي حق حقه، وفي إصدار الأحكام على الناس والأحداث والقضايا.

ولكن ... ما هو معيار العدل وما هو مصدر الحق في دعوة النبي محمد ؟ لعل المبادئ الخمسة التي عددناها قبل مبدأ العدالة أوضحت هذه المعايير بجلاء، غير أن ثمة نقطتين ما زالتا بحاجة إلى بيان وإيضاح :

أولاهما : من الذي يحدد ما هو عدل وما هو ظلم ؟
وثانيهما : ما هي قواعد الحق والعدل لامتلاك الأموال الثابتة منها والمنقولة ؟

مصدر العدل والحق:

ربما يكون الأمر واضحاً للقارئ قبل توضيحنا، ففي ظل العقيدة الإسلامية التي بلّغها محمد رسول الله، وأكد أنها من عند الله، لا يمكن أن يتوصل إلا أن يكون الله سبحانه، خالق الكون والإنسان، وراعيه وموجهه، هو الذي يحدد معيار العدل والظلم؛ وإنه لكذلك بالفعل. إن العدل هو ما ذكر الله أنه عدل، والظلم هو ما ذكر الله أنه ظلم. هذا هو ما جاء به القرآن. وما نادى به محمد صلى الله عليه وسلم، وربى عليه أصحابه، وهو ما اجتهد المجتمع الإسلامي في عهد الرسول لتطبيقه، واستمر أصحابه من بعده

على نهجه، وظل هذا النهج يشكل المثل الأعلى الذي تتطلع إليه الأجيال الإسلامية، وتتعلق به، وتعود إليه كلما استطاعت أن تتطهر من أثقال المطامع والإنحرافات في عصور الضعف والتدهور.

غير أن هذا المفهوم، مفهوم أن : " الله هو مصدر العدل والحق " قد يبدو غير مستساغ لدى من تربوا على المفاهيم الديمقراطية الغربية. بل أنه يقابل بالإستنكار والرفض منذ البداية، لأنه يرتبط – في أذهانهم – بتجارب تاريخية منفرة كثيرة. فلقد حكم كثيرون من الكهنة باسم الآلهة وأخذوا يقولون للناس : هذا حرام! وهذا حلال! حسب ما تمليه أهواؤهم ومصالحهم، ويدعون أن تلك هي أوامر الله. ويتذكر الأوروبيون خاصة فصولاً طويلة من التاريخ الأوروبي حين تحكم رجال الكنيسة باسم الدين، وأنشأ البابوات محاكم التفتيش، وحاربوا العلماء واضطهدوهم وأحرقوهم حتى الموت لأنهم قالوا بكروية الأرض – مثلاً – أو جاءوا بنظرية تخالف ما عرفه رجال اكنيسة من معلومات في حقل العلوم الطبيعية. وقد بلغ الأمر بالبابوات حدّ إدعاء السلطة على مصائر البشر في اليوم الآخر، والقدرة على غفران ذنوبهم وإدخالهم جنة الفردوس. كما أصدروا قرارات الحرمان لهدر دم خصومهم في الدنيا بحجة مروقهم من الدين، وبذلك يستحقون عذاب الدنيا والآخرة. وكما أصدرت الكنيسة قرارات الحرمان فقد أصدرت كذلك ***صكوك الغفران*** ، مقابل مبلغ من المال لكل صك، وكان يَضمن لمشتري هذه الصكوك غفران ذنوبهم وضمان مكانٍ لهم في الجنة [23]. وقد بلغت الجرأة بأحد بائعي هذه الصكوك أن يتبجح قائلاً: إن صكوك البابا لا تكفر الذنوب الماضية فقط وإنما تكفر الذنوب المستقبلية ، وإن الإنسان لو ارتكب الخطيئة مع العذراء المباركة نفسها فإن صكوك البابا كفيلة بغفران ذنوبه. وقد أثار هذا الادعاء مارتن لوثر (1483- 1546م)، مؤسس حركة الإصلاح البروتستنتي ، فذكره ضمن احتجاجاته، في الاحتجاج رقم (75) والاحتجاج رقم (76)، حيث قال :

"(75) من الحماقة أن يظن أن صكوك الغفران البابوية لها سلطة كبيرة لدرجة أنها تستطيع أن تبرئ رجلا حتى لو أنه تمكن من فعل المستحيل واعتدى جنسيا على إم اللــه" [مريم العذراء].

وفي الاحتجاج رقم (76) رد لوثر بغضب قائلا : "... إن العفو الذي يصدره البابا لا يمكن أن يزيل أقل خطيئة. وعندما يقال : إنه حتى القديس بطرس [أحد تلاميذ المسيح

[23] - E.G. Rupp, ***The New Cambridge Modern History*** (Cambridge at the University Press, 1958), Vol. II, pp. 75 – 77; ***Encyclopedia Britanica***, 15th ed., art. Luther,Martin ; also articles Galileo, Copernicus.

المباشرين] – لو أنه الآن يشغل منصب البابا - لا يستطيع أن يمنح مغفرة أعظم [أعظم من مغفرة البابا] ، فإن مثل هذا القول يعتبر إلحادا في حق القديس بطرس، وفي حق البابا نفسه " [24].

يتذكر الأوروبيون كل هذا ويسارعون إلى رفض فكرة أن يكون الله مصدر الحق والعدل، لأن التجارب علمتهم أنه تحت ظل هذا الادعاء يصبح رجال الدين الفاسدون وتصبح أهواؤهم ومصالحهم هي المعيار، لأنهم يدعون أنهم يمثلون الله ويتكلمون باسمه.

ولكن.. إذا صدق حكم الفكر الغربي على التجربة الغربية لأنه حكم نابع من خبرات طويلة ومباشرة فإنه لا يصبح قابل التطبيق بصورة تلقائية على تجربة أخرى وحضارة أخرى وديانة أخرى مغايرة. ولا بد من النظر في كل تجربة على حدة واختبار وجود تماثل في التطور وفي الأحداث يؤدي إلى تماثل النتائج وبالتالي تماثل الأحكام، وما إذا كان هناك خلافات أساسية في محتوى المفاهيم وفي تطور الأحداث بحيث ؛ وهكذا يصبح تطبيق نتائج التجارب الأوروبية على الإسلام والحضارة الإسلامية تطبيقاً غير علمي، ويغدو الحكم على هذا الأساس غير منصف، بل جائراً.

معنى كون الله مصدر الحق في الإسلام :

عندما أكد محمد رسول الله أن الله هو مصدر الحق ومصدر الأحكام فإنه عنى ذلك تماماً، ولم يدع مجالاً لأي بشر بأن يتكلم باسم الله. ذلك أن البشر عند الله سواء، لا يميز أحدهم عن الآخر إلا بالعمل الصالح، كما ذكرنا. والله – حسب مفهوم العقيدة التي بشر بها محمد – قريب من الناس، ليس بينه وبين أي فرد حجاب. كل إنسان فرد يستطيع أن يخاطب الله مباشرة وأن يدعوه ويستغفره ويطلب رحمته وعونه من غير وساطة كاهن. ويستطيع الفرد المسلم أن يعبد الله ويصلي له في أي مكان على الأرض، ولا ضرورة لأن يرتبط عمله بمبنى معين عدا التوجه إلى الكعبة، أو في اتباع إنسان فرد معين غير رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لا رجال دين في الإسلام :

[24] Michael Mullet, "Martin Luther's Ninety-five Theses : Michael Mullet Defines the Role of the 95 Theses In the Lutheran Reformation," ***History Review***, issue No. 46,(2003), pp. 46 +
وكان مارتن لوثر – مثل غيره من معاصريه من رجال الدين - يكتب باللاتينية ، وقد نشر النصوص مترجمة بالإنكليزية ، ونص المادة 76 كما ظهر هنا بالعربية، ترجمته عن النص الإنكليزي ؛ [المؤلف].

والإسلام لم يقسم أتباعه بين رجال دين ورجال دنيا. هذا التقسيم لا صلة له بالإسلام. إن كل مسلم يؤمن بالله ورسوله، كل فرد، سواء كان رجلاً أو امرأة هو شخص ديني. وكونه دينياً لا يعني أكثر من أنه يؤمن بالدين الإسلامي، ويجتهد بالإلتزام بمبادئه وأوامره ونواهيه، ويحرص على فهمه من مصادره الوثيقة ، كما يحرص على إقناع الأخرين بسلوك سبيله.

العلم بالدين:

إن كل فرد مسلم مكلف بتعلم أحكام دينه ومعرفة الحد الأدنى الذي لا يستطيع تأدية واجباته، وممارسة حياته إلا به. وبعد هذا الحد الأدنى شجع القرآن وشجع رسول الله المسلمين على التوسع والتعمق في فهم دينهم وتفهيمه للناس. وقد أشار الإسلام إلى علماء في الدين، لكن صفة العالم مرتبطة باجتهاد الفرد في تحصيل العلم، إلا أنها غير مرتبطة لا بطبقة ولا بأسرة، ولا بمعهد، ولا بشهادة أو درجة علمية ولا بزي كهنوتي، حتى ولا بعدد سنوات الدراسة. ولا يستطيع أحد أو جماعة أو فئة أن تحتكر التحدث باسم الله، ذلك أن كل مسلم ومسلمة يستطيع أن يناقش وأن يتحدث عن الإسلام بدوره.

الله حاضر ليس بغائب:

والكهنة الذين ادعوا التحدث باسم الله وأساءوا إلى القيم الربانية والمثل الطيبة في الحضارات الأخرى فعلوا ذلك وتجرأوا عليه لأنهم تحدثوا نيابة عن آلهة غائبة، أو آلهة عمياء صماء ممثلة بأصنام حجرية لا تعقل ولا تسمع. ولذلك تمكنوا من تزوير الأوامر والنواهي ونسبوها إلى الآلهة.

أما في المجتمع الذي أقامه محمد، وفي العقيدة التي بشر بها، فإن الله حاضر لا يغيب. والله حاضر بمعنيين :

1- الله في عقيدة المسلم وفي إيمانه ووجدانه يدرك الكون كله ويسمع كل همسة فيه آناء الليل وأطراق النهار، ويعرف كل ما يقوم به كل فرد، بل ويعرف كل ما يدور في خلد الإنسان وما يخطر بباله أثناء تفكيره وتأمله. وتأكيداً لذلك قال :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَــانَ وَنَعْلَمُ مَا تُـوَسْـوِسُ بِهِ نَـفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ، [سورة ق/ آية رقم 16.]

2- أما المعنى الثاني لحضور الله فهو معنى مادي يدركه المسلم وغير المسلم على السواء ؛ ونقصد بذلك وجود ***القرآن الكريم***، كتاب الله، وكلامه الذي يبين معالم الإيمان، ويحدد الأوامر والنواهي، والمحرم والمطلوب والمباح. وهذا الكتاب موجود بين أيدي المسلمين منذ كان محمد رسول الله يقود المسلمين ويرسي دعائم المجتمع والدولة في أوائل القرن السابع الميلادي (610 – 633 م) وما زال بين أيدي المسلمين بتواصل غير منقطع، دون أي اختلاف في ما يحويه من نصوص وتعاليم. وما زال عدد كبير من نسخه التي كتبت في القرن الأول من التاريخ الإسلامي (القرن السابع الميلادي) ما زالت محفوظة إلى الآن في المتاحف العالمية وكبريات المكتبات. والقرآن هو المعيار المطلق والنهائي لكل ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي. ولذا فإن أحداً لا يستطيع أن يزوِّر كلام الله، ويدعي أنه يتكلم باسم الله. ولو فعل أحد ذلك فإن كلام الله في أيدي الناس يحاكمون على ضوئه كل الادعاءات.

فهم القرآن وتفسيره :

وهناك أسس محددة وواضحة للطريقة التي يفهم بها نص القرآن وتفسر بها مقاصده وأوامره ونواهيه.

1- فهناك اللغة : وقد ذكر الله في القرآن نفسه، أنه أنزله **(بلسان عربي مبين)** [سورة الشعراء/آية 195]. فاللغة العربية بمبانيها وقواعدها وأساليبها هي المعيار الأول.
2- إن نصوص القرآن يوضح بعضها بعضاً، فما يأتي مختصراً في نص يأتي مطولاً في نص آخر، وما يأتي عرضاً في موضع يأتي في محور الكلام في موضع آخر. وهناك آيات تضع مبادئ عامة تفهم أجزاء أخرى من القرآن على ضوئها.
3- حديث رسول الله وسلوكه وتطبيقاته : والرسول هو مبلغ الرسالة، وهو الذي قدم القرآن للناس باعتباره كتاب الله ومن وحي الله. وقد عني أصحاب محمد وأتباعهم المباشرون بحفظ كل معلومة عن سلوك الرسول وأقواله وأفعاله، ثم

جاءت أجيال تالية فأخضعت هذه المادة لعملية نقد وتمحيص وضعت لها من القواعد ما لم تعرفه البشرية قبل الإسلام، مما لا يتسع المجال هنا لشرحه أو وصفه.

4- السياق التاريخي : فكثير من آيات القرآن الكريم نزلت مرتبطة بوقائع وحوادث معينة في حياة الرسول وفي حياة الصحابة وحياة المجتمع الذي عاشوا فيه، سواء في مكة أو في المدينة. ومعرفة الظرف التاريخي الذي ارتبط به نص معين يلقي ضوءاً على معناه يسهل فهمه وإدراك مقاصده.

5- مقاصد الإسلام وأهدافه العامة : إن مقاصد الإسلام وأهدافه العامة واضحة في القرآن ، تبناها المسلمون منذ عصر الرسول وتناقلتها أجيالهم وضمنها علماء أصول الفقه كتبهم ونقلها السابق عن اللاحق. وهناك مئات، بل آلاف من كتب الأصول التي ظهرت طوال أربعة عشر قرناً من حياة الإسلام توضح مقاصد الشريعة وتحددها على النحو التالي :

جاء الإسلام لتحقيق مصالح الناس، لتكون حياتهم طيبة تستحق أن يخوض الناس تجربتها، بحلوها ومرها. وتنقسم هذه المصالح ثلاثة أقسام : ضرورية، وحاجية وتحسينية (أو كمالية) والضرورية هي التي لا تقوم الحياة إلا بها، وإذا فقدت انهدم الوضع الاجتماعي وعمت الفوضى. أما الحاجية فأقل في الأهمية؛ وهي إذا فقدت لا ينهدم النظام وإنما يعيش الناس في حرج وضيق. أما التحسينية، أو الكمالية، فيقصد بها الراحة والكمال والتأنق من غير إسراف ولا انحراف. وقد ذكر الإمام الغزالي المتوفي سنة 505 هـ (1111م) أن هدف التشريع الإسلامي أن يحفظ للناس خمسة أشياء أساسية لحياتهم، وهي :
(أ) الدين (ب) النفس (ت) العقل (ث) النسل (ج) المال .[25]

وقد فهم المسلمون في عصر الرسول ثم في العصور التالية أن تحقيق هذه المصالح لجماعة الناس من أهم مقاصد التشريع والأحكام في الإسلام.
وفي ضوء هذه الأسس الخمسة الواضحة ، بجانب نصوص القرآن وسنة رسول الله يغدو مستحيلاً على أي مشعوذ أن يضلل الناس ويتحدث باسم الله كذباً وزوراً. ولو نجح في خداع بعض البسطاء والجهلة حيناً من الوقت فإن زيفه سينكشف، لأن الأصول الإسلامية ثابتة وواضحة ومتوافرة، ولأن مسلمين كثيرين سيبادرون بإعلان الخطأ، وإعلان تصحيحه.

---

[25] - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، **المستصفى من علم الأصول** (القاهرة : المطبعة الأميرية ببولاق ، سنة 1322هـ) ، المجلد الأول، ص 284 - 292 ؛ وانظر عبدالوهاب خلاف ، ***علم أصول الفقه*** (الكويت: 1968م) ، ص 197-203؛ وتوجد لكتاب الشيخ خلاف ، رحمه الله ، ترجمة باللغة اليابانية .

وتأكيدا لأن الإسلام جاء لحيقق للناس الحياة الطيبة خاطب الله سبحانه وتعالى المؤمنين بقوله :

(يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه، وأنه إليه تحشرون.) ، [سورة الأنفال/آية 24].

وهكذا نرى أنه عندما آمن المسلمون بأن الله هو مصدر الحق والأحكام الدالة عليه إنما اعتمدوا على أصل واضح ثابت لا يمكن إخفاؤه أو تزويره على الأمة .

أسس العدالة في ميدان الاقتصاد والمال :

ويرتبط بموضوع العدالة طريقة امتلاك الناس للأموال وتوزيعها بينهم. ولا مراء في أن سلامة الوضع الاقتصادي وعدالة توزيع الثروة من أهم ركائز استقرار المجتمع. وقد عني القرآن بإرشاد المسلمين إلى السلوك القويم بالنسبة للحقوق المالية، واجتهد الرسول وصحابته من بعده في إرساء الأسس العادلة في حياة المجتمع الاقتصادية.

وقد حدد الإسلام طرق امتلاك الثروة واكتسابها بالوسائل التالية :

1- العمل، أي أن يحصل الفرد على الثروة من خلال عمله وجهده.

2- الوراثة، أي أن يرث الفرد الثروة عن والديه وأقاربه حسب نظام محدد.

3- الهبة، أن يحصل على المال هبة من فرد أو جهة معينة.

4- اللقطة، أي أن يجد الفرد شيئاً بلا مالك أو صاحب. وينبغي أن يلاحظ أمران بالنسبة لهذا المصدر :

(أ) أن الجيل الإسلامي الأول عاش في صحراء مترامية الأطرف، وأن الناس كانوا موزعين جماعات وقبائل في مناطق شاسعة، ولم تكن قبل الإسلام أية سلطة مركزية. وبعيد مجيء الإسلام لم يكن وجود ممثلي السلطة كثيفاً ولم تكن وسائل الاتصال ميسرة.

(ب) إن توجيهات الإسلام افترضت أن يعلن من لقي شيئاً عن ذلك الذي لقيه بكل الوسائل المتاحة، وأن يمتنع عن التصرف به سنة كاملة، فإذا لم يتقدم أحد ليطالب به جاز لمن لقيه أن ينتفع به. فإذا ظهر صاحبه بعد ذلك – مهما طالت الفترة – فعليه أن يرده إليه[87]. وغني عن القول إن السلطة كانت تتدخل فيما لو خالف أحد روح هذه القاعدة أو نصها، فيما لو علمت بالمخالفة.

تحريم الاحتكار:

وقد حرم الإسلام احتكار السلع لاستغلال حاجة الناس إليها وابتزاز أموالهم. ومن أجل ذلك قال رسول الله : **" لا يحتكر إلا خاطئ "** [26] .

تحريم الربا :

وكان كثيرون من الأثرياء في مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام يقرضون المال بالربا، ويأخذون الفوائد أضعافاً مضاعفة، مع ما ينطوي عليه ذلك من جشع وإشاعة للأحقاد، واستغلال حاجة المحتاجين ، ولذلك حرم الإسلام الربا ؛ لكنه – بدلاً من ذلك – شجع التجارة والمشاركة.

الـزكـاة :

فرض الإسلام ضرائب على الأموال سماها الزكاة أو الصدقة، حدد الرسول نسبها. وهذه الضرائب كانت تحسب من رأس المال والربح معاً، كل سنة، ولا تحسب من الربح فقط. وكان هناك نوعان من الصدقة:

(أ) صدقة إجبارية يطلب من المكلفين تأديتها، وإلا أخذت منهم بالقوة.

(ب) صدقة تطوعية، وهذه لا تتدخل السلطة في جمعها أو طرق صرفها.

وكانت الزكاة لا تؤخذ من الفقراء. وقد عين رسول الله حداً معيناً فمن كان وضعه المالي أقل من ذلك الحد أُعفي من ضريبة الزكاة، بل جاز أن يكون أحد المنتفعين بها.

وحدد الإسلام وجوه صرف الدخل المتحصل للدولة من الزكاة، وورد هذا التحديد في القرآن الكريم:

(إِنَّمَا الصَّدَقَّاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)،[سورة التوبة/آية 60].

ومعنى ذلك أنها كانت تصرف على الفقراء، والمساكين – وهم في درجة من الفقر أقل قسوة – والعاملين عليها، أي تدفع منها رواتب مسؤولي الزكاة، والمؤلفة قلوبهم، أي الشخصيات الهامة التي كان الرسول يحاول كسب ودهم واستمالتهم إلى الإسلام، أو كف أذاهم عنه. وبجانب ذلك كان جزء من أموال الزكاة يدفع لتحرير العبيد الأرقاء من رق العبودية، وذلك معنى قوله : (وَفِي الرِّقَابِ). أما الغارمون فهم

[26] ***صحيح مسلم*** ، كتاب المساقاة ، حديث رقم 120 و 129 .

الذين عليهم دين أو غرامة مالية مطالبون بتأديتها. وابن السبيل: هو المسافر الذي انقطعت به السبل ونفدت نقوده ولا مورد له. أما في سبيل الله، فهو الإنفاق على مستلزمات الدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد الهجمات المسلحة من الأعداء، والإنفاق على كل عمل من شأنه أن ينفع الإسلام والمسلمين. وكانت هناك قاعدة تنص على أن تنفق صدقات كل منطقة على احتياجات أهلها، فإذا فاض بعد ذلك شيء تم إرساله إلى الحكومة المركزية في المدينة.

ومن فقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في موضوع استحقاق المال والثروة، وضع الخليفة الثاني قاعدة توصل إليها أثناء توليه الخلافة ، ومن خلال اجتهاده وتجربتــه في تلك السنوات العشر ، حيث خلص إلى رؤيـة عميقة وشـــاملة ورائـعـة، فقال :

" الـمـرء وبـــلاؤه , والمـرؤ وحاجـتـــه"

الـمـرء وبـلاؤه : "تعني أن لك فرد الحق في امتلاك ثمـرة عملـه وجهـده."
المرء وحاجـتـه : "تعني أن الذي لا يستطيعون توفير احتياجاتهم الأساسية من خلال عملهم وجهدهم يجب أن تتكفل الدولة والمجتمع بسد هذه الاحتياجات."

مــبدأ احترام العــلــم:

كان الاهتمام بالعلم هو أول ما ظهر في الإسلام منذ ظهر الإسلام في مكة سنة ستمائة وتسع من التقويم الميلادي الغربي. كانت أول بادرة من بوادر الدعوة الإسلامية تلقي محمد بن عبد الله لرسالة ربه أول مرة وحياً تمثل في كلمات تحمل تعليمات. وكانت أول كلمة بدأ بها الوحي هي كلمة " اقرأ " بصيغة الأمر، ومضى سياق الوحي هكذا :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) ، [سورة العلق/آية 1-5]**.**

وقد عرفت السورة التي تضمنت هذه الآيات باسم " سورة العلق ". لذا فإن حديثنا عن اهتمام الإسلام بالعلم، وتأسيس الفكرة على العلم لا يمكن أن يوصف

بالدعاية، لأن أصول الإسلام التي بين أيدينا، والتي يستطيع أن يطلع عليها من شاء متى شاء هي التي تقول ذلك .

كانت هذه بداية لم تمثل كل ما قاله الإسلام في " العلم ". فقد و اصل القرآن التنويه بالعلم وبأهميته، وتبعاً لذلك عمل رسول الإسلام بهذا التوجيه مجتهداً في نشر العلم، وفي تثبيت القيم العلمية، سواء في الفترة المكية أو بعد هجرته إلى المدينة وخلال تنشئته للمجتمع وإقامته للدولة في الفترة المدنية. ونقرأ في كتاب الله ثناء على العلم والعلماء في أكثر من موضع، وذلك في قوله :

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...)، [سورة المجالدلة/آية رقم 11].

(وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ)، [سورة العنكبوت/43].

(**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**)، [سورة فاطر/28].

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) ، [سورة الزمر/آية 9].

وفي عدد كبير من آيات القرآن الكريم يوجه الله عباده المؤمنين إلى الطريق الصحيح لاكتساب العلم والمعرفة العلمية، فهو يأمرهم ويحذرهم من أن يبنوا أحكامهم على الظن، ذلك (**إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقّ شَيْئاً**) ، [سورة يونس/آية رقم 36].
ويدعو إلى عدم تصديق أناس لأنهم يبنون أقوالهم على مجرد الظن، واتباع الأهواء، وذلك في قوله:(**مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتبَاعَ الظَّنّ** ...)، [سورة النساء/157].
(**إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**)، [الأنعام/116 و يونس/66].
(**وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ**)، [الجاثية/24 و النجم/28].
(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِ إِثْمٌ**)،
[سورة الحجرات/12 و وسورة النجم/23و 28].

ويوجه القرآن المسلمين إلى الحرص في إصدار الأحكام، فلا يجوز للمسلم أن يصدر حكماً على أمر إلا إذا كان لديه علم كاف بالموضوع. ويتبين لنا هنا التوجيه القرآني في عدد من آيات كتاب الله :

(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)، [سورة الإسراء/آية رقم 36، وسورة البقرة/80 و 169].

ويعرفنا أن بعض الناس يقعون في الضلال نتيجة إقدامهم على الحديث في ما في لا يعلمون :

(وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ...)،
[الأنعام/119 , وآل عمران/66 و والأعراف/28 و 33].

وإذا كان الإنسان لا يمتلك المعرفة اللازمة بموضوع يهمه، ولا يستطيع أن يصل إليها بجهوده الشخصية ، فعليه أن يسأل أهل العلم والخبرة ويتعلم منهم. هكذا يقول القرآن :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)، [سورة النحل/43 و الأنبياء/7] .
(وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)، [سورة فاطر/آية رقم 14].

(وَلَـوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسـُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِـنْهـُمْ لَعَلِمَـهُ الَّذِينَ يَسْـتَـنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ)، [القرآن الكريم، سورة النساء/ آية رقم 83].

وليس كل من ادعى العلم والخبرة يؤخذ منه دون ترو أو تدقيق، ولذا فإن على الباحث عن العلم أن يكون متيقظا؛ فإذا أخبرنا امرؤ بخبر، أو معلومة مما نشك في صحته فإن علينا أن نطالبه بالدليل :

(إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَان بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)،[سورة يونس/68]

(قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ، [البقرة/111و الأنبياء/24 و النمل/64]

وإذا كان الفرد لا يعلم قضية فإن عليه أن يعترف بذلك ويعلنه. وهذا ما أرشد إليه القرآن، وما أخبر عنه وفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ، فرسم القدوة لأتباعه، ولأجيال المسلمين كلها :

(قُل لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الغَيْبَ ...)، [سورة الأنعام/50]

(**وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ...**)، [الأعراف/188].

وبهذه الروح حض رسول الله أتباعه على التعلم وطلب العلم، فوجههم بقوله :

" أطلبوا العلم ولو بالصين ".

" طلب العلم فريضة على كل مسلم [27] ." .

" لا طلعت علي شمس يوم لم أزدد فيه علماً ".

ومن أمثلة التطبيق العملي لهذا الاتجاه نجد رسول الله يعمل على توفير التعليم للمسلمين. ومن ذلك أنه كان يعرض على الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين أن يقوم الأسير الذي يعرف القراءة والكتابة بتعليم عشرة من المسلمين، فإذا أتم ذلك اعتبر جهده مقابل الفدية المالية، فيطلق سراحه [28] .

ذلك كان حرص الإسلام على تثبيت مبدأ احترام العلم، وعلى جعله ركيزة أساسية من ركائز نمو المجتمع المسلم، مما سنرى له أثراً كبيراً في حياة الأجيال الإسلامية التالية عندما نتعرض لبحث تطور الحضارة الإسلامية ؛ فالعلم قيمة كبرى جديرة بأن تطلب، وجديرة بأن تحترم، والعلم لا يبنى على الظن، ولا يمكن أن نحصل على الحكم العلمي إذا اتبعنا الهوى. وعلى المسلم أن يتوقف عن إصدار الأحكام إن لم يكن لديه علم كاف بموضوع البحث. وإذا كان الأمر يهمه فإن عليه أن يعترف بنقص علمه، وعليه أن يسأل العلماء والخبراء إن لم تكن له القدرة الذاتية والوسيلة. وإذا ادعى أمامه أحد بخبر يدعو للشك فإن عليه أن يطلب منه الدليل.

مبدأ احترام العمل :

ذكر القرآن الكريم العمل مئات المرات، ولا يكاد يرد في القرآن ذكر الإيمان إلا ويتبعه ويقترن به ذكر العمل الصالح [29](111). والعمل الصالح يشمل كل أنواع العمل، سواء كان عملاً في سبيل الكسب المادي، أو الكسب المعنوي، أو لكسب رضا الله، كل

[27] - حديث نبوي ورد في ***سنن ابن ماجه*** ، المقدمة ، حديث رقم 17 .

[28] - محمد بن سعد ، ***الطبقات الكبرى*** ، مجلد 2 ، ص 22 ؛ وقد توفي محمد بن سعد سنة 845م.

[29] - ونشير هنا إلى خمسة من الأمثلة من ***القرآن الكريم*** : سورة البقرة/62 و المائدة/9 و النحل/97 و الأعراف/42و الكهف/88 ، وهناك مئات غيرها .

ذلك من العمل. ولقد أشرنا في صفحات سابقة إلى أن العمل أحد مصادر التملك، ولا مراء في أنه أهمها جميعاً ؛ والله سبحانه وتعالى يعد المؤمنين بقوله :

(أَنّي لاَ أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِن بَعْضٍ) ، [سورة أل عمران/ آية 195.]

ويحضهم على العمل قائلاً :

(وَقُلْ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) ، [سورة التوبة/ آية 105.]

وإذا أمرهم بالتوقف عن العمل في فترة الظهيرة يوم الجمعة، لأداء الصلاة الأسبوعية الجامعة فإنه يأمرهم أيضاً – وفي نفس السياق – بأن يعودوا إلى العمل من أجل الكسب، بعد أداء الصلاة، وذلك في قوله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُواْ الْبَيْعَ ذَلَكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُواْ فِي الأَرْضِ وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللَّهِ ..) ، [سورة الجمعة/9- 10].

ويؤكد رسول الله احترام العمل في عدد من أحاديثه مواقفه بكل وضوح. فمن أحاديثه قوله:

" ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده [30]"
" من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له ".
وأمسك مرة بيد رجل قد تورمت من كثرة العمل وقال : " هذه يد يحبها الله ".
وقال أيضاً: " أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه ".
ومن قوله : " لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره، خير من أن يأتي رجلاً أعطاه من فضله فيسأله، أعطاه أو منعه [31] ".

---

[30] - ***صحيح البخاري*** ، كتاب البيوع ، حديث رقم 15 .
[31] - ***المصدر نفسه*** ، كتاب الزكاة ، حديث رقم 50 ، ورقم 53 ، وكتاب البيوع، حديث رقم 15، كتاب المساقاة، حديث رقم 13 .

تأكيد مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي :

كانت المرأة عنصراً مهما جداً في تاريخ الإسلام وفي حياة رسول الله منذ حمله للرسالة، بل وقبل تيقنه بأنه مكلف بحمل رسالة. ولقد مرّ معنا كيف وقفت خديجة، زوجة الرسول، تقوي من عزيمته وتحنو عليه منذ أن عاد لها قلقاً مذعوراً، يرتجف برداً من شدة ما هزته تجربة تلقيه وحي ربه أول مرة.

وهذا الموقف من جانب المسلمة الأولى هو الموقف الطبيعي؛ ذلك أن الله رب الرجل والمرأة، لا فرق بينهما، كلاهما من خلقه، وكلاهما يستطيع أن يتفكر في خلق الله، وأن يتصل بالله، ويخلص له، ويدعوه دون وسيط ودون وصي. والذي يقدم المرأة على الرجل أو الرجل على المرأة في ميزان الله هو الإخلاص والعمل وليس الجنس، لا جنس الذكورة ولا جنس الأنوثة. وقد أكد الإسلام هذا من بداية عهده، أكده بآيات القرآن الكريم التي تلقاها محمد رسول الله، وحملها إلى الناس، وبلغهم رسالة ربهم، وعمل على اتباعها وتطبيقها في حياة مجتمع المدينة، المجتمع الأول، الذي رباه وقاده في طريق الإيمان.

لقد أنكر الله على عرب الجزيرة ما كانوا يمارسونه ضد الإناث قبل الإسلام، ثم توعدهم على ذلك وفي هذا يقول الله تعالى :

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ...) ، [سورة النحل/آية 58 – 59].

ثم أخبرهم أنهم سيحاسبون على ذلك في قوله :

(وَإِذَا الْمَوْؤدَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) ، [سورة التكوير/8– 9] .

وأكد القرآن أن المرأة والرجل من أصل واحد :

(يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ...)

[سورة النساء/آية رقم 1].

وكذلك أكد أن للمرأة من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات :
(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) ، [سورة البقرة/228]

وأن كلا من الرجل والمرأة مدعو للعمل الصالح، وأن كلا منهما سينال الجزاء الطيب على ذلك. وفي هذا قال الله تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)، [سورة النحل/آية 97].

وعاد القرآن إلى تأكيد الأصل الواحد للرجل والمرأة أثناء تأكيده على المعنى الإنساني الكريم للعلاقة الزوجية، وأن هذه العلاقة ليست للاستمتاع الجنسي فقط ؛ فقال :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِن أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) ، [سورة الروم/آية 21].

وحيث أن رباط الزوجية يقيم علاقة إنسانية خاصة بين اثنين قوامها المودة والرحمة والمسؤولية المشتركة، لا العلاقة الجنسية فقط، فقد دعا القرآن إلى الحرص على استمرار هذه العلاقة ؛ فإذا عرض خلاف بين الزوجين وكره الرجل امرأته فإن القرآن يدعوه إلى ممارسة المعاملة الحسنة والتحمل، وفي ذلك يقول :

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرَوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)، [سورة النساء/آية 19].

فإذا تفاقم الخلاف بين الزوجين، وعجزا عن حله نجد أن القرآن قد وجه المسلمين إلى التحكيم، وذلك في قول الله :

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً) ، [النساء/ آية 35].

فإذا تعذر التوفيق بين الطرفين فقد أجاز انفصالهما، غير أن رسول الله اعتبر أن أبغض الحلال إلى الله هو الطلاق.

ولقد حرم الإسلام محاولات ابتزاز المرأة كي يمنحها الزوج المكروه الطلاق. فقال في ذلك :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُواْ النِسَاءَ كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهَنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهَنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهَنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهَنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)،[النساء/19].

ولقد ترك القرآن للزوجين فرصة للرجوع عن الطلاق، بل فرصتين. فإذا تم الطلاق أول مرة أمكنهما الرجوع إلى بعضهما دون عقد زواج جديد بمجرد التقاء رغبتهما. وإن تكرر الطلاق مرة أخرى أجاز لهما الرجوع مرة ثانية. لكن إذا ما تكرر مرة ثالثة فقد حرم الإسلام أن يعودا زوجين إلا إذا خاضت المرأة تجربة زواج مع رجل آخر فتزوجته زواجاً شرعياً كاملا، ثم لم تستطع الاستمرار ورغبت في العودة إلى زوجها الأول. ففي هذه الحالة يكون عليهما أن يعودا بعقد زواج جديد إن رغب الزوج مثلها [32] .

وفي كل حالات الطلاق اشترط القرآن أن تنتظر المرأة ثلاثة أشهر حتى يتأكد بأنها غير حامل، حتى لا يضيع نسب الجنين.

ولقد فرض القرآن على المسلمين ورباهم ووجههم رسول الله إلى احترام المرأة ورعايتها سواء كانت أماً أو زوجة أو أختاً أو بنتاً، مما لا يتسع المجال لتفصيله هنا في هذه العجالة. وقد ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أحد أصحابه سأله :

" من أحق الناس بحسن صحبتي يا رسول الله ؟ قال : أمك. قال ثم من ؟ قال : أمك. قال: ثم من ؟ قال : أمك. قال ثم من ؟ قال : أبوك [33] ". وبينما كان رسول الله على فراش الموت كان يوصي أتباعه بحسن معاملة المرأة.

---

[32] - *القرآن الكريم* ، سورة البقرة ، الآيتان 229 – 230 .
[33] - ***صحيح البخاري*** ، كتاب الأدب ، جديث رقك 2 ، ورقم 3 بنفس المعنى؛ وانظر ***صحيح مسلم***، كتاب البر، حديث رقم 1 .

ولقد جعل الإسلام للمرأة الحق وحدها في اتخاذ القرار في ما يتعلق بأهم شأن في حياتها، وهو الزواج. فقد علم محمد رسول الله أتباعه : **" لا تنكح الثيب حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن، وإذنها صماتها [34]."** أي أنه لا يجوز أن تزوج المرأة إلا بموافقتها ورضاها. واكتفى من البنت البكر، أي العذراء التي لم يسبق لها الزواج، اكتفى منها بالصمت إن منعها الحياء من الكلام. وقد طبق الرسول هذا المبدأ في حياته بصفته قائداً وحاكماً بجانب كونه هادياً ومعلماً. فقد جاءت فتاة إلى بيت رسول الله تشكو من أن أباها اراد تزويجها من ابن أخيه، وهي تكرهه، فاستدعى الرسول أباها، وأعطاها حق اتخاذ القرار النهائي. فلما تم ذلك قالت الفتاة : " يا رسول الله، قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن أعلم النساء أن لهن من الأمر شيء [35]".

ونضيف مثلاً آخر. فقد أرغم أحد السادة جاريته المملوكة على الزواج من شخص تكرهه، وعاشت الفتاة في ظروف قاسية، فاشفقت عليها زوجة رسول الله، فاشترتها من سيدها وأعتقتها. فكلمها الرسول عندئذ وقال : " ملكت نفسك فاختاري "، وكان زوجها يمشي خلفها ويبكي ، وهي تأباه. فقال لها النبي : " اتقي الله، فإنه زوجك وأبو ولدك! فقالت أتأمرني ؟ قال : لا، إنما أنا شافع. فقالت : إذن لا حاجة لي إليه [36] " .

وقد أعطى الإسلام المرأة الأهلية القانونية لامتلاك الثروة الخاصة وإدارة ثروتها دون تدخل من أب أو زوج. كما كانت المرأة تشارك في القضايا العامة والحياة السياسية، بما في ذلك الاشتراك في البيعة، أي اختيار رئيس الدولة. وقد ورد ذكر مشاركة النساء في مبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائد المجتمع ورئيسه في سورة الممتحنة [37].

ونعرف أنه أثناء المشاروات لاختيار خليفة يتولى السلطة بعد موت عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم تستثن النساء من المشاورات. وعندما كان ينادى إلى اجتماع عام في المسجد الجامع في عهد رسول الله لأمر هام وخطير كانت من شاءت من النسوة تلبي النداء وتشارك في الاجتماع ؛ ومن أمثلة ذلك ما نقله مسلم في صحيحه عن أم سلمة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فبينما كانت أم سلمة في بيتها، وعندها ماشطة

[34] - حديث نبوي رواه البخاري مرات متعددة : كتاب الحيل، رقم 11 ؛ كتاب النكاح رقم 41 ؛ كتاب الإكراه، رقم 12 ؛ ورواه ***مسلم*** أيضا : كتاب النكاح : رقم 64 و 66 – 68.

[35] - ***سنن النسائي*** ، بشرح السيوطي ، كتاب النكاح ، الجزء السادس ، ص 86 – 87.

[36] - ***سنن أبي داود*** ، كتاب الطلاق ، رقم 19 ؛ ورواه ***الدارمي*** : كتاب الطلاق، رقم 15 .

[37] - ***القرآن الكريم*** ، سورة الممتحنة ، آية رقم 12 .

تمشط لها شعرها، سمعت أم سلمة النداء من المسجد: "أيها الناس، الصلاة جامعة،" فطلبت أم سلمة من الماشطة أن تتركها لكي تلبي النداء، فقالت الماشطة : إنه يدعو الرجال، فردت أم سلمة قائلة : ألم تسمعي قوله : "أيها الناس ؟" وأنا من الناس. وهكذا خرجت أم سلمة إلى المسجد للمشاركة في هذا اللقاء العام [38] . وهناك موقف مماثل من الصحابية فاطمة بنت قيس، رضي الله عنها ، وقد كانت من المهاجرات الأوليات، قالت : " سمعت منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي: الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد، فصليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم ... ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : أتدرون لم جمعتكم ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم ... [39] "

ولقد شاركت المرأة في جميع أو معظم أنشطة المجتمع فشاركت في الأعمال الزراعية والصناعية، كما مارست التجارة، واشتغلت بالعلم ودرست الرجال وكبار العلماء، حتى أن العالم الديني المشهور عبد الرحمن بن الجوزي، المتوفى سنة 597هـ، لم يجد حرجاً في أن يذكر بين أساتذته امرأة تدعى شهدة بنت الأبري، وينسب إليها الكثير مما نقله عنها ودونه في كتبه [40]. بل إن المرأة شاركت في الحرب على عهد رسول الله وفي عهد خليفته وصاحبه أبي بكر الصديق، رضي الله عنه.

وربما يرى من ينظر إلى موضوع المرأة من خلال واقع الحياة في القرن العشرين، والحادي والعشرين، أن هذه الحقوق التي أعطاها الإسلام للمرأة تبدو عادية. ولذا فإننا نود أن نذكر القارئ الكريم بأن القرآن أعطى المرأة هذه الحقوق في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، أي قبل عهد نارا (NARA PERIOD) في اليابان بما يقرب من مائة سنة. ولم يحدث ذلك نتيجة مطالبة المرأة ونضالها ؛ بل جاء هكذا من عند الله، حيث تضمنه وحي الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وتضمنته هداية محمد وتربيته وتوجيهاته لأتباعه. هذا بينما احتاجت المرأة في أوروبا إلى نضال طويل لتحصيل شيء من حقوقها الفطرية. ويوم كان الإسلام يعطي المرأة كل هذه الحقوق في القرن السابع الميلادي كانت المرأة الأوروبية محرومة من أبسطها، بل وكان العلماء والفلاسفة يتناقشون في ما إذا كان لها روح، ويعتبرونها مصدر الشر.

مبدأ تكريم الإنسان :

---

[38] - ***صحيح مسلم*** ، كتاب الفضائل ، حديث رقم 29 ؛ وانظر عبدالحليم أبو شقة ، مجلد 2 ، ص 425 – 456 - حيث جمع كثيرا من النصوص التي جمعها من المصادر الأصلية لصلتها بهذا الموضوع .

[39] - ***صحيح مسلم*** ، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت ، مجلد 4 ، ص 373 .

[40] - كان ابن الجوزي أكبر وأشهر علماء الحنابلة في عصره، وتوفي في بغداد سنة 597هـ/1201م، وترك ما يقرب من مئتي مؤلف.

الإنسان في نظر الإسلام كائن مكرم على جميع المخلوقات الأخرى، هكذا بيّن القرآن في مواضع كثيرة، وهكذا علم محمد أتباعه؛ وما كانت توجيهات رسول الله إلا انعكاساً لما علمه وفهمه من كتاب الله. والحقيقة أن المنزلة التي أعطيت للإنسان في المفهوم الإسلامي الذي ربى محمد عليه أصحابه وأتباعه أرفع وأسمى من أية منزلة اعتقدتها المجتمعات البشرية في القديم والحديث، بما في ذلك مفهوم الحضارة الغربية المعاصرة. فنظرة الحضارة الغربية إلى الإنسان اليوم تنطلق من النظرة الداروينية التي لا ترى في الإنسان أكثر من واحد من الأنواع الحيوانية، وفصيلاً من هذه الفصائل المتعددة من الثدييات [41] .

وصحيح أن الإسلام اعتبر الإنسان واحداً من مخلوقات الله، خلقه من مادة الماء، ومادة الطين التي خلق منها جميع الكائنات الحية الأخرى، غير أن الله كرم الإنسان بالروح، وبالعقل، والنطق، والتطلع إلى المثل العليا، وجمله بالصورة الحسنة، كما كرمه بتسخير الخلائق الأخرى في هذه الأرض له، من أجل حياته، ومن أجل منفعته. وقد نص القرآن على هذا التكريم بوضوح في قول الله تعالى :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) ، [سورة الإسراء/آية 70].

وقوله :
(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِبَات ...) ،
[سورة غافر/آية 64].

وقوله :
(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) ، [سورة التين/آية 4].

وقد بيّن الله لعباده أنه فضل الإنسان حتى على الملائكة، حيث أخبر أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم، الإنسان الأول [42](147). وقد أوضح الله هذه الحقائق للبشر بنصوص

[41] - تعرضت الداروينية للكثير من النقد من جانب نفر من العلماء الغربيين ، وفي هذا السياق ، وبينما أعكف على إعداد مسودة هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ، صدر كتاب عال الطبيعيات البريطاني المشهور Sir Fred Hoyle, ***The Intelligent Univers*** حيث دحض إمكانية ظهور الحياة بمحض الصدفة ، وأكد على وجود الخالق ، واعتبر مبدأ "الإنتخاب الطبيعي" مسئولا عن كثير من الشرور الأخلاقية؛ أنظر الصفحات 11-23 ، و 25 – 52 ، مثلا ، من كتاب العالم البريطاني ، الصادر في لندن هذه السنة : 1983 .

[42] - ***القرآن الكريم*** ، سـورة البقـرة ، آية 34 ، وقد تكرر النص على ذلك في سور أخرى.

صريحة من كتابه المنزل على محمد ليلفت أنظارهم إلى فضل الله عليهم، وإلى أهميتهم في هذا الكون. وهذا الإنسان المكرم يحظى بحب الله الخالق له إن هو سلك الطريق القويم، وتقرب إلى الله بالعمل الصالح[148]. ولقد استخلف الله الإنسان في الأرض، لكي يعمرها، ويقيم الحق والعدل فيها، وبذلك ينال رضا الله ومحبته ورعايته[149]. وهذه الخلافة في الأرض ليست لفرد أو لأسرة أو لشعب، بل هي للنوع الإنساني كله، الذي يتساوى أفراده عند خالقهم، ولا يتميزون إلا بالعمل الصالح.

إباحة الطيبات وتحريم الخبائث :

ولقد أباح الله للمسلمين الاستمتاع بكل شيء طيب، ومنعهم من إتيان أو أكل الأشياء الخبيثة. وقد نص القرآن الكريم فقال في وصف المؤمنين :

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّورَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[150]

وفي ضوء هذه القاعدة حرّم الإسلام أكل الميتة – عدا الأسماك – وحرم الدم ولحم الخنزير. ونظراً لما للخمر من مضار على صحة الإنسان وعقله وأعصابه وسلوكه فقد حرمها الله على عباده كذلك، وحرم كل ما يضر بالصحة بشكل عام، مهما كان اسمه وشكله ومادته. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كل مسكر خمر، والخمر قليله وكثيره نجس ". ولما كان تناول الخمر عادة يصعب التخلص منها عند كثيرين ممن اعتادوا عليها فقد اتبع القرآن أسلوب التدرج في إبعاد المسلمين عنها على مراحل. وتحقيقاً لهذه المرحلية التدرجية نجده يتعرض للمشكلة في الخطوة الأولى هكذا :

1- (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ)[151].

ثم انتقل بعد فترة إلى المرحلة الثانية :

2- (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا) [152].

ثم انتقل إلى المرحلة الثالثة :

3- (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الْشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ) [153].

وهكذا بدأ بالنهي عن الدخول في الصلاة في حالة السكر، وعلل ذلك بـ : "حتى تعلموا ما تقولون". وبهذا مهد للخطوة التالية بإثارة شكوكهم حول الخمر. وبعد فترة قال لهم : إن فيها بعض الفائدة لكن ضررها أكبر. وبعد فترة أخرى جاء الأمر باتاً بترك الخمر واجتنابها لأنها " رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الْشَّيْطَانِ "[154].

شمولية التوجيه الأخلاقي:

لم يقتصر توجيه القرآن وتوجيه محمد لأتباعه على ما ذكرنا، وإنما شملت التوجيهات كل جوانب الحياة، ابتداء من معتقدات الإنسان وتصوراته وحواره الصامت مع نفسه، ومروراً بعلاقاته مع غيره، من زوجة وأبناء وأقارب وجيران ومواطنين، كما شملت العلاقات الدولية. وبينما تتناول مواضيع الطعام والشراب والعمل والراحة واللهو والنوم والعلم والحرب، فهي تتناول مسائل مثل دخول الخلاء لقضاء الحاجة، فضلاً عن العلاقات الجنسية التي اعتبرت عملاً خيراً يستحق الجزاء الحسن عندما تمارس في الإطار المشروع.

لقد طلب القرآن من كل مسلم ومسلمة أن يستحضر ذكر الله في قلبه ووعيه في كل لحظة من لحظات حياته، ووردت في ذلك عشرات الآيات في مواضع متعددة من القرآن الكريم لا يخطئها النظر، كما وردت في عدد من الأحاديث ويوجه القرآن المسلم إلى أن تكون حياته كلها لله، وفي ذلك يقول :

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِ الْعَالَمِينَ ....) [155].

وليس معنى هذا التوجيه أن تكون حياة الإنسان كلها صارمة ملفوفة في جو من التأمل والصمت والكآبة كما يفهم البعض، ولكن معناه أن يمارس الإنسان حياته البشرية

عادية في إطار السنن التي لا تضر صحته ولا صحة مجتمعه وعلاقاته، ولا تنزل بإنسانيته إلى مرتبة متدنية. فالإسلام لا يبيح التمتع بنعم الحياة ومباهجها فقط، بل إنه يدعو الناس إلى ذلك، ولكن من غير إسراف. ومن قواعد السلوك العامة التي يوجه إليها القرآن الإنسان : الاعتدال في كل أموره، وذلك ما أكده رسول الله ايضاً في سلوكه وفي توجيهه فالقرآن يقول :

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً)[156]

وفي آية أخرى :

(وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)[157]

وفي آية أخرى يصف المؤمنين الصالحين بقوله :

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُواْ لَم يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً)[158]

ورسول الله يوجه أتباعه بقوله :

" إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى "[159].
ويقول في حديث آخر: **" هلك المتنطعون "[160].**

كذلك فقد ربّى محمد أتباعه على تيسير الحياة والمواقف على الناس، وقال : " يسروا ولا تعسروان وبشروا ولا تنفّروا " وقد وصف الرسول نفسه بأنه " لم يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما "[161].

واستهدفت المبادئ والتوجيهات الخلقية الإسلامية المحافظة على كرامة الإنسان، وعلى رفعته، وعلى روح الجماعة وحمايتها من سيطرة النزعات الفردية ومواقف التنافر والقطيعة. كذلك عملت على إمداد الإنسان بمعين لا ينضب من الأمل والطمأنينة والثقة من خلال إيمانه بالله، وسهولة اتصاله بالله بمجرد أن يتوجه إليه بعقله

وقلبه وأحاسيسه، وينسى ما حوله، ولا يذكر إلا أنه بحضرة الله، وبين يدي خالق الكون، وأقوى الأقوياء، ومن إذا أراد شيئاً قال له " كن فيكون ،" وهو بعد أرحم الراحمين، وأعدل العادلين. إن شـعور المسـلم عندما يحيا مع اللـه سبحانه وتعالـى لحظات مناجاة وشـكوى وتضرع ودعاء، هو شـعور من يستند إلى أكبر القوى، حيث تنزاح من نفسه كل المتاعب، ويجد بـرد الراحة إلى وجدانه وقلبه سبيلاً ، إذ يرضى بحكم الله، ويعتقد أن رضاه خير من كل نعيم.

ويوجه الرسول المؤمنين إلى أعمال صالحة لا تكلف شيئاً ، بينما هي للفرد والمجتمع تفيض خيراً كثيراً، من ذلك قوله :

" تبسمك في وجه أخيك صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة "[162].

والصدقة هنا تعني عملاً خيراً يثاب عليه الإنسان عند الله.

وفي السلام والتحية : يقول الرسول لأتباعه :

"ألا أدلكم على شـيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ قالوا بلى. قال : أفشـوا السـلام بينكم ".

وفي السلام والتحية أيضا، يحدد ما يلي : **يسلم الصغير على الكبير، والقليل على الكثير، والراكب على الراجل، والماشي على الواقف، والواقف على القاعد، وذلك ليبين لهم من عليه أن يبدأ الآخر بالسلام.**

وفي الصبر على الإسـاءة والعفو عن المسيئين يصف القرآن الكريم المسلمين الصالحين مادحاً هذه الصفة فيهم :

(والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين).

وفي ذلك يقول رسول الله : " **ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب "[163].** وطلب رجل من المسلمين نصيحة وتوجيهاً من رسول الله مرة، فقال له الرسول : " **لا تغضب** " وكرر الطلب ثانية، فقال له " **لا تغضب** " **وكذلك فعل في الثالثة.**

وفي التكافل في تحمل المسؤوليات نجد رسول الله يقول :

"من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم".

وفي توجيه آخر يقول لأمته :
" كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ". ثم يضرب لهم أمثلة من المسؤوليات بحيث يبين أن كل فرد مسؤول سواء الحاكم، أو المرأة في بيت زوجها، أو الأجير، أو الخادم في مال سيده [164].

والتواضع صفة أصيلة يدعو إليها القرآن، ويشدد عليها رسول الله. ففي القرآن يقول الله تعالى :

(ولا تمش في الأرض مرحا، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا.) [الإسراء/37]

(وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد في مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) [سورة لقمان/آية 18-19].

ومن أقوال الرسول في هذا المعنى : " **من تواضع لله رفعه** "[166]. وفي حديث آخر : " **التكبر على أهل الكبر صدقة ".**

وفي مجال النظافة يوجه الرسول المسلمين إلى نظافة البدن والثياب والبيوت والطرق بجانب نظافة القلب والضمير. فاالأغتسال الأسبوعي يوم الجمعة سنة سنها رسول الله، وغسل الوجه واليدين والرجلين، أي الوضوء شرط لكل صلاة. والمسلم يصلي خمس مرات في اليوم. وتنظيف الأسنان بالسواك سنة ثابر عليها رسول الله، وقال فيها : **" لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة ".**
وقال : " نظفوا أفنيتكم ولا تتشبهوا باليهود "، وذلك للمحافظة على نظافة البيوت. وقد نهى المسلمين عن توسيخ المياه الراكدة، والأماكن الظليلة، وسن لهم غسل اليدين قبل الأكل وبعده، وإزالة شعر الإبطين، والعانة. ودعا إلى التجمل في المنظر من غير إسراف أو تأنث بالنسبة للرجال. وبصفة عامة قال : **" النظافة من الإيمان " كما قال: "إن الله جميل يحب الجمال."**

وفي مجال الرفق بالحيوان علّم رسول الله أتباعه أن الرفق بالحيوان فضيلة تستجلب رضاء الله ومغفرته، فقد ذكر لهم قصة رجل كان يسير في الصحراء وعطش عطشاً شديداً، ثم وصل إلى بئر ماء فنزل فيها وشرب حتى ارتوى. ولما خرج شاهد كلباً

قد تدلى لسانه من شدة العطش وقد بدا عليه الإعياء الشديد. فأخذته الشفقة عليه لكنه لم يجد وعاء ينقل به الماء. ثم لمعت له فكرة بسيطة فأخذ حذاءه وملأه بالماء وخرج به من البئر وقدمه للكلب، فشرب وارتوى. وبهذا العمل رضي الله عن ذلك الرجل وغفر له. كما حدث الرسول أتباعه بقصة امرأة حبست هرّة فلم تقدم لها الطعام والشراب، ولا هي سمحت لها بالانطلاق للتصيد من حشرات الأرض وزواحفها. وقد غضب الله على تلك المرأة وعاقبها بالعذاب بعد موتها. وقد وجه الرسول أتباعه إلى ضرورة الرفق بالحيوان حتى عند ذبحه للأكل، إذ أوصى بأن تكون السكين حادة حتى لا تتعذب الذبيحة، وأن يضجع الرجل الذبيحة بشكل مريح قبل ذذبحها، وأن يوردها الماء قبل ذلك.

ونختم هذه الأمثلة بتوجيه صدر عن رسول الله للقضاة حيث قال :
" **لا يحكم قاض بين اثنين وهو غضبان** "[(167)].

وبعد .. فإن هذه أمثلة قليلة كما ذكرنا، لم نقصد بها الإحاطة والشمول، وإنما قصدنا إعطاء القارئ مجرد فكرة عامة وهناك الكثير من التوجيهات التي تبين سمو دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ونبل مقاصدها، لعل القارئ يجد فرصة للاطلاع عليها في كتب أخرى.

بـعض الاعـتراضات :

إنني أعرف يقينا أن هناك من سيعترضون على كثير مما ذكرته في هذا الفصل تحت عنوان: قواعد بناء المجتمع الإسلامي. وهذه المعرفة اليقينية تستند إلى تجارب كثيرة من مواجهات أثارها أناس لا يملكون من أدوات العلم والفكر إلا القليل الضعيف العقيم ؛ ومع ذلك يعتبرون نفسهم الحراس على الدين. لا ضير من حيث المبدأ ، فكل مسلم يجب أن يكون حارسا ، ولكن لا بد أن يمتلك الأداة ، ويكون أهلا لذلك ، وأن يعرف أخلاق الإسلام في الحوار من أجل الوصول إلى الحق ويتخلق بها. والإعتراضات التي أتحدث عنها تأتي في زي العلم ، خاصة بالنسبة لما يسمى بعلم ***الناسخ والمنسوخ.*** وتحت هذا العنوان تأتي أشد الاعتراضات وأخطرها أثرا ، لاعتمادها على كلام مكتوب ومطبوع.

الناسـخ والمنسـوخ فـي الـقرآن الكريم :

قال ابن خـزيـمـة ، إن آية السيف نسخت مـئـة وثلاثة عشـر موضعا في القرآن الكريم [43]؛ وقال القاضي والفقيه الأندلسي المشهور أبو بكر محمد بن العربي ، المتوفى سنة 543هـ : إن آية

[43] إبن خزيمة ، ***الناسخ والمنسـخ*** ، ص 271

السيف نسخت مئـة وأربعـة وعشـرين موضعا في القرآن الكريم ، "ثم صار آخرها [الآية 5] ناسخا لأولها [ص/139] وآية السيف هي الآية الخامسة من سورة التوبـة ، ونصهـا :

(... فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مـرصد ... " [التوبة / آية رقم 5].

وقبل أن يطلق ابن العربي مقولته هذه قدم لنا نبذة عن رأيه في أعمال مؤلفي الكتب التي اختصت بموضوع الناسخ والمنسوخ، من قبل أن يؤلف فيها كتابه ، فقال لنا :

"لم يبق أحد من أرباب التأليف ممن جمع في هذا الفن [الناسخ والمنسوخ] إلا وقد حطب ليلا، وجر على العلم ذيلا ، واستوجب ويحا ، أو قل ويلا. ونحن بتوفيق الله تعالى نتتبع بالبيان جميع الآيات ، ونظهر في أثناء ذلك ما أتى به هؤلاء القوم من الغفلات [44] ".

إذن .. إبن العربي ، يسفه وخطئ ويدين كل من سبقوه في تأليف كتب عن الناسخ والمنسوخ ، ثم يقول لنا : إنه سيصحح أخطاءهم ، ثم يخبرنا أن آية السيف نسخت مئـة وأربعة وعشرين مـوضعا من القرآن الكريم ، وصار آخرها ناسخ لأولها ؛ وذلك بدلا عن قول ابن خزيمة: إنها نسخت مئة وثلاثة عشـر موضعا فقط . ثم يخرج علينا الأمام أبو الفرج عبدالرحمن بن الجـوزي ، المتوفى ســـنة 579هـ فيقول لنا معترضا على مقولة ابن العربي، مجهـلا لـه ، معتبرا إياه "لا فهم لـه" ، من غير أن يذكر اسمه : قال ابن الجـوزي : "وقد ذكر بعض من لا فهم له من ناقلي التفسير أن هذه الآية ، وهي آية السـيف ، نسخت من القرآن مائة وأربعا وعشـرين آية ، ثم صار أخرهـا ناسخا لأولها [45]... "

أما أبو جعفر محمد بن أحمد النحاس ، المتوفى سنة 338هـ فيقول لنا : إن للعلماء في هذه الآية [آية السيف] ثلاثة أقوال : فمنهم من قال : إنها هي منسوخة ... وقالوا : الناسخ لها قوله تعالى : (فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها)، وهي الآية الرابعة من سورة محمد [46] .

---

44 القاضي أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي ، ***الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم ،*** الطبعة الثالثة ، 2006) ، ص 139.

45 الحافظ جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن الجـوزي ، ***نواسخ القرآن*** ، 1985 ، ص 173 – 174 .

46 أبو جعفر النحاس ، ***الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم*** ، ص 173 .

ومن غير أن نتابع كتبا أخرى في الناسخ والمنسوخ فلا نجد فيها إلا روايات من هذا النمط ، يمكننا أن نقول بوضوح ، وبصورة مباشرة، إن هذه النصوص التي نقلناها ليست "علما" ، ولم نستفد منها علما يطمأن إليه بأية درجة من القبول ، هي مجرد روايات ، واقوال ، وبعضها قد يكون اجتهادات ، على أحسن الفروض.

ولنستعرض بعض أمثلة مما قالت هذه الروايات إنه وقع عليه النسـخ، فزال حكمه ومضمونه ، على الرغم من بقائه في المصاحف :
(وقولوا للناس حسنا) ، (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)، (ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) ، (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) ، (وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك) ، (لا إكراه في الدين) ، (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ، (فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفســه) ، (فاصفح الصفح الجميل) ، (إدفع بالتي هي أحسن) ، (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) ، (فاصبر إن وعد الله حق) ، (قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون) ، (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ، (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) ، (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ...) [47].

وعندما نقرأ هذه الآيات التي زعموا أن آية السيف نسختها، نجد أنهم بنوا موقفهم على فهم خاطئ، فحواه: أن الأمر بالقتل في آيتي "السيف" و "القتال" يناقض مـا أمرت به الآيات الأخرى ، من عدم الإكراه في الدين، والتعامل بالحسنى. وحتى يزول هذا التناقض الموهوم ينبغي أن يزال أحد طرفيه ؛ وهكذا حكموا بنسخ وإلغاء "لا إكراه في الدين" وغيرها مما يأمر بالتعامل بالحسنى ؛ وهكذا صار الإسلام – ضوء فهمهم الخاطئ - لا يرى فيه إلا القتل، والإكراه بالقوة وإثارة الرعب. لقد انتزعو ما سموه بـ "آية السيف" و "آية القتال" ومثيلاتهما من سياقهـما القرآني العام الواسع، ليحشراهما ضمن سياق ضيق في الزمان، والمكان، والمجتمع الصغير بشرية محددة بالحجم والهوية – مكة والمدينة والبادية، وقريش والأعراب - خلال السنوات الست من معركة بدر حتى فتح مكة ، أي من سنة 2 إلى سنة 6 هجرية، ومع ذلك فاتهم إدراك الخصوصية إذ تجاهلوا آيات أخرى كثيرة كان يمكن أن تهديهم إلى الصواب.

وهنا يلزمنا ، ويجمل بنا أن نلقـي نظرة على الأصول التي حددهـا الإســلام للعلاقات الدولية بين أمـة الإسلام وغيرها.

---

47 إبن خزيمـة ، ***الناسـخ والمنـسـوخ*** ، ص 271 – 278 .

كيف حدد الإسلام أصول العلاقات الدولية:

تطورت الدعوة الإسلامية في عهد رسول الله وما لبث المجتمع الإسلامي أن تحول إلى دولة كما بينا، وقد كان على هذا الكيان الناشئ أن يتعامل مع الكيانات السياسية والاجتماعية من حوله وفق قواعد منسجمة مع عقيدته في الأخوة والإنسانية، والمصير الواحد، وخضوع الجميع إلى الخالق الواحد، سواء اختاروا ذلك الخضوع أو أَبَوْه.

ولقد كان القرآن الكريم هو الهادي وهو المرشد الذي يحدد إطار السلوك العام، بما في ذلك السلوك السياسي تجاه الكيانات الأخرى. وفي هذا الإطار قاد محمد رسول الله أتباعه. وقد وجه القرآن المؤمنين إلى الحوار والجدال بالأسلوب اللين :

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)، [سورة النحل/آية 125].

ودعاهم إلى الصبر على الأذى في بادئ الأمر، والرد على السيئة بالحسنة، وذلك في قوله :

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) ، [سورة فصلت/ آية رقم 34] .

ثم لما تمادى أعداء المجتمع الإسلامي في عداوتهم وجه القرآن محمدا صلى الله عليه وسلم وأتباعه إلى رد العدوان، لكنه نهاهم أن يتحولوا إلى معتدين، وذلك في قول الله تعالى :

(وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) [سورة البقرة/آية 190].

وفي آية أخرى نجد القرآن يوجه المسلمين بقول الله تعالى :

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)، [سورة البقرة/104].

لكن خصوم المجتمع الإسلامي الجديد تمادوا في كيدهم ومؤامراتهم ومناوراتهم حيث كانوا يعقدون الاتفاق تلو الاتفاق مع رسول الله ثم لا يلبثون أن ينقضوه حتى لم تبق أية ذرة من ثقة في تعهداتهم. وأصبح السكوت عنهم يمثل خطراً على المجتمع الناشئ يهدد بسحقه والقضاء عليه في مهده ؛ ولذا جاء القرآن حاضاً رسول الله والمسلمين معه على إزالة هذا الخطر، مبيناً السبب، وهو استمرار الأعداء في نقض العهود وممارسة الغدر. وذلك نمط من السلوك لا يسمح للحياة بأن تستقر، ويعرض الجماعات الإنسانية لخطر كبير. ولقد كان الإسلام واقعياً في ذلك، لأنه جاء ليطبق في الحياة البشرية لا ليكون مجرد مثل أعلى يعجز الناس عن الوصول إليه. ومن هنا جاءت تعليمات القرآن صريحة قوية . وآية السيف (التوبة/5)، وآية القتال (التوبة/29) وما شابههما وواكبها في معانيها وتوجيهاتها إنما أنزل خاصا بهذا التطور الذي وصفنا في حالات التعامل، أو الصراع مع الأعداء ؛ ومن الأمثلة التي تبرز الخصوصية نص الآية التالية :

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الحَرْبِ فَشَرِدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنينَ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ ....)، [الأنفال/آية 55-59].

هم الذين نقضوا عهدهم في كل مرة ، أي كرروا نقض العهود والاتفاقات، لأنهم لا نصيب لهم من التقوى ؛ ومن صفاتهم الخيانة ، والله لا يحب الخائنين.

ومن نصوص هذه الآيات القرآنية نجد أن الله سبحانه حين أمر رسوله والمؤمنين بالتنكيل بأعدائهم لاستمرارهم في العدوان ونقض العهود لم يبح للمسلمين أن يغدروا، بل طلب منهم أن يعلنوا إنهاء العهد، مؤكداً أن هذا الإعلان لن يفوت على المسلمين تحقيق النصر كما قد يظن الذين يرون الغدر وسيلة لتحقيق النصر ، وهذا ما رفضه الإسلام.

وبعد أن يتخذ المسلمون هذا الموقف القوي وينكلوا بمن اعتادوا على نقض العهود نجد القرآن الكريم لا يسمح لهم بأن تسكرهم نشوة النصر وتحملهم على ممارسة الطغيان فيستمرون في قتل الأعداء وسفك الدماء، بل نجده يوجه محمداً وأتباعه إلى قبول السلم حين يطلبه العدو الغدار المنهزم، وذلك في قول الله تعالى :

(وَإِنْ جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. وَإِنْ يُرِيدُواْ أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، [الأنفال/آية 61-63].

وهكذا نجد التوجيه في هذه الآيات يأمر بقبول السلم حين يطلبه العدو المنهزم، حتى ولو كان في نية العدو الخداع، فإن على المسلمين أن يقبلوا السلم وينتبهوا لمحاولات الخداع ليصدوها.

ثم نجد القرآن يوجه المسلمين لمقاتلة الأعداء حتى يتوقفوا عن اضطهاد المؤمنين لصدهم عن دينهم، وذلك بقوله :

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ)، [البقرة/آية 193].

ولقد كان مما شرعه الله في إباحة القتال ومهاجمة جهة ما هو وقوع الظلم من تلك الجهة. وبيان ذلك في قول الله تعالى :

(وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً)، [النساء/آية 75].

الذين زعموا أن " **لا إكراه في الدين** " منسوخة ، لم يلقوا بالا، ولم يحاولوا بجد أن يستوعبوا معنى قول الله تعالى :

" ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ! "

لم يفكروا فيما يعنيه "الإستنكار" الواضح لفعل الإكراه : "أفأنت تكره الناس ..." الاستنكار يؤكد ويثبت مبدأ واضحا في الحكم على الفعل المستنكر، وإلغاء : "لا إكراه في الدين" يعني إلغاء الاستنكار ، أي إلغاء المبدأ. فهل الله سبحانه وتعالى يعبث ويلعب بالمبادئ، كما يفعل السياسيون المنحرفون ؟ تعالى الله عما يقول الجاهلون علوا كبيرا.

ومما غفل عنه دعاة "*الإكراه في الدين*" أيضا، قول الله تعالى :

(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ...) ، [سورة هود/آية 118].

الله سبحانه خلق الناس مختلفين ، عن قصد ، خلقهم ليكونوا مختلفين ، "*ولذلك خلقهم*" كما في نص الآية. والاختلاف بين الناس سنة من سنن الله .. سنة خيرة مؤدية إلى الخير منتجة له ؛ يدلنا على ذلك قول الله تعالى شأنه : "ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض ..." والتدافع ناتج عن هذا الاختلاف الذي هو صلاح للأرض ومن عليها، ومن خلال التدافع تتجلى معادن الناس ، وتتحسن وتنمو في سبيل الخير من منطلق أصالتها، أو تنحدر وتنجرف في تيار الانحراف والخطأ والشر ، فتظهر أهلية الخيرين لأفضل الجزاء ، وأهلية الفريق الآخر لما استحق ويستحقه .

ولقد أخطأ أولئك الذين تبنوا ***العدوانية*** وتوهموا أن الإسلام نظام عدواني، أو يعتبر أن العلاقة مع الآخرين علاقة حرب دائماً، ومبادءة بالحرب. إن العلاقات السلمية والحوار السلمي هما الأصل، والسلام هو الهدف الأعلى، لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى. وقيمة السلام والتوجه إليه أمران عميقان في عقيدة المسلمين وحياتهم وممارستهم اليومية، الدينية والاجتماعية. وفضلا عن أن " السلام " اسم من أسماء الله الحسنى، فإننا نجد المسلم يردد في كل صلاة من الصلوات الخمس كلمة السلام أكثر من مرة، سواء في دعاء التشهد عند الجلوس في وسط الصلاة وفي آخرها، في الفرض والسنة، وذلك عند قوله : "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله و بركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين". وكذلك عندما يخرج من الصلاة بقوله : " السلام عليكم ورحمة الله " متوجهاً إلى اليمين ثم إلى اليسار. وتحية المسلمين بعضهم لبعض في

الشارع عندما يتلاقون : " السلام عليكم ". بل إن اسم الإسلام واسم السلام مشتقان من جذر لغوي واحد. وتحية المسلمين عندما يلقون ربهم يوم القيامة " سلام ".

وعقيدة يتمثل فيها السلام بهذا العمق وهذا التكرار في مختلف جوانب الحياة لا يمكن أن تكون عدوانية، لكنها واقعية كما ذكرنا. فالعدوان إن لم يتوقف بالحسنى والمعاملة الطيبة لا بد أن يوقف بعمل قتالي من جنسه، وبعدئذ يستقر السلام. إن قاعدة : " من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر " لا تصلح للاستمرار، وليست القاعدة التي تصلح للدوام. إنها المبادرة الحسنة والسلمية في وجه الشر لعلها تعيد الغاوين إلى رشدهم. فإذا لم نفع هذا الرد المسالم فلا بد من الرد بأسلوب آخر، وإلا ساد الظلم وفسدت حياة المجتمعات البشرية.

ذلك إذن هو خط سير التعامل الدولي بالنسبة للإسلام : دعوة للتعايش السلمي باللين والحوار – صبر على الأذى وصفح ، ورد الإساءة بالإحسان – رد العدو بالقتال مع عدم المبادأة بالعدوان – مهاجمة العدو الغادر المكرر لنقض العهود وتدمير قوته – إذا عاد العدو إلى صوابه وطلب السلام يعطى له – إذا تبين للمسلمين تعويل العدو على الغدر فإن عليهم ألا يغدروا، بل يعلنوا إنهاء اتفاق السلام قبل أن يباشروا الحرب – أن يستمر القتال حتى تتوفر حرية العقيدة ويتوقف العدو عن اضطهاد الناس لفتنتهم عن دينهم. وتتابع هذه الخطوات، بهذه الكيفية من التسلسل، سنة إسلامية، وخلق إسلامي. وأي فهم غير هذا يعتبر مخالفاً لروح القرآن والإسلام القرآني، ولسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا مراء في إن إدارة الصراعات تطلب أقدارا كبيرة من المرونة ، وتتأثر بالواقع القائم على الأرض في الزمان والمكان ، والحسابات الكليـة للمصالح والنتائج ، ضمن الإطار العام للمبادئ الإسلامية.

اعتراض آخــر :

ويقول معترضون آخرون : نعم إن ، هذه المبادئ موجودة في الإسلام، ولكنها موجودة أيضاً – هي نفسها – في الحضارة العصرية. وهذا الذي تقوله هو نفس مبادئ الحضارة الغربية، وأنت لم تجئ بجديد ؛ فلماذا تريدنا أن نترك القواعد العصرية المنظمة الواضحة، وننسلخ من العالم المتحضر لنعيش في العصور الماضية ، ونتصف بالمخالفة والتقوقع ؟

وردنا أن هذا الاعتراض يقوم على افتراض وهمي بوجود تطابق بين المبادئ والقواعد الإسلامية التي عددنا في الصفحات السابقة وبين القواعد والمبادئ التي تقوم عليها الحضارة الغربية المعاصرة. لكن هذا التطابق غير موجود، إلا أن يكون تماثلاً ظاهرياً في الشكل، وليس في المبدأ والمنطلق .

نحن نؤكد أن المبادئ والقواعد التي قام عليها المجتمع الإسلامي الأول ما زالت تصلح لإقامة مجتمع إسلامي عصري، يتعامل مع المجتمعات الأخرى على قاعدة المساوة والندية المتساوية ، عندما تتوافر الشروط المناسبة لتفعيل هذه المبادئ والقواعد ؛ على الرغم من أنها ليست صورة مطابقة لمبادئ وقواعد الحضارة الغربية المعاصرة. إن القواعد والمبادئ الإسلامية تستند – في المقام الأول – إلى الإيمان بالله، وتنطلق من مبدأ كون الحياة كلها عبادة لله. وهذه العبادة تشمل الشعائر، من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، كما تشمل السلوك تجاه الناس والتعامل معهم والنظرة إلى الكون المادي من حولنا، والتعامل معه من خلال الإيمان بأن هذه الماديات المحيطة بنا قد سخرها الخالق لنا. وبأن كل شيء من مخلوقات الله يسبحه ويمجده . أما الحضارة الغربية فتسقط من حسابها مبدأ وجود الله سبحانه وتعالى وإمكان تأثيره أو تدخله في الحياة البشرية والمادية، كما تنظر إلى الإنسان على أنه مجرد حيوان مثل الثديات الأخرى، وتنزع عنه التكريم الذي نسبه إليه القرآن الكريم. وأما علاقة الناس بعضهم ببعض فتقوم على نظرية الصراع، وأن البقاء للأقوى من خلال عملية الانتخاب الطبيعي. وحتى ولو افترضنا أن هناك تماثلاً حقيقاً فما الذي يحملنا على التخلي عن شخصيتنا وأصالتنا والمبادئ والقواعد النابعة من عقيدتنا وبيئتنا وتراثنا لكي نلتحق بحضارة الغرب، بينما مبادئنا هي الأسبق من الناحية الزمنية، وفي حين أن الغربيين ينظرون إلينا بمزيج من الحقد والاستعلاء !

واعـتراض آخـر :

وثمة اعتراض يطلقه بعض المشككين، وقد أطلقه الاستاذ وليام مونتغمري واط William Montgomry Watt استاذ الدراسات الإسلامية بجامعة ادنبرة، إذ ذهب إلى أن ما يعرض من المبادئ و القواعد الإسلامية في هذا العصر ما هو إلا عرض انتقائي Selective. وهذا يعني – حسب رأي الأب Watt والقائلين بقوله – أن لدينا أشياء جيدة وأشياء سيئة، وأننا نبدي الأشياء الجيدة ونخفي ما عداها لكي نروج بضاعتنا. وبمعنى آخر : أننا نعرض الوجه المشرق ونخفي الوجه المعتم.

ونود هنا أن نحيل القارئ إلى ما قلناه حول الروافد المتعددة التي صبت في مجرى الفكر الإسلامي طوال ألف وأربعمائة سنة من عمر الإسلام، منذ أن فتح العرب المسلمون أقاليم واسعة في آسيا وأفريقيا وأوروبا، وانفتحوا على العديد من التيارات الثقافية والمعتقدات . وقد أدت المعايشة بين جماعات متعددة الثقافات إلى تبادل التأثير والتأثر، فضلا عن تحول جماعات كثيرة إلى الإسلام ، حاملة معها كثيرة مما ورثتها عن ثقافاتها السابقة. وهذا هو معنى قولنا إن الفكر الإسلامي اختلط بكثير من الوافد غير الإسلامي ولم يعد كثير من الناس يميزون بين ما هو أصيل وما هو دخيل . ويمكن القول أن حصيلة هذه التطورات المتتابعة أن صار التراث الإسلامي يضم مجموعتين من المكونات الفكرية من عقائد ، وما يشبه العقائد ، فضلا عن تقاليد وعادات متعددة المنابت ، لقد صار هناك إسلامان : أولا : الإسلام القرآنـي، وهو الأصيل. ثانيا : الإسلام التاريخي ، وهو الذي نشأ وتطور من خلال الوافد من المنابت الأخرى غير الإسلامية. والتمييز بين هذه المكونات يحتاج علما ودقة وصبرا لا يتوافر إلا عند القليلين من المفكرين المخلصين الذين يستخدمون نعمة العقل، ولا يحبسونها في السراديب المعتمة. ولما كانت الصفة الأساسية المُميزة للإسلام القرآني – في اعتقاد المؤمنين به – هي أنه من عند الله، ولما كان الإسلام يشدد على عدم تخويل أي إنسان بإضافة شيء إلى أصوله، وبأن كل آراء البشر يمكن للمسلم أن يقبلها أو يرفضها، فإن أي باحث في العقيدة والفكر والتاريخ الإسلامي لا بد أن يميز الأصيل من الدخيل، أي بين الإسلام القرآني والإسلام التاريخي، ويفرق بين الغث والسمين ؛ أي لا بد أن ينتقي. لكن الانتقاء لا يتم اعتباطاً، بل ينتقي ما هو إسلامي أصيل ومعيار الأصالة هو القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح محكوما بمبادئ القرآن. ومن القرآن والحديث ننتقي ما كان له **"حكم العام"** ، أي ما كان يتصف بعموم التطبيق. أما ما جاء لمواقف خاصة حدثت في نقطة محددة من الزمن في الماضي (من سنة 2 إلى سنة 8 هـ) مثلا، فهذا ما لا نجد ضرورة لأن نتطرق إليه هنا، إلا إذا أخذنا حادثة معينة لنضرب بها مثلاً.

وعلى هذا فإن الانتقائية هنا لا تعني إظهار المحامد وإخفاء شيء غير مستحب، لأن كل ما وجهنا الله إلى الأخذ به لا يتضمن إلا الخير، وذلك بنص القرآن الكريم ؛ وهاكم آيتـين اثنتين فقط تجسـدان كل ما قلناه :

(لَيْسَ الْبِرّ أَن تُوَلُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدَوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ). [البقرة/آية 177].

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاّ بِالْحَقِّ ذَلكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَو كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَنَّ هذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، [الأنعام/آية 151- 153].

وآية أخرى تجمـل المعنى العام في نص قصير :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)، [النحل/آية 97].
فلنحيينـه حـياة طيبـــة !

هذه التوجيهات وما يماثلها، سواء من القرآن الكريم، أو من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، هي ما انتـقيناه وننتقيه، كما فعلنا في الفصول السابقة. أما ما عداها وما خالفها فلا يزيد عن أن يكون من الدخيل

الذي تسرب إلى عقول المسلمين وتراثهم من موروث الحضارات السابقة، أو من اجتهادات بشرية خاطئة في ظل ظروف قاسية، مما يمكن أن يتكرر من جديد فينتج عنه الخطأ ، مع العجز والقصور عن التصحيح .

الـفَـصل الـثَّـامِن

إلــى الــرفـيــق الأعــلـــــــى

وبعد هذه الحياة الحافلة بالعمل والجهاد، والتي امتدت ثلاثة وعشرين عاماً منذ بدأ محمد تبليغ الدعوة في مكة، حـان وقـت الرحـيل. وكم كان الفرق هائلاً بين حال محمد عند وفاته وحاله حين خرج من مكة مهاجراً طريداً يحاول أعداؤه وأعداء دعوته اللحق به للقضاء عليه ولخنق دعوة النور والخير التي بشر بها، أو يوم خرج من الطائف يطارده الصبية والأوباش ويقذفونه بالحجارة إلى أن احتمى بالدخول إلى أحد البساتين.

لقد بنى محمد أمة، وأرسى قواعد حضارة.. لم تلبث بعده إلا يسيراً حتى نمت دوحتها وملآت آفاق الأرض وبذت كل ما سبقها من حضارات، مما سنحاول رسم ملامحه العامة في فصول القسم الثاني من هذا الكتاب .

في شهر ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة (آذار سنة 632) حج رسول الله إلى بيت الله الحرام بمكة، وخطب في المسلمين خطبة مودع، إذ بدأها بقوله : " أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف ... " وقد أعلن في خطبته الطويلة تلك حرمة الدماء بينهم وحرمة أموالهم، ودعاهم إلى أداء الأمانات لمن ائتمنهم. ثم أعلن إلغاء فوائد الديون وتحريم ما زاد على رأس المال، وبدأ بديون عمه العباس بن عبد المطلب حتى يقدم للناس القدوة. ثم أعلن إلغاء حقوق الثأر لمن قتلوا في الخصومات والعداوات الخاصة قبل انتصار الإسلام؛ وبدأ بعشيرته فأسقط حقها في دم ابن عمه ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب الذي كان قتل على يد شخص من قبيلة هذيل. وفي هذا الموقف ذكر رسول الله أمته بحقوق النساء وأوصاهم بهن خيراً، ونهاهم عن الظلم عامة.

وبعد عودته إلى المدينة لم يلبث سوى أسابيع قليلة ثم توفي في شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة (7 حزيران 632 م). وقد أصابت وفاته عدداً كبيراً من أتباعه بالذهول. ويبدو أنهم نسوا – من شدة محبتهم له وتعلقهم به – أنه بشر، وأنه سيموت يوماً مهما طال به العمر. والحقيقة أن القرآن كان قد أكد أن محمد سيموت، مثله مثل غيره من البشر، وذلك قبل السنة التي توفي فيها بسنوات. لكن ذلك كله قد نُسي تحت وطأة الصدمة ؛ حتى أن عمر بن الخطاب، وهو من أجلّ صحابة رسول الله، قام ينفي موت الرسول، وينكر على القائلين بحدوث الوفاة، وأخذ يتوعّد من يقول إن محمداً قد مات. وظل الناس في هياج حتى جاء أبو بكر، صاحب رسول الله، فدخل عليه وقبله، وخرج إلى الناس فخاطبهم بقوله : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت ". ثم تلا الآية رقم 144 من سورة آل عمران من القرآن الكريم ونصها : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَّاتَ أَو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً) فهدأ عمر، وهدأ الناس وران عليهم حزن عميق، وتم بعد ذلك تغسيله ودفنه في بيته الذي توفي فيه.

وهكذا توفي محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكان عند وفاته مديناً، وكانت درعه مرهونة لضمان دينه. وقد نص رسول الله على أنه لا يورث، وأن ما يتركه من مال يكون صدقة. وقد طبق أبو بكر، الذي خلفه في رئاسة الحكم، طبق هذا القول باسم الإسلام ولم يورث ابنة رسول الله أرضاً كانت في تصرف النبي أثناء توليه القيادة ، بل جعلها أبوبكر للمسلمين ، ضمن الملكية العامة.

وهكذا انطوت صحفة مضيئة حافلة في تاريخ شبه الجزيرة العربية، وآذن انطواؤها ببداية مرحلة جديد، ليس في تاريخ بلاد العرب وتاريخ الإسلام، بل في تاريخ العالم، مما سنلم بطرف منه في الصفحات التالية.

الحواشي

التعريف والتمهيد :

1- أعد هذا الكتاب أصلاً بطلب من جهة يابانية اتفقت مع أحد الناشرين في طوكيو من أجل ترجمته ونشره في اليابان. وقد أوشكت الترجمة على الانتهاء، في ما أعلم.

2- إبراهيم نبي الله وأبو عدد من الأنبياء منهم ابنه إسماعيل جد العرب الشماليين وإسحاق جد الإسرائيليين القدماء. ومن نسله محمد رسول الله. وإبراهيم هو الذي بنى الكعبة. ويظن أنه عاش في القرن الثامن عشر قبل الميلاد في رأي بعض المؤرخين. ولا صلة نسبية بين إبراهيم والإسرائيليين في العصر الحديث لأن معظم هؤلاء من أحفاد شعب الخزر الذي اعتنق اليهودية في القرن الثامن الميلادي.

القسم الأول

الفصل الأول :

3- الفرعان الهاشمي والأموي يلتقيان في قُصَيّ، الجد الرابع لرسول الله (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي). وكان لقصي عدة أبناء منهم عبد مناف، جد رسول الله، ومنهم عبد شمس جد بني أمية. وأمية هو أحد أبناء عبد شمس، وهو جد معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن قصي.

4- غطني : ضمني وعصرني.

5- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مجلد 2، ص 301.

الفصل الثاني :

6- الشعراء، 214.

7- الحجر، 94.

8- الأنبياء، 16.

9- الإسراء، 44.

10- سبأ، 28.

11- الجاثية، 24.
12- الطور، 35 و 36.
13- الأعراف، 185.
14- الرعد،4.
15- أنظر **The Encyclopedia of Space,** Hamlyn Publishing Group Ltd., 1968, PP. 491-2, 498 حيث تؤكد هذه الموسوعة صحة المعلومات المذكورة هنا.
16- آل عمران، 191.
17- الروم، 8.
18- الأعراف، 185.
19- الزخرف، 3.
20- البقرة، 256.
21- الكهف، 29.
22- البقرة، 177.
23- المؤمنون، 1- 10.
24- الأنعام، 151 – 153.
25- الحجر، 6.
26- ص، 4.
27-المطففين، 29 – 32.
28- فصلت، 1- 7.
29- طه، 1- 8.
30- ابن هشام، مجلد 1، ص 392.

الفصل الثالث :

31- ابن هشام، السيرة النبوية، مجلد 1، ص 399 – 400.

الفصل الرابع :

32- الحج، الآيتان رقم 39 – 40.
33- المهاجرون هم المؤمنون من أهل مكة الذين هاجروا منها إلى المدينة بأمر النبي واتباعاً له.
34- الأنصار هم أهل المدينة الذين آمنوا برسول الله وناصروه وأيدوا دعوته.
35- انظر ابن سعد، الطبقات الكبرى، مجلد 1، ص 239 – 240.
36- الأنفال، آية 75.
37– ابن هشام، السيرة النبوية، مجلد 1، ص 501 – 504.

الفصل الخامس :

38- القرآن، النحل، 125.
39- نفسه، البقرة، 256.

40- نفسه، فصلت، 34.
41- نفسه، الحج، 39 – 40.
42- محمد بن عمر الواقدي، كتاب المغازي، مجلد 1، ص 2 – 7.
43- خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص 56؛ ابن هشام مجلد 1، ص 591 – 2.
44- القرآن، آل عمران، 123.
45- القرآن، العنكبوت، 46.
46- القرآن، الشورى، آية 38.
47- القرآن، آل عمران، آية 152 والآيات 137 – 140.
48- نفسه، آية 144.
49- القرآن، الأحزاب، آية 12.
50- ابن هشام، مجلد 2ن ص 308 – 321.
51- تقع مؤتة الآن في الجنوب الشرقي للمملكة الأردنية الهاشمية، قرب الحدود السعودية.
52- معان مدينة في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية الآن.

الفصل السادس :

53- القرآن، الحجرات، الآيتان 17 و 18.
54- بلدة تبوك التي أطلق اسمها على الحملة تقع الآن في المملكة العربية السعودية بالقرب من حدودها مع المملكة الأردنية الهاشمية.
55- القرآن، التوبة، الآيتان 38 و 39.
56- القرآن، التوبة 81.
57- القرآن، التوبة، آية 118.

الفصل السابع :

58- القرآن، سورة النساء، 1.
59- القرآن، سورة الحجرات، 13.
60- القرآن، سورة البقرة، 104 و 153 و 172 و 178و 183؛ وقد ورد الخطاب للمؤمنين في القرآن مئات المرات، وإنما اكتفينا بالإشارة إلى هذه الأمثلة ليس على سبيل الحصر.
61- حديث نبوي.
62- القرآن، سورة البقرة، 256.
63- المصدر نفسه، سورة يونس، 99.
64- المصدر نفسه، سورة الكهف، 29.
65- المصدر نفسه، سورة الغاشية، 21.
66- حديث نبوي شريف، سنن ابن ماجه، كتاب الطلاق، الحديث رقم 16.

67- القرآن، سورة البقرة، 225 وانظر سورة الأحزاب، 5؛ على سبيل المثال.
68- حديث نبوي شريف : صحيح البخاري، كتاب العتق، الجزء الثالث، ص 190 – 191.
69- عبد الرحمن بن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب، ص 86. وانظر كذلك : علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي. أخبار عمر، بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2، 1970، ص 155 – 6.
70- القرآن، سورة محمد، آية 4.
71- حديث نبوي شريف أورده البخاري، كتاب العتق، جـ 3، ص 195.
72- القرآن، سورة النساء، آية 92؛ سورة المائدة، آية 89؛ المجادلة، 3؛ البلد، 13.
73- القرآن، سورة النور، آية 33؛ وانظر سورة البقرة، 177؛ التوبة، 60.
74- حكم الإخشيديون مصر من سنة 935م إلى سنة 969م. وقد حكموا معها بلاد الشام حتى الفرات.
75- هناك الكثير من الكتب التي تناولت تاريخ المماليك، منها القديم ومنها الحديث يقع بعضها في أكثر من عشرين مجلداً، مثل كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة وقد توفي مؤلفه سنة 1469م، وكتاب : السلوك لمعرفة دول الملوك، وقد توفي مؤلفه سنة 1441م.
76- القرآن، سورة آل عمران، آيه 159.
77- انظر ما كتبناه عن معركة أحد ص 72 في ما سبق من هذا الكتاب.
78- القرآن، سورة الشورى، آية 38.
79- القرآن، سورة المائدة، آية 2.
80- المصدر نفسه، سورة النساء، آية 135.
81- صحيح مسلم، الحديث رقم 1773، مجلد 20/8.
82- صحيح مسلم، حديث رقم 1774، مجلد 20/8.
83- انظر :

E.G. Rupp, **The New Cambridge Modern History** (Cambridge at the University Press, 1958) Vol. II, 75 – 77; **Encyclopedia Britanica,** 15 th ed., article: Luther, Martin, article. " Galileo and article Copernicus ".

84- سورة ق، آية 16.
85- القرآن الكريم، سورة الشعراء، آية 195؛ وانظر سورة إبراهيم، آية 4، وسورة الأحقاف، آية 12، وسورة النحل، آية 103.
86- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **المستصفى من علم الأصول** (القاهرة : المطبعة الأميرية ببولاق، سنة 1322هـ)، المجلد الأول، ص 284 – 292؛ انظر عبد الوهاب خلاف، **علم أصول الفقه**، (الكويت 1968م)، ص 197 – 203. وله ترجمة يابانية.

87- مصدر تحديد هذه القاعدة من حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورد في صحيح البخاري جزء 1، ص 34 (كتاب العلم).
88- صحيح مسلم، كتاب المساقاة، حديث رقم 120 و 129.
89- القرآن، سورة التوبة، آية رقم 60.
90- القرآن، سورة العلق، 1 – 5.
91- القرآن الكريم، سورة المجادلة، 11.
92- المصدر نفسه، سورة العنكبوت، 43.
93- القرآن، سورة فاطر، 28.
94- المصدر نفسه، سورة الزمر، 9.
95- المصدر نفسه، سورة يونس، 36.
96- المصدر نفسه، سورة النساء، 157.
97- القرآن الكريم، سورة الأنعام، 116 وسورة يونس 66.
98- نفسه، سورة الجاثية، 24، وانظر النجم، 28.
99- نفسه، سورة الحجرات، 12، والنجم 23 و 28.
100- نفسه، الإسراء، 36، والبقرة 80 و 169.
101- نفسه، سورة الأنعام، 119 وآل عمران، 66، والأعراف، 28 و 33.
102- القرآن، سورة النحل، 43 والأنبياء 7.
103- المصدر نفسه، سورة فاطر، 14.
104- القرآن، سورة النساء، 83.
105- نفسه سورة يونس، 68.
106- نفسه، سورة البقرة، 111 والأنبياء، 24 والنمل، 64 والقصص، 75.
107- نفسه، سورة الأنعام، 50.
108- نفسه، سورة الأعراف، 188.
109- حديث شريف ورد في سنن ابن ماجه، المقدمة، حديث رقم 17.
110- محمد بن سعد (ت سنة 845 ميلادية)، كتاب الطبقات الكبرى، (بيروت : دار صادر ودار بيروت، 1957) مجلد 2، ص 22.
111- ونشير هنا إلى خمسة فقط من الأمثلة : انظر القرآن، سورة البقرة، 62، وسورة المائدة، 9، وسورة النحل، 97، وسورة الأعراف، 42، وسورة الكهف، 88. وهناك مئات غيرها.
112- القرآن، سورة آل عمران، 195.
113- المصدر نفسه، سورة التوبة، 105.
114- القرآن الكريم، سورة الجمعة، 9 – 10.
115- القرآن، سورة النساء، 101.
116- المصدر نفسه، سورة المزمل، 20.
117- حديث شريف رواه البخاري، كتاب البيوع، حديث رقم 15.

118- المصدر نفسه، كتاب الزكاة، حديث رقم 50 ورقم 53، وكتاب البيوع رقم 15، وكتاب المساقاة رقم 13.
119- القرآن، سورة النحل، 58 – 59.
120- القرآن، سورة التكوير، 8 – 9.
121- المصدر نفسه، سورة النساء، 1.
122- القرآن، سورة البقرة، 228.
123- نفسه، سورة النحل، 97.
124- نفسه، سورة الروم، 21.
125- القرآن، سورة النساء، 19.
126- القرآن، سورة النساء 35.
127- القرآن الكريم، سورة النساء، 19.
128- المصدر نفسه، سورة البقرة، 229 – 230.
129- حديث شريف رواه البخاري، كتاب الأدب، حديث رقم 2، ورقم 3 بنفس المعنى، وانظر صحيح مسلم، كتاب البر، رقم 1.
130- حديث شريف رواه البخاري مرات متعددة : كتاب الحيل رقم 11، كتاب النكاح رقم 41، كتاب الإكراه رقم 12؛ ورواه مسلم أيضاً : كتاب النكاح رقم 64 و 66 – 68.
131- حديث شريف رواه النسائي، سنن النسائي بشرح السيوطي، كتاب النكاح، الجزء السادس، ص 86 – 87.
132- حديث شريف رواه أبو داود، كتاب الطلاق، رقم 19، والدارمي، كتاب الطلاق رقم 15.
133- القرآن، سورة الممتحنة، آية رقم 12.
134- كان ابن الجوزي أكبر وأشهر علماء الحنابلة في عصره، ومن أعظم العلماء في عصره، وقد عاش وتوفي ببغداد سنة 597هـ / 1201م وترك ما يقرب من مائتي مؤلف.
135- القرآن، سورة النحل، 125.
136- القرآن، سورة فصلت، 34.
137- القرآن، سورة البقرة، 190.
138- القرآن، سورة البقرة، 194.
139- القرآن، سورة الأنفال، 55 – 59.
140- القرآن، الأنفال، 61 – 63.
141-القرآن، سورة البقرة، 193.
142- القرآن، سورة النساء، 75.
143- تعرضت الدارونية للكثير من النقد على يد نفر من العلماء الغربيين وذهب بعضهم إلى تفنيد جوانب منها، ولعل آخر ما ظهر بشأنها هو نقد عالم الطبيعيات

البريطاني المشهور Sir Fred Hoyle في كتابة الصادر سنة 1983 في لندن بعنوانThe Intelligent Universe، حيث دحض إمكانية ظهور الحياة بمحض الصدفة وأكد على وجود الخالق، واعتبر مبدأ الـ Natural Selection مسؤولاً عن كثير من الشرور الأخلاقية، ص 11 – 23 و 25 – 52 مثلاً.

144- القرآن، سورة الإسراء، آية 70. وانظر آية 62.

145- المصدر نفسه، سورة غافر، آية 64.

146- المصدر نفسه، سورة التين، آية 4.

147- المصدر نفسه، سورة البقرة، آية 34. وتكررت في سور أخرى.

148- وردت في ذلك آيات وأحاديث كثيرة، انظر القرآن، سورة آل عمران، آية 31.

149- القرآن، سورة البقرة، آية 30. وسورة هود، آية 61.

150- القرآن، سورة الأعراف، 157.

151- القرآن، سورة النساء، 43.

152- القرآن، سورة البقرة، 219.

153- القرآن، سورة المائدة، 90.

154- أخذ العالم يدرك مخاطر الخمر في السنوات الأخيرة على صحة الإنسان وصارت الحكومات تبذل جهوداً مكثفة لمكافحة المسكرات. وحتى في الاتحاد السوفييتي الذي لا يؤمن بالدين قامت السلطات بحملة واسعة في جميع أنحاء الدولة السوفيتية ابتداء من شهر مايو 1985 ضد تعاطي الخمور، وما زالت الحملة مستمرة.

155- القرآن، سورة الأنعام، 162.

156- القرآن، سورة الإسراء، 29.

157- القرآن، سورة الأعراف، 31.

158- المصدر نفسه، سورة الفرقان، 67.

159- حديث نبوي، مسند، الإمام أحمد بن حنبل، جـ 3، ص 199.

160- صحيح مسلم، كتاب العلم، رقم 7.

161- صحيح البخاري، كتاب المغازي، رقم 60؛ كتاب الإيمان، رقم 29؛ كتاب الأدب، رقم 80؛ كتاب العلم، رقم 11.

162- صحيح مسلم، جـ 2، ص 234 و 236.

163- صحيح مسلم، ص 235.

164- نفسه، ص 87؛ وانظر صحيح البخاري، جـ 7، كتاب النكاح، ص 41.

165- القرآن، سورة لقمان، 18، وسورة الإسراء، 37.

166- مسلم، جـ 2، ص 235.

167- صحيح مسلم، جـ 2، ص 40 (كتاب القضاء).

168- انظر ص 190 – 209 و 218 – 221 فيما يلي في هذا الكتاب.

169- القرآن الكريم، سورة البقرة، 177.

170- القرآن الكريم، الأنعام، 151 – 153.
171- نفس المصدر، النحل، 97.

الـقسم الثاني

تطور الحضارة الإسـلامية

الفصل الأولـ

التطور السياسي والتوسع العسكري

لقد اضطررنا إلى الحديث عن التطور السياسي والوضع العسكري في فصل واحد معاً بسبب الارتباط الوثيق بين هاتين الناحيتين وتأثير كل منهما على الأخرى تأثيراً مباشراً. فوفاة رسول الله دون توقع من مجتمع المدينة لغيابه عن الساحة فجأة أحدثت هزة عنيفة تعددت موجاتها وردود فعلها. فقد برزت مشكلة النظام السياسي، وانتقال السلطة، كما تمردت أعداد كبيرة من القبائل العربية على سلطة الحكومة المركزية، وكانت بعض هذه القبائل متصلة بدول مجاورة كبيرة وعلى علاقة متشابكة معها. وكانت هذه الدول تسيطر على بعض القبائل العربية على مشارف شبه جزيرة العرب. وكان بعض هذه القبائل يستوطن مناطق شاسعة بعضها في الجزيرة العربية لكن لها امتداداً واسعاً خارج الحدود المتعارف عليها لشبه الجزيرة، كما كان الحال مع منطقة الاحتكاك مع الدولة الساسانية التي كانت تستعمر العراق، ومع الدولة البيزنطية لتي كانت تستعمر بلاد الشام للحجاز، خاصة أراضي المملكة الأردنية الهاشمية الحديثة. ومن هنا جاء تشابك التطور السياسي والنشاط العسكري، وأصبح الحديث عنهما معاً، وفي آن واحد ضرورة لا مناص منها في هذا الفصل .

التطور السياسي بعد وفاة رسول الله:

واجه المسلمون في المدينة المنورة إثر وفاة رسول الله موقفاً صعباً لم يتوقعوه، ولم يستعدوا له. فالسلطة المركزية التي أقامها رسول الله في إطار الإسلام كانت تجربة جديدة. ولم يكن الرسول قد أوصى بكيفية التصرف عند وفاته، بل ترك الموقف للمسلمين يعالجونه على ضوء ما تعلموه منه من مبادئ، سواء كانت تلك المبادئ مما أنزله الله في القرآن الكريم أو مما علمه المسلمون من مواقف الرسول وتصرفاته وتوجيهاته. لقد عرف المسلمون مبادئ المساواة والشورى، وحصلوا على قدر جيد من الوعي بضرورة التضامن والوحدة وأثر كل ذلك على المجتمع، لكنهم لم يعرفوا أية أشكال من طرق التصرف في مثل الموقف الذي واجههم. لم يكن هناك مجلس تمثيلي، ولم تكن هناك نصوص دستورية محددة كما نعرف اليوم. وهكذا انفتح الباب لمختلف الاجتهادات والتصورات. وكان طبيعياً أن يحدث قدر من الخلاف حول من يشغل منصب القيادة الأول الذي شغر بوفاة الرسول القائد. وقد رأي الأنصار أن من حقهم أن يكون القائد منهم. وحاول بعض ضعاف الإيمان أن يشعلوا نار الفتنة، لكن مناقشة قصيرة في إطار الشعور بالأخوة، وباحترام كل طرف للطرف الآخر أنهت المشكلة ولعل تلك المناقشة لم تستغرق أكثر من نصف ساعة بين المهاجرين من ناحية والأنصار من ناحية أخرى.   وهكذا اجتمع المسلمون حول أبي بكر، أقرب الصحابة إلى نفس رسول الله، وأسبق

من اعتنق الإسلام من الرجال في مكة. ولم يكن أبو بكر من عائلة الرسول من حيث علاقة الدم، لكنه كان صاحبه الأقرب. وكان في الذروة من الإخلاص والإيمان والتقوى، مما لا يتسع المجال للحديث عنه، كما كان يتمتع بقدر كبير من الحكمة.

وفور تسلمه السلطة ألقى أبو بكر خطاباً قصيراً ضمنه منهجه في العمل، كما ضمنه فهمه ورؤيته لمعنى السلطة. وقال أبو بكر بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

" أيها الناس، قد وليت أمركم ولست بخيركم، ولكن نزل القرآن وسنّ النبي صلى الله عليه وسلم السنن فعلمنا فعملنا ؛
إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق. أيها الناس، إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم ".

ولو أننا نقلنا هذا النص إلى لغتنا السياسية الحديثة فسنجد أن أبا بكر رضي الله عنه قال في برنامجه:

(1) إنه واحد من الشعب يتساوى معه أي مواطن من حيث المبدأ
(2) إنـه سيسير حسب ما يقضي وينص عليه الدستور والقانون
(3) إن كل الأفراد أمام القانون سواء
(4) إن سلطته حاكما تنتهي عند حدود الستور والقانون.

وكان أبو بكر تاجراً ينزل إلى السوق ويشتري ويبيع بنفسه، على مستوى بسيط من التجارة في بلدة صغيرة يقل سكانها عن عشرة آلاف. لم تكن هناك شركات كما نعرف اليوم، كما أنه لم يكن لأبي بكر محل أو عمل تجاري محدد كما نعرف اليوم. فلما تولى الخلافة وأخذ يباشر أمور الحكم رآه جماعة من الصحابة وقد نزل إلى السوق. فسألوه : إلى أين ؟ فقال أريد أن أمضي إلى السوق لأكسب قوت عيالي، فأنتم لا تريدون أن تجيعوهم طبعاً. قالوا لا، ولكنك وليت أمر المسلمين، ولا يصح أن تنشغل عن مصالحهم. ومادمت تعمل للمسلمين فإننا نرى أن يخصص لك مرتب من بيت المال. فقرروا له أن يستبدل ثوبيه كلما خلقا، وأن تكون له دابة لركوبه، ومبلغ ينفق منه على عائلته بالقدر الذي كان ينفقه قبل أن يتولى رئاسة الدولة. هكذا ... بهذه البساطة مارس أبو بكر الحكم وهكذا، وبهذه العفوية نظر ذلك المجتمع البسيط إلى قضية الحكم.

وكانت لأبي بكر جارة، امرأة عجوز لا زوج ولا أبناء لديها، وكان أبو بكر يحلب لها شياهها قبل أن يتولى الخلافة، مساعدة لها ورفقاً بها. فلما علمت أنه تسلم مقاليد السلطة قالت : لن يحلب لنا أحد شياهنا بعد اليوم. فعلم أبو بكر، فقال : بل نحلبها لها، وواصل أداء هذه الخدمة الإسلامية الإنسانية.

دام حكم أبي بكر سنتين فقط توفي بعدهما وعمره أكثر من ستين سنة. وفي خلال هذه المدة القصيرة واجهته أحداث ضخام، فقد أعلنت معظم القبائل العربية الثورة على حكومة المدينة؛ وقد ارتد بعضهم عن الإسلام بينما رفض بعضهم أن يؤدي فريضة الزكاة، الضريبة الإسلامية. ولم يبق على الولاء الكامل والواضح سوى المدينة ومكة والطائف ؛ بينما وقفت بعض القوى موقف الترقب لما لمؤشرات ما سيجري ، لكي تحدد خياراتها. وقد مال بعض الصحابة من قادة المجتمع

إلى الملاينة، لكن أبا بكر وقف موقفاً حازماً، وأصرّ على الحصول على الطاعة الكاملة، وعدم التنازل حتى عن عقال بعير، أي الحبل الذي كان يقيد به الجمل، بمعنى أنه لم يكن على استعداد للتنازل حتى عن شيء ذي قيمة تافهة من الحقوق العامة التي فرضها الله وشرعها رسول الله.

وكون أبوبكر الجيوش ووجهها للعصاة حتى أعادهم إلى صوابهم إثر عدد من المعارك الطاحنة المشهورة التي قاد المسلمين فيها نفر من الصحابة كان أبرزهم خالد بن الوليد. وما أن عادت القبائل إلى خضوعها حتى اشتبك المسلمون في حروب طاحنة مع الدولتين المجاورتين، الساسانية والبيزنطية، مما لا يتسع المجال لتفصيله.

ولاية عمر بن الخطاب :

عندما أحس أبو بكر بدنو ساعة وفاته همّه أمر المسلمين، وخاف أن يحدث خلاف على الرئاسة مثلما حدث بعد وفاة رسول الله ؛ ولذلك فكر في حل يجنب المسلمين تجربة قد لا يسيطرون عليها. وقد رأي أن عمر بن الخطاب أصلح شخص لقيادة الدولة في تلك الفترة الحرجة ، لكنه لم يشأ أن يفرض ذلك على المسلمين، وإنما أعلن لهم أنه رشح عمر لوظيفة الخليفة بعده، وطلب رأيهم، فقبلوا ترشيحه. وهكذا تولى عمر السلطة من غير مشكلة إثر وفاة أبي بكر في السنة الثالثة عشرة من الهجرة (634 ميلادية).

تولى عمر الخلافة في ظروف مصيرية، إذ كانت جيوش الإسلام تخوض حرباً هائلة على جبهتين، ضد أكبر دولتين في العالم آنذاك، وهما الدولة الساسانية في العراق وإيران، والدولة البيزنطية. وقد توفي أبو بكر بينما كان المسلمون يحاصرون دمشق. ولم تتوقف المعارك بسبب وفاة الخليفة لأن انتقال السلطة تم بسهولة كما ذكرنا. وقد وجه عمر كل اهتمامه وكل جهده لدعم الجيوش الإسلامية حتى تم النصر على الجبهتين في أقل من سنة.

عهد عمر بن الخطاب :

تعتبر فترة حكم عمر بن الخطاب (13-23هـ) علامة بارزة في التاريخ الإسلامي، لا لشخصية عمر المتميزة فحسب، ولكن بسبب التطورات السياسية والعسكرية والاقتصادية الهائلة التي شهدتها هذه الفترة كذلك. لقد تم في هذه الفترة فتح بلاد الشام ومصر والعراق وفارس، وصارت للعرب المسلمين السيطرة على هذه المناطق الشاسعة، وتدفقت عليهم الثروة من غنائم الحرب حيث سقطت تحت أقدامهم عروش وقوى كانت تحتكر المال والثروات لنفسها. ولنا أن نتصور ضخامة المسؤولية التي وقعت على عاتق الخليفة رئيس الدولة الإسلامية ؛ فقبل أن يتولى الحكم كانت الجزيرة العربية والقبائل العربية هي التي تشكل الدولة، فكان الحكم بسيطاً نسبياً، تكاد تكفيه خبرات الشخص الذي يتولى رئاسة الدولة الناشئة. أما بعد ذلك فقد تطورت الأوضاع بكيفية فاقت كل تصور، واحتاجت طرقاً جديدة في التنظيم والإدارة والقيادة لا عهد للنخبة القيادية الإسلامية بها. ولم تكن هناك مؤسسات أو إدارات تعاون رئيس الدولة، بل كان هو، بشخصه، فقط، الحكم والسلطة، يكلف من يختار من الأفراد بما يرى أنهم يقدرون عليه من الواجبات. فكان يعين قادة الجيوش، وولاة الأقاليم والمناطق، كما يعين القضاة، وجباة الأموال. وهو الذي عليه أن يراقب ويحاسب ويغير. ولا مراء في أن هذه المهام كانت أضخم من أن يتمكن شخص واحد من القيام بها جميعاً. لقد كان ذلك ممكناً عندما كانت حدود الدولة والمجتمع في المدينة ومكة وما حولهما من القبائل

البادية. أما حينما حدثت التطورات الهائلة التي ذكرنا فقد تجاوزت الأعباء والواجبات كل التصورات الفردية.

ومن التجديدات التي أدخلها عمر بن الخطاب أنه أمر بإنشاء سجلات تدون فيها أسماء المسلمين، ويحدد فيها راتب كل منهم. ولم يكن هذا الإجراء معروفاً من قبل عند عرب الجزيرة. كذلك وضع عمر بداية التقويم الإسلامي وحددها بالسنة التي هاجر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، سنة 622 ميلادية التي صارت تقابلها سنة 1 هجرية. وفي الجانب الاقتصادي ميز بين الناس في عطائهم، أي المبالغ التي كانت تدفع لهم، على أساس سبقهم في الإسلام، وإنجازاتهم لخدمة العقيدة والمجتمع والدولة، وكذلك على أساس قرابتهم لرسول الله. ويروي التاريخ أنه عدل عن هذه السياسة في أواخر عهده، ومال إلى المساواة بين الناس في المال على قاعدتين :

(أ) – الإنسان وعمله، أي بمقدار جهده ونشاطه وإنتاجه.
(ب)- الإنسان وحاجته، أي مقدار حاجته الحياتية.

بعض صفات عمر الشخصية :

اتسمت شخصية عمر بالصدق والوضوح والاستقامة والقوة في المواقف، قوة لا تعرف المساومة والتنازل عن المبادئ. وكان يشتد على الأقوياء، ويلين للضعفاء وكان شديد الحساسية لمسؤولياته أمام الله، حتى أنه كان روي عنه القول : " لو أن بغلة عثرت بالعراق لكنت مسؤولاً عنها، لِمَ لْم أُسوّ لها الطريق ". وكان يخرج بشخصه ليلاً يتفقد أحوال الناس في جنبات المدينة وما حولها. وقد سجل التاريخ أنه خرج في إحدى الليالي فمر بقرب خيمة أعرابي، فسمع صوت امرأة تصرخ وتستغيث، بينما الأعرابي مضطجع دون اكتراث. فسأله عما يجري، فأجابه : " امرأة تلد " فأسرع عمر عائداً إلى بيته وطلب من زوجته أن ترافقه، ومر ببيت مال المسلمين فحمل منه كمية من الدقيق على ظهره، كما أخذ مقداراً من السمن وسار مسرعاً إلى خيمة الأعرابي ؛ ودخلت زوجة الخليفة لتساعد المرأة في مخاضها، بينما انشغل عمر بوقد النار وطبخ الدقيق مع السمن ليصنع طعاماً تأكله المرأة بعد أن تلد. كل ذلك والأعرابي جالس دون أن يبدي اكتراثا ظاهرا بما يجري. وبعد أن تمت الولادة سمع الأعرابي زوجة الخليفة تقول : " بشر صاحبك بغلام يا أمير المؤمنين ." فارتاع البدوي. لكن الخليفة خفف عنه وطمأنه وانصرف مع زوجته.

وفي ليلة أخرى كان عمر يمر بجانب أحد البيوت فسمع امرأة تأمر ابنتها بأن تخلط الحليب بالماء تهيئة لتوزيعه في الصباح على من المشترين ؛ لكن البنت ردت على إمها بأن الخليفة عمر نهى عن خلط الحليب بالماء. فقالت الأم إن عمر لا يرانا ولا يعرف إذا كنا قد خلطنا الحليب أم لا. فردت البنت: " ولكن الله، ربنا ورب عمر، هو الذي يرانا ". فأعجب عمر بهذه البنت ولم يلبث أن خطبها لأحد أولاده وزوجه إياها.

وَمر في ليلة بجانب بيت فسمع ضجة عرف منها أن في البيت مجموعة من السكارى. فتسلق الجدار ودخل عليهم فجأة وأراد أن يأخذهم للعقاب. فوقف أحدهم وقاله له إذا كنا نحن ارتكبنا ذنباً بشرب الخمر فإنك ارتكبت ذنبين : فالله يقول (ولا تتجسسوا)، وأنت تجسست، ويقول : (وأتوا البيوت من أبوابها)، وأنت تسلقت ودخلت دون استئذان. فتركهم الخليفة وانسحب.

هذه لمحات قليلة لعلها تعطي انطباعاً عن شخصية عمر، وعن الظروف التي تطور فيها المجتمع الإسلامي، ولا يتسع المجال لإطالة أكثر. ولكن لعل القارئ يتساءل: لماذا اخترنا الحديث عن عمر دون غيره ؟ الحقيقة أن عمر كان واحداً من النخبة التي رباها محمد رسول الله والتي يتقارب أكثر افرادها في درجة إخلاصهم وولائهم لله وللمبادئ ولمصلحة الأمة والمجتمع. لكن عمر تميز بأنه تولى الخلافة، رئاسة الدولة، وأن فترة حكمه استمرت عشر سنوات شهدت تطورات كبرى، بينما لم تدم خلافة سلفه أبي بكر سوى سنتين في بداية مرحلة التطور.

وبعد عشر سنوات من بداية حكمه تعرض عمر للاغتيال وهو يصلي ويؤم الناس في المسجد، وكان الذي اغتاله فارسي ممن أسروا في المعارك التي دارت بين المسلمين والساسانيين وانتهت بانهيار الإمبراطورية الساسانية. وبينما كان عمر يصارع الموت ويعاني من أثر الجراح التي أصابته كان همه الأول أن يرتب أمور المسلمين من بعده. فأمر بتشكيل مجلس من ستة أشخاص لاختيار الخليفة من بعده. وقد رفض أن يتولى ابنه الخلافة. وبعد مشاورات مطولة مع جميع الشخصيات النابهة والقيادية، وهي مشاورات لم تستثن منها النساء، تسلم عثمان بن عفان الخلافة بعد أيام من اغتيال عمر.

خلافة عثمان بن عفان:

كان عثمان (رضي الله عنه) من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أوائل الذين اعتنقوا الإسلام . وكان من كبار الأثرياء قبل إسلامه، وقد ضحى وتطوع بتقديم الكثير من ماله في سبيل الإسلام، من ذلك تكلفه بتجهيز " جيش العسرة " وشراؤه بئراً ووقفها للمسلمين، وأمثلة كثيرة أخرى. وقد استمرت حركة الفتح في عهد عثمان شرقاً في آسيا وغرباً في شمال أفريقيا.

وظل عثمان في الحكم اثنتي عشرة سنة تقريباً (24-35هـ / 644-656م) انتهت بقتله في ثورة داخلية. ولقد اختلف المؤرخون والمحللون والمفكرون المسلمون في حكمهم على الأحداث التي أدت إلى تلك الثورة، وإلى قتل الخليفة، وذلك نظراً لمكانة عثمان، وسابقته في الإسلام، وما عرف عنه من إخلاص وتضحيات بالنفس والمال. ولا يتسع المجال هنا للخوض في هذا الموضوع المتشعب [1]، غير أنني سأحاول تلخيص الموقف في نقاط قليلة :

1- لقد تولى عثمان الخلافة وسنه اثنان وسبعون عاماً ؛ وعند وفاته كانت عمره أكثر أربعا وثمانين سنة. ولا مراء في أن الأغلبية الساحقة من الناس تكون في حالة ضعف جسمي بجانب ضعف في القدرة على المتابعة والملاحظة والتركيز المدقق للمسائل التي تهمهم عندما يبلغون هذه السن. ولا نعرف – على وجه اليقين – إن كان عثمان (رضي الله عنه) قد عاش هذه الحالة، لكنها تظل احتمالاً قابلاً للحدوث.

2- حاول أقارب عثمان الاستفادة من وجوده على رأس الدولة، لا سيما وأن أكثرهم كانوا ممن حاربوا الإسلام إلى أن اضطروا إلى الاستسلام عند فتح مكة، وبذلك فقدوا الحق في المشاركة في السلطة والمنافع الاقتصادية على قدم المساواة مع أولئك الذين اعتنقوا

---

1 للإطلاع على بحث وتحليل واسع بالنسبة لهذا الموضوع ، أنظر : عبدالله أبو عزة ، ***إنهيار الحضارة العربية الإسلامية وسبيل النهوض*** ، الطبعة الأولى ، 2008 ، ص 27 - 106 .

الإسلام مبكراً، وعملوا له بإخلاص، وضحوا في سبيله . ومع وجود عثمان في منصب الخلافة اعتقد بعض أقاربه أن الفرصة مؤاتية لهم ، فاستغلوها بهدوء ، غير أن المشاكل بدأت تواجه سلطة الخليفة وتواجه المجتمع الذي لم تكن له خبرة بمواجهة تلك الحالات.

3- اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، وحدوث تطورات اقتصادية واجتماعية هائلة جعلت من المستحيل على فرد واحد، مهما كانت قوته الجسمية والذهنية، أن يسيطر على أزمّة الأمور كلها، وأن يسيرها بطريقة صحيحة. وتشتد المشكلة عندما نتذكر أن المجتمع لم يعرف المؤسسات الإدارية والتنظيمية الكبيرة، ولم يكن يملك خبرة أو تقاليد في الحكم يمكن أن تلبي حاجات الأوضاع التي استجدت.

4- لقد ظهرت قوى جديدة بين العرب المسلمين لم تكن لها سابقة في الإسلام، بل إنها وقفت منه موقفاً عدائياً في بادئ الأمر، مثل كثير من قبائل وسط وشرق الجزيرة العربية، التي استبعدت من جيوش الفتح الأولى بسبب دورها في حركة الردة(172). لكن هذه القوى أصبحت تشارك في الغزوات والحروب منذ أيام الخليفة عمر، وأصبح الكثيرون من زعمائها يتطلعون إلى نصيب أكبر من السلطة والثروة ، ولم يترددوا في الانحياز لمن يمنيهم ويعطيهم ويشبع أطماعهم.

هذه العوامل مجتمعة هي – في رأيي – التي تفسر ما حدث من ثورة ضد الخليفة، حيث حاصر الثائرون بيته وقتلوه ؛ وقد جاء هؤلاء الثائرون أصلاً من العراق ومن مصر. ولا مراء في أن هذه الحادثة قد تركت آثاراً وذيولاً استمرت قروناً طويلة، وساهمت في تشكيل مسار الأحداث الكبرى في تاريخ المسلمين. لقد جاء الثائرون يحتجون على أمور محددة شكوا منها وأرادوا تغييرها، وكانت الاستجابة فيها قدر من الإبهام، وقدر من تدخل بعض أقارب الخليفة ، وتكاثرت وتراكمت الشكوك ، وانتهى الأمر بالمعارضين إلى مطالبة الخليفة بالتخلي عن منصبه، لكنه رفض. ولم يكن لدى الخليفة فرق أمنية، ولا حتى رجال شرطة ولقد أبدى عدد من زعماء المسلمين وكبار الصحابة في المدينة استعداهم للدفاع عنه، لكنه لم يشأ أن تسيل الدماء بسببه؛ ولعله ظن أن الأمر لن يصل إلى حد القتل ، وهوجم في داره وقضى شهيدا.

خلافة علي بن أبي طالب :

وعندما وقعت الواقعة، وسقط عثمان مضرجاً بدمه، تطلع المسلمون إلى رجل يتولى القيادة في هذه المرحلة الحرجة، فاختاروا علياً بن أبي طالب (رضي الله عنه). وعلي هو ابن عم رسول الله، وقد أسلم وهو صبي في بداية عهد الدعوة في مكة، وعاش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته، ثم تزوج ابنته عندما بلغ سن الرجولة. وقد اشتهر بالشجاعة والقوة في الحرب، كما عرف عنه الصراحة في الحق، وعدم السكوت عن أي انحراف، مهما كانت الظروف، فضلاً عن ميله إلى حياة الزهد ، كما أنه اشتهر بالعلم والتقوى.

تولى علي الخلافة سنة 35هـ / 656م في ظروف بالغة الدقة والتوتر. فقد قام أقارب عثمان يطالبون بالاقتصاص من قتلته. وتزعم هذه الحركة معاوية بن أبي سفيان، والي الشام القوي. ولم

يكن الذين عارضوا بعض سياسات الخليفة الخليفة الثالث مجموعة صغيرة تعد بالآحاد أو العشرات، بل كانوا ألوفا من الحجاز ومصر والعراق؛ بينما كان عدد الذين حاصروا دار الخليفة يعدون بالمئات. أما الذين اشتركوا في قتل الخليفة فقد كانوا ثلاثة على الأرجح ؛ وقد قتل المدافعون عن أمير المؤمنين عثمان اثنين منهم قبل أن يبرحوا الدار، ثم قتل الثالث بعد أشهر أو أكثر قليلا من عودته إلى مصر. ولم يكن من السهل ولا من العدل اتهام كل المعارضين ولا كل الذين شاركوا في حصار دار عثمان رضي الله عنه، لأن المواقف والخلافات كانت في غاية التعقيد، سيما عندما يتعلق الأمر بتجريم أي شخص وإنزال العقوبة به. ولأن زعامة العشيرة الأموية ساهمت بالدور الأكبر في إشعال الصراع في إطار مساعيهم وخطتهم لاغتصاب الخلافة فإن القضية تجاوزت مجرد تهمة بجريمة قتل يتلوها محاكمة المتهم ومعاقبته. وزاد من تردي الموقف أن معاوية اتخذ من قضية المطالبة بثار عثمان طريقاً للوصول إلى منصب الخلافة. ولم يكن لمعاوية سابقة في الإسلام، بل كان أبوه زعيم قريش الذي قادها في معاركها ضد رسول الله، وظل على عدائه وخصومته حتى تم للمسلمين فتح مكة، وعند ذلك اضطر إلى اعتناق الإسلام ؛ ولذلك فإن ابنه لم يكن ممن يرشح لمنصب الخلافة.

غير أن معاوية استعمل ذكاءه في إدارة معركة الصراع سياسيا، ووظف القوة الاقتصادية للإقليم الذي كان يحكمه – إذ كان والياً على الشام منذ أيام عمر – كما استغل طمع زعماء القبائل في المال، وسار نحو هدفه بدهاء وبخطوات متئدة. أما علي فقد أستند إلى أهليته للخلافة، وشرعية مركزه، وتقدير المسلمين لسابق جهاده، ولمناقبه الشخصية وأخلاقه الإسلامية العالية. ولم يكن لديه استعداد لأي قدر من المساومة والمرونة مع المنحرفين. وقد اضطر إلى اللجوء إلى القوة لإخضاع والي الشام، وأحرز انتصارات أولية، لكن الخلاف نشب في صفوف أنصاره بسبب إسراف بعض زعمائهم في تشددهم، وشق هؤلاء عصا الطاعة، وخرجوا من صفوف جيشه، فاضطر لمحاربتهم وطاردهم حتى تفرقوا. وقد أعطت هذه الحادثة معاوية أملاً جديداً.

ثم إن الخوارج، الذين انشقوا عن علي، دبروا مؤامرة لاغتيال علي ومعاوية كليهما، ونجحوا في اغتيال علي وهو يؤدي الصلاة في المسجد سنة 40 هـ / 661م بينما نجا معاوية من الاغتيال، وبذلك خلا له الجو ففرض نفسه خليفة بالقوة لا بالاختيار. وكان المجتمع الإسلامي الناشئ قد تعب من الحرب الأهلية التي استمرت خمس سنوات، ومالت أكثريته إلى وقف نزيف الدم، حتى أن الحسن بن علي اختار أن يتوقف عن مواصلة الصراع، وسلم لمعاوية بالخلافة. وبذلك انتهت المرحلة الأولى من مراحل التطور السياسي، وهي التي عرفت بعهد الخلفاء الراشدين، وامتدت ثلاثين سنة تقريباً. ويعتقد المسلمون أن تلك الفترة مثلت روح الإسلام أصدق تمثيل، فقد كانت تالية لفترة رسول الله، قريبة من الأيام التي تتابع فيها نزول القرآن، وحكمتها توجيهات رسول الله. وكان في المجتمع عدد كبير – نسبياً – من تلاميذ محمد المباشرين الذين رباهم على يده والذين شاركوه الجهاد منذ صاح بندائه الأول داعياً إلى الإسلام. لقد ساد تسليم عام بالخضوع للمبادئ والولاء التام لها. ولقد كان الخليفة خادماً للمجتمع، ساهراً على راحته، لا يتميز عن أفراده، ولا يستطيع أن يدعي أنه يستند إلى قبيلة أو عصبه أو مؤيدين، وإنما كل اعتماده على أنه يحكم باسم الله وباسم الإسلام ، وبموافقة المسلمين ورضاهم ، ومن هذا الأصل يستمد سلطته. ونتذكر هنا قوله الخليفة الأول أبي بكر عندما تولى الخلافة : " أيها الناس، وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم ". ونتذكر كذلك أن عمر بن الخطاب، الخليفة الثاني، وقف يوماً في المسجد يخاطب عامة المسلمين ويقول لهم : " من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه ". فقام رجل من عامة المسلمين ورد عليه قائلاً : " لو رأينا فيك

اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ". فعلق عمر على ذلك بقوله : " الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه ". لم يكن الولاء في هذه الفترة لشخص أو لأسرة أو قبيلة، بل كان الولاء لله، للإسلام، للقيم والمبادئ التي أنزلها الله لعباده، وبشر بها رسوله، وربى عليها أتباعه. انتهت هذه الفترة باغتيال علي ووصول معاوية بن أبي سفيان إلى منصب الخلافة.

الفتوح الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين:

ذكرنا – في فصل سابق – أنه قد تمت للمسلمين السيطرة على شبه جزيرة العرب قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما أشرنا إلى مقدمات الصدام بين الدولة الإسلامية الناشئة، من ناحية، وقوات الدولة البيزنطية التي كانت تحكم بلاد الشام، ومعها حلفاؤها، من ناحية أخرى. والحقيقة أن سيطرة قوات المسلمين التي وجهها رسول الله إلى البحرين وعمان في شرق شبه الجزيرة العربية على تلك النواحي قد خلقت أسباباً لتوتر ومقدمات للصدام بين قوة الإسلام المندفعة وقوة الدولة الساسانية ذات التاريخ الإمبراطوري والعسكري الاستعماري الطويل. ذلك أن بعض الحاميات الإيرانية كانت تتمركز في نقاط من سواحل البحرين وعمان عند ظهور الإسلام، وقد تمت هزيمتها وجلاؤها. كذلك فإن الإمبراطور الساساني كسرى (خسرو) مزق الخطاب الذي بعثه إليه رسول الله. وعندما نشبت حروب الردة في شرق ووسط شبه الجزيرة العربية لم تكن الأصابع الفارسية بعيدة عن تحريكها . لقد كانت مملكة المناذرة العربية في جنوب العراق، وعاصمتها الحيرة ، دويلة تابعة للإمبراطورية الفارسية أداة للسيطرة على قبائل شرق الجزيرة العربية ولتأمين تجارة الدولة الساسانية وتجسيد نفوذها السياسي في المنطقة. وبجانب ذلك كانت قبيلة تميم من أولى القبائل، وأهم القبائل التي شاركت في حركة الردة ؛ وعلى ضوء علاقتها الوثيقة مع الساسانيين – من ظهور قبل الإسلام – فإن دورها في الردة يشير إلى تحريض وتوجيه من قبل حكام الإمبراطورية الساسانية. والأهم من ذلك أن أسباب العداء كانت موجودة، متمثلة في حماسة المسلمين في نشر عقيدتهم الجديدة عن طريق الدعوة وتصديهم للنفوذ الفارسي في سواحل الجزيرة، ورغبة الفرس – من ناحية أخرى - في استمرار نفوذهم ذاك . وقد كان ظهور الإسلام وانطلاقته القوية خطرا على ذلك النفوذ، وعلى استمرار الوضع كما كان عليه في الجاهلية .

الحملة على جنوب العراق :

بدأ الصدام بمبادرة من قبيلة بني شيبان العربية التي أرسل زعيمها المثنى بن حارثة رسالة إلى المدينة يطلب توليته على ناحيته ليقاتل الفرس. وما أن نجحت جيوش المدينة في القضاء على المرتدين حتى وجه الخليفة أبو بكر قوة عسكرية بقيادة خالد بن الوليد إلى منطقة الحيرة، جنوب العراق، وطلب من المثنى بن حارثة أن ينضم إليها ورجاله، ويكون تحت إمرة خالد، وذلك سنة 12هـ / 633م. وعلى الرغم من أن مكث خالد في العراق لم يستمر طويلا ، حيث تلقى أمراً بالتوجه إلى الشام في السنة التالية، مصطحباً معه نصف قواته، ومخلفاً النصف الآخر في جنوب العراق، وعلى الرغم من اضطرار المسلمين إلى الجلاء عن المناطق التي سيطروا عليها في تلك النواحي فإن ، عملية فتح العراق استمرت في مد وجزر إلى أن تم تحرير بلاد الرافدين من السيطرة الساسانية ؛ وتواصل القتال بعد ذلك حتى تم القضاء على الإمبراطورية الساسانية في سلسلة من المعارك الطاحنة التي تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة. وكانت من أهم هذه المعارك معركة الجسر سنة 14هـ / 634م التي استشهد فيها قائد المسلمين تحت أقدام أحد الفيلة التي جعلها الفرس في

مقدمة قواتهم كالدبابات في الحروب الحديثة، وفقد المسلمون في المعركة حوالي أربعة آلاف واضطروا إلى الانسحاب ؛ ثم معركة القادسية سنة 16هـ / 637م ، وهي التي استمرت ثلاثة أيام قضي فيها على الجيش الساساني ومزق شر ممزق. وبعد أربع سنوات وقعت المعركة الفاصلة الأخيرة في نهاوند، ولم تقم بعدها للدولة الساسانية قائمة ؛ وقد هرب الإمبراطور يزدجرد وطورد وقتل في الري سنة 31هـ / 651م في أقاصي شرق إيران. وبذلك دخلت إيران كلها في إطار حركة ودولة الإسلام المتنامية ، قبل نهاية عهد الخليفة الثالث أواخر سنة 23هـ .

فتح بلاد الشام (سوريا الطبيعية):

وفي نفس السنة التي وجه فيها الخليفة أبو بكر خالد بن الوليد إلى العراق فقد وجه قوة أخرى إلى بلاد الشام بقيادة خالد بن سعيد بن العاص، ورغم إخفاقها فقد أتبعها بثلاثة أو أربعة جيوش أخرى في نفس السنة تقريباً ما لبثت أن نجحت في هزيمة القوات البيزنطية وحلفائها من بعض القبائل العربية في عدد من المعارك بين سنتي 12- 20هـ / 633 - 640م. ومثلت معركة اليرموك (15هـ / 636م) ضربة قاضية حيث تم سحق الجيش البيزنطي الذي بذل الإمبراطور البيزنطي هرقل كل جهده في جمعه. وبعد هذه المعركة غادر هرقل بلاد الشام نهائياً، وامتدت حدود الدولة الإسلامية إلى السفوح الجنوبية لجبال طورس.

فـتــح مــصــر:

وبعد ما يقرب من أربع سنوات زحفت قوة إسلامية كانت مرابطة في فلسطين بقيادة عمرو بن العاص نحو مصر عبر صحراء سيناء سنة 19هـ / 640م. وفي نفس السنة استولت على حصن الفرما ، قرب السويس ؛ وفي السنة التالية هزمت الحامية البيزنطية المرابطة في موقع القاهرة الحالية، وما وافت سنة 21هـ / 642م حتى كانت مدينة الإسكندرية قد استسلمت أيضاً. وكانت الإسكندرية وقتها أعظم مدينة في العالم بعد القسطنطينية (استنبول) عاصمة الدولة البيزنطية. وقد حاول البيزنطيون استرجاع مصر عن طريق البحر أكثر من مرة، ونجحوا فعلاً في السيطرة الإسكندرية لفترة قصيرة، ولكن المسلمين سرعان ما طردوهم منها ، وأتموا السيطرة على الأراضي المصرية حتى أقاصي مصر العليا، كما استولوا على إقليم برقة في ليبيا الحالية. ولقد قام المسلمون بعدد من الحملات على أرض ليبيا الحديثة فوْرَ إتمام سيطرتهم على مصر سنة 22هـ / 643م، وأنزلوا عدة هزائم بالحاميات البيزنطية. لكن سيطرتهم على هذه المنطقة لم تكتمل في عهد الخلفاء الراشدين. وعلى الرغم من عدم وجود قوة بحرية للمسلمين عند بداية حركة الفتح فقد اضطروا لمواجهة القوة البحرية البيزنطية وأنشأوا أسطولاً ما لبث أن هزم الأسطول البيزنطي وأنهى سيطرته على البحر المتوسط، وذلك في معركة ذات الصواري البحرية سنة 34هـ.

وبمقتل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) واندلاع الصراع الداخلي سنة 35هـ / 655م توقفت حركة الفتح والتوسع وظلت متوقفة إلى أن استقر وضع الأسرة الأموية في حكم الدولة الإسلامية.

كيف نجحت حركة الفتح الإسلامي :

لقد حيرت السرعة التي تمت بها حركة الفتح الإسلامي المؤرخين في محاولاتهم لتفسيرها. فهؤلاء العرب الذين كانوا خاملين في صحرائهم الواسعة يتحولون إلى قوة عالمية خلال عشرين عاماً ويزيلون واحدة من أكبر إمبراطوريتين عرفهما العالم وقتئذ ويستولون على أراضيها حتى نهر جيحون (أمودريا)، بينما ينزلون الهزائم بالإمبراطورية الأخرى وينتزعون منها أهم أقاليمها، بلاد الشام ومصر، ويواصلون الهجوم على بقية قواعدها في آسيا الصغرى وفي شمال أفريقيا حتى الأراضي التونسية الحالية، وينشئون في هذه الأقاليم التي انتزعوها نظاماً وحكماً مستقراً، كل ذلك في أقل من عشرين سنة. ثم يصمد هذا الفتح بعد ذلك رغم كل الاضطرابات والتقلبات التي عرفها تاريخ المنطقة وتزدهر فيه حضارة من أعظم الحضارات التي عرفها تاريخ البشرية من قبل**!** إن المجال لا يتسع – هنا – لتحليل هذه الظاهرة، أو استعراض آراء المؤرخين المتعددة والمتعارضة في تفسيرها، ولكنني سأكتفي بذكر أهم الأسباب التي تفسر هذا النجاح، حسب رأيي.

أولاً : لقد أعطى الإسلام عرب الجزيرة عقيدة حولتهم إلى أمة تشعر بوحدتها، وتشعر بأن لها رسالة عليها واجب نشرها، وتتوق حماسة للتضحية في سبيلها، وتشعر أن عليها أن تلتزم بالعدل والنظام والتسامح.

ثانياً :كانت كل من الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية قد أنهكتها الخلافات الداخلية وأضعفت تماسك شعوبها.

ثالثاً : كان سكان بلاد الشام ومصر ناقمين على الحكم البيزنطي، فرحبوا بقدوم الفاتحين المسلمين.

رابعاً : كانت الحروب الطويلة بين الدولتين البيزنطية والساسانية قد أنهكت قواهما العسكرية.

الدولة الأموية
41 – 132 هـ / 661 – 750 م

أصبح معاوية بن أبي سفيان خليفة دون منازع. وقد اختار أن يظل في دمشق، وبذلك انتقلت عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة المنورة في إقليم الحجاز في غرب شبه الجزيرة العربية، إلى بيئة جديدة. ودمشق هي عاصمة الجمهورية العربية السورية، الآن، وتعتبر واحدة من أقدم مدن العالم. وقد امتدت خلافة معاوية من سنة 41هـ / 661م إلى سنة 60هـ / 680م. أي أنه استمر في الحكم عشرين عاماً تقريباً. وكان قبل ذلك والياً على بعض مناطق سورية، ثم على سورية كلها لما يقرب من عشرين سنة أخرى. وكانت حركة الفتح قد توقفت منذ أن ثار الثائرون على الخليفة عثمان، واستمر توقفها إلى تسلم معاوية الخلافة واستقرت له الأمور. وهنا استؤنفت حركة الفتح من جديد. وكان حكم معاوية مختلفاً في طبيعته؛ كان حكم ملك انتزع السلطة بذكائه وصبره وسياسته، دون التقيد بالقيم والمبادئ الإسلامية، بل اهتدى بتقاليد الصراع القبلي الجاهلي. لقد اتبع أسلوباً براغماتياً، إن جازت لنا استعارة هذا التعبير الغربي الحديث. ولذلك اعتبر المسلمون بمختلف اتجاهاتهم أن حكم معاوية وحكم بني أمية، لم يكن خلافة، وإنما كان ملكاً عضوضاً. ومما يصور هذه الصفة وهذا الإسم للخلافة الأمويين حديث منسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تناقلته الأجيال الإسلامية منذ ذلك العهد إلى الآن ؛ ونصه : " الخلافة بعدي ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك " [2](173).

لقد استعمل معاوية المال واشترى به ولاء زعماء القبائل. وكان يقدم الوسائل اللينة على العنف، وينسب إليه أنه كان يقول : " أنا لا أستعمل سيفي في الموقف الذي يكفيني فيه استعمال السوط ". ويؤثر عنه أيضاً قوله : " لو كانت بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت، فإن شدوها أرخيتها، وإن أرخوها شددتها ". وما زال الناس في عامة البلاد العربية يستدعون هذا التعبير لوصف أسلوب الملاينة (لحفظ شعرة معاوية ، أو لقطع شعرة معاوية). وبعد أن وطد سلطته عمل على أن يظل الحكم في أسرته من بعده. وقبل أن تحضره الوفاة ببضع سنوات أعلن ابنه يزيد وريثاً للخلافة وليا للعهد، لكنه حرص على مراعاة مبدأ الشورى من الناحية الشكلية، فاستعمل كل وسائل الضغط والإغراء والتهديد لحمل الزعماء وذوي الرأي على أن يبايعوا ابنه يزيد خليفة من بعده.

وهكذا حدث أول انحراف عن مبدأ إسلامي أساسي ، وهو مبدأ الشورى، أي اختيار الحاكم برأي ورضا المجتمع، والتزام الحاكم بمشورة ذوي الرأي. ومما يؤسف له أن هذا الانحراف استمر في ما بعد. ومع ذلك فقد ظل المجتمع حريصاً على أكثر القيم والممارسات الإسلامية الأخرى بشكل عام يعيشها قولاً وعملاً ، إلى حد كبير . ومما ساعد على ذلك قرب العهد بعصر رسول الله، ووجود عدد كبير من صحابته ومن تلامذتهم المباشرين.

ولم يرضخ المسلمون بسهولة، فانفجرت المعارضة بعد ولاية يزيد بن معاوية للخلافة، وتعرضت المدينة ، ومكة لحملات أرسلت من دمشق ، وقد استبيحت مدينة رسول الله صلى الله عليه

---

[2] - أحمد بن حنبل ، ***المسند*** ، مجلد 5 ، ص 220 -221 ؛ ***سنن الترمذي*** ، باب الفتن ، 48 .

وسلم، وقتل في الحملة أعداد كبيرة من الصحابة وأبناء الصحابة، مع تجاوزات أخرى شنيعة لا يتسع المجال للحديث عنها . وكان من أوائل من تزعم المعارضة ضد يزيد بن معاوية، الحسين بن علي بن أبي طالب، حفيد رسول الله وابن ابنته فاطمة. وبينما كان الحسين متجها إلى الكوفة بعد أن اضطر لمغادرة المدينة خوفا من القتل اعترضته قوة أموية ، فقتل في معركة غير متكافئة ؛ وقتل معه كثيرون من أفراد أسرته ، وكان لحادث قتله وقع الفاجعة على المسلمين. وتزعم الثورة بعد الحسين عبد الله بن الزبير الذي نجح في مد نفوذه إلى معظم أراضي الدولة الإسلامية. لكن ولاء قبائل بلاد الشام لبني أمية وهزيمة عبد الله بن الزبير وقتله بعد أن حاصر جيش أموية مكة ودكها بالمنجنيقا – مدفعية ذلك العصر – وبذك قضي على خلافة ابن الزبير ، وإنهي الصراع لصالح الأسرة الأموية بقيادة عبدالملك بن مروان .

وقد توارث أفراد الأسرة المروانية الأموية الحكم حتى سنة 132هـ / 750م حيث استطاعت الثورة التي تزعمها العباسيون أن تعصف بالحكم الأموي وتقضي على الأسرة الأموية. ولا مراء في أنه كانت للأمويين إنجازات كبيرة في الجوانب العسكرية والحضارية ، لكن سياستهم انتهت بهم إلى احتكار السلطة والثروة، هم وأتباعهم . غير أن الصراع على منصب الخلافة في داخل العشيرة الأموية كان من أهم أسباب سقوط الحكم الأموي سنة 132هـ/750م.

التوسع العسكري في العهد الأموي:

توقفت حركة الفتح الإسلامي إثر مقتل الخليفة الثاني سنة 35هـ. وبعد أن استقر الحكم لبني أمية استؤنفت حركة الفتح بالتدريج. ففي المشرق واصل المسلمون تحركاتهم العسكرية في ما وراء النهر في ما يعرف الآن بأفغانستان وتركستان وأوزبكستان وكازاخستان، وغيرها مما يعرف الآن بجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة، فاستولوا على بخارى، وسمرقند، والشاش (طشقند) وفرغانة. ثم ضموا كاشغر في تركستان الصينية إلى أراضيهم، وأخذ الإسلام ينتشر بسرعة بين شعوب هذه النوحي. وما لبثت بخارى وخوارزم وسمرقند أن أضحت مراكز للثقافة الإسلامية، وقد تمت هذه الفتوحات قبل نهاية العصر الأموي، بل قبل نهاية القرن الهجري الأول.

وتكرر إرسال الحملات إلى حوض السند إلى أن تمكنت حملة من ستة آلاف مقاتل قادها محمد بن القاسم الثقفي في سنة 92هـ / 710م من السيطرة على إقليم السند والحوض الأدنى لنهر الإندوس، وحيدر أباد، والقسم الجنوبي من إقليم البنجاب. أما بقية أنحاء الهند فقد جاءها الفتح الإسلامي من الشمال على يد الخوارزميين والمغول المسلمين بعد ذلك ببضعة قرون، مما سنشير إليه في ما بعد.

كذلك استؤنفت حركة الفتح في شمال أفريقيا. وقد استغرق الفتح هنا مدة أطول نسبياً حيث كان على العرب المسلمين أن يقهروا البيزنطيين ويزيلوا قواعدهم الموزعة على السواحل الجنوبية للبحر المتوسط، ثم بعد ذلك أن يقضوا على مقاومة البربر الشديدي المراس. وكان القائد عقبة بن نافع الفهري قد أنشأ قاعدة عسكرية في أراضي تونس الحالية، حيث بنى القيروان سنة 50هـ / 670م، غير أن الفتح الإسلامي للمغرب لم يستقر إلا بعد ولاية القائد حسان بن النعمان الغساني 74-80هـ / 693 – 699م. وقد تمكن موسى بن نصير – الذي خلف حسان – من الاستيلاء على طنجة والوصول إلى المحيط الأطلسي.

وبعد أن تم للمسلمين فتح شمال أفريقيا جذبتهم الأحوال المضطربة في أسبانيا وقد بدأ غزوها سنة 92هـ / 711م حيث عبرت إليها قوة بقيادة طارق بن زيادة عند المضيق الذي سمي منذئذ باسمه Gibraltar وتمكن المسلمون بقيادة طارق من هزيمة القوط الغربيين وقتل ملكهم لذريق (رودريك). وبذلك انفتح الطريق أمامهم لإخضاع بقية إسبانيا. ثم جاءت قوة إسلامية أخرى بقيادة موسى بن نصير، وتم إخضاع إسبانيا كلها في ثلاث سنوات. ومع استمرار الاحتكاك مع الفرنجة في الشمال فقد تقدمت قوات المسلمين في فرنسا الحالية حتى وصلت سنة 114هـ / 732م إلى موضع بين مدينتي تور وبواتييه بالقرب من باريس. وهناك جرت معركة هائلة كان النصر فيها في جانب الفرنجة بقيادة شارل مارتل واستشهد عدد كبير من المسلمين بما في ذلك قائدهم عبد الرحمن الغافقي.

الدولة العباسية
العصر العباسي الأول
132 – 247 هـ / 750 – 861 م

قاد العباسيون الثورة على الأمويين. وكانت أغلبية المسلمين تشكو ظلم بني أمية، وتتطلع إلى العدالة. وانتهز كبار العشيرة العباسية الفرصة فأسسوا حركة معارضة منظمة وسرية قبل سقوط دولة بني أميـة بأكثر من ثلاثة عقود، عند نهاية القرن الهجري الأول. والعباسيون هم أحفاد العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله، وإليه ينسبون. وقد تولوا قيادة الحركة الثورية بتنظيماتها السرية التي اتخذت من إقليم خراسان – شرق إيران - منطلقا لها. وما دام الإسلام دين العدل والمساواة فقد رجا الثائرون استعادة العدل عن طريق إزاحة الأسرة الأموية وتولية أمور الحكم إلى العباسيين الذين استخدموا كل وسائل الدعاية الممكنة للتحريض ضد الظلم القائم والتبشير بعدل الإسلام على أيدي "آل محمد" ، ورفعوا شعار "الرضا من آل محمد" ، ولم تظهر الصفة العباسية للحركة إلا بعد انتصارها ؛ وبذلك استبعدوا أبناء عمومتهم العلويين ، أحفاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ونجحت "الثورة العباسية" وتم القضاء على الحكم الأموي كما ذكرنا.

وقامت الخلافة العباسية وسقط رموز الطغيان والفساد والترف السابقون، واستولى العباسيون على السلطة، كما استولوا على الأموال والممتلكات التي كانت لأسلافهم. ومضت الشهور والسنون، وشهد المجتمع الإسلامي تغييرات كبيرة لعل من أهمها اندماج الملايين التي اهتدت إلى الإسلام من أهل البلاد المفتوحة في جسم المجتمع على قدم المساواة ففي العهد الأموي كان العرب مميزين ويشكلون أرستقراطية حاكمة وعسكرية. وكان هذا طبيعياً في بداية عهد الفتح. ثم أخذ أهل الأقاليم المفتوحة يتحولون إلى الإسلام، وتكاثرت أعدادهم بتوالي السنين. وكلما اشتد فساد الحكم الأموي وانتشر الخلل الاقتصادي شعر هؤلاء بأنهم أكثر الضحايا تضرراً. فلما ظهرت الحركة السرية تحت شعار "الرضا من آل محمد" انضم الناقمون والمعارضون إليها، وشاركوا فيها بقوة، وجنوا شيئاً من مغانمها مع العرب الذين ناصروها، وأصبحوا مواطنين على قدم المساواة مع إخوانهم العرب، في ظل أخوة الإسلام التي لا تفرق بين الأجناس والألوان.

ثم حدثت انقسامات في السلطة العباسية، فزاد حجم دور الفرس، وتراجع دور العرب في الحرب والسياسة معاً، وإن ظلت الأسرة العباسية على رأس السلطة . وقد رأى بعض الخلفاء العباسيين أن يخلقوا قدراً من التوازن في القوى التي يستندون إليها في استمرار سيطرتهم وحكمهم ، فأدخلوا العناصر التركية يشترونها بالمال كالعبيد ، ويطلقون على الواحد منهم اسم "خادم" ، "الخادم" ، حتى لو كان من كبار قادة الجيش ، وبدءوا يعطونها المناصب القيادية ويستكثرون من الجند الأتراك إلى أن أصبحت لهؤلاء السيطرة الكاملة، وأصبح الخليفة تحت رحمتهم. وبعد انقضاء مائة سنة على قيام الدولة العباسية أقدم قادة الجند الأتراك على قتل الخليفة المتوكل 247هـ / 861م ونصبوا أحد أولاده خليفة ؛ واستمروا بعد ذلك يمارسون لعبة قتل الخلفاء أو عزلهم . لكن المنصب بقي في أفراد الأسرة حيث استقرت في أذهان المسلمين فكرة غير صحيحة فحواها أن الخلافة حق شرعي لأسرة رسول الله وأحفاده ؛ وهي فكرة ينفيها القرآن، وتنفيها توجيهات الرسول، كما تنفيها ممارساته وممارسة خلفائه من بعده.

أما التغير الآخر الذي حدث في العصر العباسي الأول فهو توقف حركة الفتح والتوسع. لقد بلغت حركة الفتح في العهد الأموي شواطئ المحيط الأطلسي غرباً، وحدود الصين شرقاً. أما في اتجاه الشمال فقد كان البحر المتوسط وما تبقى من أراضي آسيا الصغرى في يد البيزنطيين، وبحر قزوين هي الحدود الفاصلة. ولكن المسلمين اجتازوا البحر المتوسط في طرفه الغربي – في عهد بني أمية، كما أشرنا من قبل - وتمكنوا من فتح شبه جزيرة ايبريا، وتقدمت جيوشهم في أراضي فرنسا الحالية حتى اقتربت من باريس. ولم يترجعوا إلا بعد هزيمتهم في معركة تور سنة 732م . ومع وصول الجيوش الإسلامية إلى هذه المواضع لم يعد من السهل عليها الاستمرار في التوسع. وفضلاً عن ذلك فقد انشغل العباسيون بتثبيت سلطتهم في هذه المناطق الواسعة المترامية الأطراف، ولم يكن ذلك بالمهمة السهلة.

المهم أنه بانتهاء العصر العباسي الأول حوالي منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بات الوضع أكثر سوءاً مما كان عليه في أواخر العهد الأموي فقد عانت الجماهير من الظلم والقهر والفساد، وأصبح هناك طغاة مستغلون جدد. ولا مراء في أن الخلفاء العباسيين كانوا مسئولين عن هذه التطورات ؛ لكنهم ما لبثوا أن فقدوا السلطة، وأصبحوا مجرد رموز فارغة لا قوة عسكرية أو سياسية أو مالية بأيديهم ، ولذلك صاروا يعتبرون ضحايا طغيان قادة الجند.

بدء التفكك السياسي :

قيام الدولة الأموية في الأندلس:

وكان مما شهده العصر العباسي الأول بداية تفكك الوحدة السياسية على نطاق ضيق ففي سنة 138هـ / 756م نجح أحد أفراد الأسرة الأموية في الوصول إلى الأندلس (إسبانيا) بعد أن هرب من العباسيين. وهناك تجمع أنصار بني أمية حول هذا الأموي، عبد الرحمن الداخل، وأعلنوه أميراً. وسرعان ما طرد الوالي العباسي، وفرض سيطرته على الأندلس، وهزم حملة أرسلها الخليفة أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس، وبذلك استقر حكم الأمويين في الأندلس، حيث اتخذوا قرطبة عاصمة لهم، واستمر حكمهم حتى 422هـ / 1031م. وكانت هذه الدولة مستقلة تماماً عن الخلافة العباسية ومعادية لها ، وهي النى شكلت أول انفصال سياسي كامل في تاريخ الدولة الإسلامية. وقد تطورت هذه الإمارة الأندلسية تطوراً كبيراً في النواحي السياسية والعسكرية والثقافية والعمرانية، وغدت عاصمتها قرطبة درة العالم، خاصة في عهد عبد الرحمن الناصر (300 – 350هـ / 912 – 961م) الذي حول الإمارة إلى خلافة. وقد حملت هذه الخطوة معاني كثيرة، منها تحدي الخلافة العباسية، والانتقاص من رئاستها للمسلمين، فضلاً عن الوقوف تجاهها وقفة الند للند.

وبعد عصر الحكام الأقوياء أخذ الضعف يدب في كيان دولة الإسلام في الأندلس، وبدأت حركة الأمراء القوط في أقصى الطرف الشمالي الغربي لشبه جزيرة إيبريا لاستعادة الأراضي الإسلامية، وظل الصراع متذبذباً بين النصر والهزيمة لهذا الجانب أو ذلك حتى انحصر المسلمون في إمارة غرناطة، في الركن الجنوبي الشرقي لإسبانيا وما لبث اتحاد مملكة ليون وقشتالة الإسبانيتين أن هاجم غرناطة وأجبر أميرها على الاستسلام سنة 1492م. وهكذا انتهى الحكم الإسلامي في أيبيريا بعد ثمانمائة سنة تقريباً من فتح العرب لإسبانيا. وما زالت الآثار الإسلامية

هناك شاهدة على مدى التقدم في المدنية والعلوم المختلفة والزراعة والصناعة والطب والفلسفة ، من بين ما أحرزه المسلمون.

دولة الأدارسة في المغرب:

وفي سنة 168هـ / 785م كانت قد حدثت حركة معارضة من جانب زعامة الأسرة العلوية التي اعتبرت نفسها أولى بالخلافة من العباسيين ، وذلك في عهد الخليفة العباسي الثاني ، عبدالله بن محمد ، الملقب بأبي جعفر المنصور، الذي نجح في القضاء على الحركة العلوية في مهدها، قبل أن تشب عن الطوق . وقد تمكن أحد زعمائها – من أحفاد علي – من الفرار إلى مصر، ومنها إلى مراكش. وهناك تمكن إدريس – وهذا هو اسمه – من إنشاء دولة نسبت إليه وتوراث حكمها أبناؤه من بعده واستمرت حتى سنة 310هـ / 922م تقريباً. وكانت مستقلة تماماً عن الدولة العباسية ودولة معادية لها.

العصر العباسي الثاني
247 – 656 هـ / 861 – 1258 م

مزيد من التفكك :

لم تعد للخليفة قوة أو سلطة في هذا العصر، وإنما انتقلت السلطة الفعلية لأيدي قادة الجند ، وظلت كذلك أكثر من ثمانين عاما ، وإذ ذاك تغيرت إلى الأســوأ ، كما سنرى في الصفحات القادمة. ولم يعد همّ السلطات العليا في العاصمة ، من قادة الجند والوزراء وكبار الإداريين، النظر في مشاكل الدفاع عن الحدود، وحفظ الأمن في الأقاليم، والسهر على حسن سير الإدارة فيها، ومراقبة الولاة والجباة حتى لا يقع منهم ظلم على الناس، بل صار كل همّ أصحاب السلطة في العاصمة الانتصار على منافسيهم، والاستيلاء على الأموال. وكثرت المؤامرات، وشاعت الرشوة، وعم الفساد تصرفات الحكومة. ولم يكن الوضع في الأقاليم أفضل حالاً، فكثيراً ما كان إقليم معين يعطى لأحد قادة الجند. وبدلاً من أن يذهب هذا القائد إلى مقر ولايته كان يختار البقاء في العاصمة ويرسل إلى الإقليم نائباً عنه ، وذلك لا يبقى ضمن المجموعة المسيطرة ، وكأن الولاية على إقليم معين كان جزءا من المغانم التي يتوزعها الأقوياء . أما الولاة الذين كانوا يذهبون إلى مقر الولاية بالفعل سواء باختيارهم أم رغما عنهم ، فقد كانوا يحرصون على الاستقلال ، لأنهم لاقتناعهم بأنهم غير ملزمين بالطاعة والولاء لسلطات العاصمة ، لا من الناحية الدينية ولا من الناحية الأخلاقية أو العملية. غير أنهم كانوا يحتفظون برباط شكلي مقرونا ببعض الرموز ، مثل إعلان الولاء للخليفة العاري من السلطة، وذكر اسمه في خطب الجمعة على المنابر. والغرض من ذلك هو أن يجعلوا مركزهم في ولاياتهم شرعياً في نظر الجماهير. وفي بعض الأحيان كان أمراء الأقاليم يضطرون إلى إرسال بعض المال إلى بغداد إن شعروا أن قائد الجيش في العاصمة أو التحالف المسيطر فيها يمكن أن يوجه قوة عسكرية لإخضاع ذلك الإقليم.

ولم تقف الانقسامات عند هذا الحد ؛ فقد صار بعض المغامرين وقطاع الطرق في الأقاليم يشكلون قوات عسكرية من المرتزقة ويفرضون بها سيطرتهم على مناطق يجدون السلطة الرسمية فيها ضعيفة ، فيحكمون أهلها ويجبون ضرائبها، ثم يوجهون مبعوثاً إلى بغداد يطلبون الاعتراف بهم وإعطاءهم اسم الولاية رسمياً ؛ وقد يقدمون بعض المال والهدايا، وقد يكتفون بالوعد بإرسال المال. فإذا نالوا الاعتراف الرسمي نكثوا في تعهدهم. وكانت السلطة المركزية تتصرف حسب ظروف كل موقف؛ فإن كانت قادرة رفضت وأرسلت قوة عسكرية قمعت المغامرين. أما إذا كانت ضعيفة فإنها تقبل ما يعرض عليها، لمجرد الاحتفاظ بسلطتها الاسمية. وقد تتخذ موقفاً وسطاً فتساوم إلى أن تحصل على بعض الشروط. وهكذا استقل أمراء أسرة الأغالبة في تونس، والطولونيون، ثم الإخشيديون في مصر والشام، والحمدانيون في حلب والموصل، والسامانيون في وسط آسيا (أفغانستان وتركستان)، وأسر أخرى كثيرة لا نريد أن نطيل القائمة بذكرها.

البويهيون :

أصل البويهيين من الديلم ، من سكان منطقة المرتفعات الواقعة جنوبي بحر قزوين. وكانوا ثلاثة أخوة، هم علي، وحسن، وأحمد، أولاد بويه. لقد بدأ بويه في خدمة السامانيين[3] ، ثم حول ولاءه وخدمته إلى مرداويج الزياري الديلمي، الزعيم الذي ظهر في بلاد الديلم، ، حوالي سنة 318هـ / 930م. وقد عين مرداويج عليّ بن بويه والياً على إقليم كرج المجاور لبلاد الديلم ؛ ولـعله يقع ضمن أراضي جمهورية جورجيا الحالية التي ظهرت بعد سقوط وتفكك الاتحاد السوفييتي . وقد استطاع عليّ بن بويه - بمساعدة أخويه - أن يوسعوا منطقة نفوذهم بالتدريج في مناطق إيران الحالية ، وحصلوا على اعتراف بسلطتهم من الخليفة العباسي الضعيف. وفي أقل من ستة عشر عاماً وصلت جيوشهم إلى العراق، ودخل أحمد بن بويه بغداد على رأس قواته سنة 334هـ / 945م. واضطر الخليفة العباسي المستكفي أن يعترف به وأن يعينه أميراً للأمراء، وهذا يعني أنه أصبح المسيطر الأول على دولة الخلافة، كما منحه لقب " معز الدولة " ومنح أخاه عليّاً لقب " عماد الدولة " وأخاه حسناً لقب " ركن الدولة ". وقد أنشأ كل من الأخوين الآخرين له مملكة، إحداهما في كرمان والأخرى في فارس.

والتغيير المهم الذي أحدثه وصول البويهيين إلى بغداد أنهم أنهوا فترة سيطرة الجند والقادة الأتراك على عاصمة الدولة الإسلامية، وبالتالي أنهوا ما كان يدور بين أولئك القادة من معارك ومؤامرات. لكن الخليفة لم يعد له شيء من سلطته، بل لقد كان الملوك البويهيون أكثر جرأة على الخلفاء من القادة الأتراك. وتمكن البويهيون من إحكام سيطرتهم على العراق وإيران، أما بقية الأقاليم الإسلامية فقد احتفظت باستقلالها، مع ولاء اسمي للخليفة العاجز في بغداد. ولم يبد البويهيون اهتماماً بمواجهة الدولة البيزنطية، العدو التقليدي الذي استمرت الحرب معه في صعود وهبوط، تتوقف حيناً وتستأنف حيناً، من بداية العصر الإسلامي وحتى سقوط القسطنطينية سنة 1453م. وكان كل همّ البويهيين تثبيت حكمهم، وجمع الأموال من الضرائب والتجارة. وإذا كان البويهيون قد أنهوا الصراع الذي كانت تشهده العاصمة بين قادة الجند من الأتراك وغيرهم، فقد سلكوا نفس السلوك بعد فترة قصيرة، إذ سرعان ما نشب الصراع بين أبناء الأسرة البويهية، وظل يتكرر من سنة إلى أخرى، حتى انتهى حكمهم سنة 448هـ / 1055م. أي أن السيطرة البويهية استمرت مائة وستة عشر عاماً تقريباً.

[3] - أول ما ظهر أولاد أسد بن سامان كانوا ولاة على بعض الأقاليم الشرقية للدولة العباسية ابتداء من سنة 204هـ/819م. وقد امتدت دولتهم بعد استقلالهم سنة 261هـ/874م من حدود الصين شرقا إلى جنوب بحر قزوين غربا ، وكانت عاصمتها بخـارى. وقد سقطت الدولة السامانية سنة 381هـ/999م.

الدولة الفاطمية
296 – 567 هـ / 909 – 1171 م

لقد ادعى الفاطميون أنهم من أحفاد علي بن أبي طالب، وهو ابن عم رسول الله وزوج ابنته الكبرى فاطمة. ولذلك سموا أنفسهم بالفاطميين. وقد نظم الفاطميون حركة سرية تعمل ضد الخلافة العباسية وتدعي أحقية أحفاد علي بالخلافة، وتعد المظلومين بالعدل والرخاء والعودة إلى مبادئ الحق وسلوك سبيل الإسلام. وقد استغلوا كل مظاهر الفساد والفوضى التي سادت الحياة في ظل ضعف الخلفاء العباسيين. وقد فشلت محاولاتهم في إقامة كيان سياسي لهم بالقوة المسلحة في الشام والعراق، فتسلل بعض دعاتهم إلى شمال أفريقيا، ونشروا دعوتهم بين قبائل البربر، مستفيدين من حب المسلمين لرسول الله، واعتقادهم بأن العدل سيجيئ على أيدي أحفاده. وتمكنوا من هزيمة آخر ولاة بني الأغلب في تونس سنة 296هـ / 908م، وأعلنوا قيام الخلافة الفاطمية. وهكذا أصبح في العالم الإسلامي خلافتان في أسرتين كل منهما تنتسب إلى رسول الله [4](175). وكانت الدولة الفاطمية في بداية عهدها فتية قوية، فاستطاعت أن تمد نفوذها على معظم شمال أفريقيا. وفي سنة 358هـ / 969م. تمكن القائد الفاطمي جوهر من الاستيلاء على مصر، وهو الذي أسس مدينة القاهرة الحالية. وبعد حوالي ثلاث سنوات جاء الخليفة الفاطمي، المعز لدين الله واتخذ القاهرة عاصمة له، وكانت جيوشه قد استولت على بلاد الشام في السنة التالية لاستيلاء القائد جوهر على مصر. وكذلك فقد مدت سيطرتها إلى الحجاز واليمن، وقامت منافسة شديدة ودعاية صاخبة بين أنصار الخلافتين. وقد رفض البويهيون – الذين كانوا يسيطرون على العراق وعلى الخلفاء العباسيين – رفضوا تحويل ولائهم للخلافة الفاطمية، وقاوموا رغبة الفاطميين في السيطرة على العراق. والسبب واضح طبعاً، فمع خليفة ضعيف يمكن أن تظل السلطة بأيديهم.: أما في ظل الخلفاء الفاطميين الأقوياء فإنهم سيكونون خاضعين لهم وتحت رحمتهم، حيث يمكن للخليفة الفاطمي عزلهم وطردهم في أي وقت.

لكن الخلافة الفاطمية ما لبثت أن ضعفت هي الأخرى، وانفصلت عنها أقاليم شمال أفريقيا، ثم نشبت النزاعات بين أ فراد البيت الفاطمي وسيطر عليهم قادة الجند والوزراء ، وما هو أسوأ من ذلك ، حتى حان موعد سقوطها واندثارها سنة 567 هـ.

التشرذم في شمال أفريقيا :

وكما تشرذم المسلمون في إسبانيا ابتداء من عام 422هـ / 1031م بعد سقوط الخلافة الأموية فقد تبددت وحدتهم أيضاً في شمال أفريقيا؛ بل إن التمزق في شمال أفريقيا كان أسبق من الناحية الزمنية. فبعد بضع سنوات من انتقال الخلافة الفاطمية إلى القاهرة أعلن يوسف بلكين، الوالي الفاطمي استقلاله وأنشأ أسرة حاكمة عرفت باسم الزيريين، نسبة إلى زيري بن مناد الصنهاجي، والد يوسف ولكن سلطة الزيريين ما لبثت أن انحصرت في تونس بسبب ظهور قوة جديدة في بجاية، بالجزائر، ممثلة في دولة بني حماد. وفي المغرب الأقصى ظهرت عدة قوى قبلية لم تستطع أي منها أن توطد أقدامها وتفرض سلطتها. وقد استمر بنو زيري في تونس وبنو حماد في بجاية

[4] - وفي سنة 317هـ/929م أعلن عبدالرحمن الثالث الأموي،، أمير إسبانا الإسلامية ، أعلن نفسه خليفة للمسلمين ؛ وذلك يعني عدم الاعتراف بالخلافة العباسية، وكذلك بالخلافة الفاطمية. وهكذا تعرض المفهوم الإسلامي لوحدة السلطة السياسية إلى تحد خطير .

بالجزائر حتى نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلاد) تقريباً، حيث ظهرت قوة جديدة تمكنت من القضاء على الأسرتين.

الـمـرابـطـون :

بدأت حركة المرابطين على يد مصلح إسلامي اسمه عبد الله بن ياسين حوالي منتصف القرن الخامس الهجري، ضمن قبيلة لمتونة، إحدى قبائل البربر الأمازيغيـة. وقد استطاعت دولة المرابطين بقيادة حكامها الأقوياء، خاصة يوسف بن تاشفين، أن تفرض سلطانها على معظم بلاد شمال أفريقيا، حيث أزالت ملك بني زيري في تونس، وملك بني حماد في الجزائر، فضلاً عن سيطرتها على المغرب الأقصى بعد إخضاع مدنه الهامة مثل فاس ومكناس وسبتة، وطنجة. والمرابطون هم الذين بنوا مدينة مراكش واتخذوها عاصمة لهم ؛ وكانوا يعترفون بالخلافة العباسية، ويحمل رئيسهم لقب "أمير المؤمنين".

المرابطون يهبون لنجدة مسلمي الأندلس:

سقطت الخلافة الأموية في الأندلس سنة 422هـ / 1031م كما ذكرنا فتمزقت وحدة البلاد وقام فيها حكم عرف بحكم " ملوك الطوائف ". وكان أبرز هؤلاء الملوك الصغار بنو عباد الذين حكموا في إشبيلية وتمكنوا من ضم قرطبة إلى ملكهم. وفي سنة 478 هـ استولى الأسبان على طليطلة من المسلمين بعد حصار دام سبع سنوات، ثم أعد ملكهم الفونسو عدته للزحف على إشبيلية. وهنا قرر ملكها المعتمد بن عباد أن يستنجد بالمرابطين. وقد لبى المرابطون النداء وعبروا مضيق جبل طارق بقيادة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين. وفي معركة الزلاقة الشهيرة تمكنت القوات الإسلامية المتحالفة من سحق الجيش الإسباني الذي بلغت عدته خمسين ألفاً. ولم ينج الملك الفونسو مع ثلاثمائة من أتباعه إلا بشق الأنفس.

وعاد ابن تاشفين إلى شمال أفريقيا بعد أن ترك قوة من ثلاثة آلاف مقاتل لمساعدة ابن عباد. واستمر التمزق والنزاعات والمؤامرات في الأندلس، وتعرضت إشبيلية للتهديد الإسباني كرة أخرى بعد سبع سنوات، وعاد يوسف بن تاشفين على رأس قوته وتمكن من دحر الهجوم، لكنه قرر أن يضع حداً لحكم ملوك الطوائف، وألحق أراضي هؤلاء الملوك بدولة المرابطين ووضع فيها الحاميات. ثم ضعفت دولة المرابطين وأخلت المسرح لقوة جديدة صاعدة ظهرت في شمال أفريقيا أيضاً.

الـمـوحـدون :

نمت بذرة الموحدين على يد المصلح والداعية الإسلامي ابي عبد الله محمد ابن تومرت، الملقب بالمهدي. وكان ابن تومرت قد ظهر في عهد المرابطين سنة 515هـ / 1121م وبان ذكاؤه وقوة شخصيته فنفاه أمير المسلمين علي بن تاشفين خشية اجتماع الناس عليه. واستقر ابن تومرت في أغمات قرب مراكش، وهناك ازداد أتباعه وبايعه عبد المؤمن بن علي الكومي. ولم تمض سنتان حتى كان أتباعه الموحدون يحاصرون مراكش. وانتهت دولة المرابطين واستولى الموحدون على شمال أفريقيا من طرابلس إلى ساحل الأطلسي.

واستغاث بهم الأندلسيون فعبروا المضيق وأنزلوا بالنصارى هزيمة ساحقة تشبه هزيمتهم في معركة الزلاقة، وذلك في معركة الأرك قرب بطليوس. ولكن النصارى لم يستسلموا للهزيمة، ووجهوا رجال الدين إلى الأقطار الأوروبية للدعوة إلى حرب صليبية ضد المسلمين، فتوافد إليهم المتطوعون من ألمانيا وبريطانيا وإيطاليا، فتمكنوا من هزيمة الموحدين في موقعة العقاب سنة 609هـ / 1212م هزيمة قضت على وجودهم في الأندلس، وفتحت الباب لمد مسـيحـي أخذ ينتزع المدن الأندلسية من أيدي المسلمين واحدة بعد أخرى حتى حصروهم في الركن الجنوبي الشرقي من البلاد، حيث قامت دولة بني نصر (وهم بنو الأحمر) أمراء غرناطة الذين استطاعوا الصمود في وجه الضغط الإسباني المتواصل من سنة 630هـ / 1233م إلى سنة 897هـ / 1492م.

وفي شمال أفريقيا أصاب الضعف دولة الموحدين بسبب الصراعات الداخلية، ففقدوا طرابلس، وانفصل عنهم الحفصيون ولاتهم في تونس واستقلوا بها منذ سنة 625هـ / 1228م وتبعهم الزيانيون حكام تلمسان في الجزائر سنة 632هـ / 1235م وأسسوا لهم دولة مستقلة. وعمرت الدولة الحفصية حتى سنة 1534م، كما عمرت دولة بني زيان حتى 1393م. أما في أقصى المغرب فقد ظهرت دولة بني مرين الذين استولوا على مراكش سنة 667هـ / 1269م فأنهوا بذلك دولة الموحدين، ثم ما لبثوا أن أزالوا دولة بني زيان في الجزائر سنة 796هـ / 1393م. واستمرت دولة المرينيين حتى سنة 875هـ / 1470م. حيث تغلب عليهم الوطاسيون الذين استمر حكمهم حتى سنة 957هـ / 1550م.

وهكذا بدأت مقدمات التطورات التي شهدها العصر الحديث، إذ زاد الإسبان من ضغطهم على شمال أفريقيا الإسلامي بعد سقوط غرناطة سنة 1492م حتى استنجد أهل شمال أفريقيا بالعثمانيين، فجاءت قوة عثمانية صغيرة استطاعت صد هجوم إسباني على الجزائر سنة 1516م وبدأ انضمام شمال أفريقيا إلى الدولة العثمانية بعد أقل من ربع قرن من سقوط غرناطة. وفي المغرب الأقصى انتهت دولة الوطاسيين، وبعد فترة صراع وفوضى سيطر الأشراف السعديون الذين تزعموا حركة الجهاد ضد الأسبان، ثم خلفهم الأشراف العلويون، ومن أحفادهم الأسرة الحاكمة في المملكة المغربية حالياً.

المشرق الإسلامي بعد البويهيين

إمبراطورية السلاجقة :

ينسب السلاجقة الأتراك إلى جدهم سلجوق بن تقاق. وكان موطنهم الأصلي في هضاب القرغيز، ثم انتقلوا إلى بخارى. وكانوا قبائل بدوية غليظة الطباع. وقد اعتنقوا الإسلام وأبدوا حماسة جديدة في نشره، وبذلك أدخلوا إلى جسم الحياة الإسلامية دماء جديدة تتدفق بقوة وحيوية مصحوبتين بكثير من الخشونة والفظاظة أحياناً، إذ كانت معرفتهم بالإسلام لا تتعدى العموميات، مع عدم استيعاب كثير من جوانبه التي تهذب الطباع الجافية. وفي خضم توسعهم غرباً وجنوباً قضى السلاجقة على مملكة غزنة التي أنشأها سبكتكين وابنه محمود الغزنوي، وعمرت ما يزيد على قرن من الزمان (351 – 582هـ / 962 – 1186م) وامتدت أراضيها من لاهور وسواحل بحر العرب إلى سمرقند وأصفهان [5] . وعلى أثر تفوق السلاجقة جرت اتصالات بين الخليفة العباسي القائم وسلطان السلاجقة طغرل بك انتهت بنوع من الاتفاق، حيث زحف السلاجقة غرباً إلى أن دخلوا بغداد وقضوا على حكم بني بويه سنة 447هـ / 1055م، ووضعوا الخلافة العباسية تحت حمايتهم . غير أن الحماية لم تكن في حقيقتها إلا سيطرة غطية بأغلفة شفافة لا تستر عوراتها . وبعد ذلك تقدمت قوات السلاجقة إلى الشام وانتزعتها من أيدي الفاطميين. ثم إنهم تقدموا وزادوا من انتشارهم في آسيا الصغرى، فأدى ذلك إلى صدام هائل بينهم وبين الدولة البيزنطية. وفي آب (أغسطس) 1071م التقت قوات السلاجقة بقيادة السلطان ألب ارسلان بالجيش البيزنطي يقوده الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينس Romanus IV Diogenes. ونشبت المعركة الفاصلة عند بلدة (مانتزكرت Mantzikert) قرب بحيرة فان في آسيا الصغرى. وكان الجيش الإمبراطوري متفوقاً تفوقاً كبيراً من الناحية العددية إلا أنه كان غير متجانس ويفتقر إلى الحماسة، على عكس الجيش السلجوقي الذي كان قليل العدد في تلك المعركة، إذ فوجئ السلطان بتقدم الجيش البيزنطي واضطر لمقابلته على عجل. وحاول السلطان أن يقنع الإمبراطور بعقد هدنة بين الطرفين، لكن رومانوس رفض، وأعلن أن الهدنة ستوقع في عاصمة السلاجقة. ودارت معركة هائلة تمكن السلاجقة فيها من إبادة الجيش البيزنطي، ووقع الإمبراطور رومانوس نفسه في الأسر. وسأل السلطان أسيره : ماذا كنت ستفعل بي لو أنك أسرتني ؟ فأجابه بأنه كان سيفعل أقبح ما يتصور. لكن ألب ارسلان عفا عنه. وتعهد الإمبراطور بدفع فدية كبيرة، وأعلن أنه سيكون تابعاً لسلطان السلاجقة وسيحارب معه بجنوده إن أمره بذلك [6] .

وقد اهتزت أوروبا كلها إثر هذه الهزيمة، وأخذ البابا ومعه الكنيسة يحرض ملوك أوروبا على القيام بحملة مشتركة ضد البلاد الإسلامية. واحتاج الأمر أكثر من عشرين سنة حتى تكوّن أوروبا تلك الحملة.

وبعد الجيل الثالث من حكام السلاجقة تفسخت قوتهم ونشبت الصراعات الداخلية في ما بينهم للاستئثار بمنصب السلطان وأخذت دولتهم تضعف سريعاً قبل وصول الحملة الصليبية الأولى إلى

---

[5] - كان سبكتنين واليا على إقليم خراسان تابعا للأمير نوح بن نصر الساماني، واستطاع هو وابنه محمود من بعده أن يوسعا مملكتهما في وسط آسيا وفي شبه القارة الهندية عبر الهملايا ، وصار محمود الغزنوي أعظم حكام عصره فتحا وملكا ورعاية للعلم والآداب والفنون.

[6] - بشأن هذه المعركة أنظر إبن الأثير ، الكامل في التاريخ ، مجلد 10 ، ص 65 – 65 ؛ وانظر كذلك :

George Ostrogorsky, ***History of the Byzantine State,*** translated into English by John Hussy, Oxford: Blackwell, 1968, pp. 343 -345.

بلاد الشام. ولذلك لم يكن للسلاجقة دور دفاعي ضد هذه الحملة واستطاع الصليبيون أن يجتاحوا بلاد الشام وأن يؤسسوا فيها عدداً من الممالك اللاتينية في الرها، وأنطاكية، والقدس.

وفي الجانب السلجوقي استقل عدد من ولاة الأقاليم، الأتابكة، وظهرت لهم دول شبه مستقلة في الموصل، وحلب ودمشق وغيرها. وقد بدأ أتابك الموصل في تحدي الصليبيين وأنزل بهم أول هزيمة وانتزع منهم الرها وأسقط مملكتهم بها. وحمل ابنه نور الدين محمود الراية من بعده. واستمرت أوضاع السلاجقة في التدهور إلى أن استطاع الخلفاء العباسيون استعادة شيء من قوتهم، فطردوا السلاجقة من بغداد، وأصبح العراق تحت سلطة الخليفة الفعلية اعتباراً من منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) تقريباً. لكن الخليفة لم يستعد السلطة السياسية والعسكرية على بقية أقاليم العالم الإسلامي، وإن كان قد احتفظ بالسلطة الدينية، والولاء الديني.

واستمر الوضع على هذا النحو ما يقرب من مائة سنة. وفي فترة المائة سنة هذه تمكن أتابك دمشق نور الدين محمود من إنقاذ مصر من خطر الصليبيين، ثم ما لبث أن أنهى الخلافة الفاطمية الضعيفة سنة 567هـ / 1171م. وعادت مصر تعلن ولاءها للخلفاء العباسيين في بغداد.

الدولة الأيوبية
567 – 648 هـ / 1171 – 1250 م

كان مؤسس الدولة الأيوبية – صلاح الدين يوسف بن أيوب – أحد أتباع نور الدين محمود بن زنكي، حاكم بلاد الشام. وقد سافر إلى مصر ضمن جيش قاده عمه مكلفاً من نور الدين بالذهاب إلى تلك البلاد لإنقاذها من الصليبيين الذين حاولوا احتلالها أكثر من مرة. وقد تمكن صلاح الدين – الذي تولى القيادة بعد وفاة عمه – أن ينهي الخلافة الفاطمية سنة 567هـ. ولما مات سيده نور الدين محمود في دمشق استطاع أن يوحد مصر والشام، وبذلك صارت الممالك اللاتينية التي أقامها الصليبيون في القدس وعكا وصيدا وطرابلس، وما يتبعها من حصون، صارت محاصرة بين فكي كماشة. ثم أخذ يضيق الخناق عليهم رويداً رويداً وينتزع منهم الحصون حصناً بعد حصن. وفي سنة 1187م. تجمعت جيوش الممالك والإمارات الصليبية في حطين بشمالي فلسطين لمواجهة القوات الأيوبية بقيادة صلاح الدين الذي استطاع أن ينزل بهم هزيمة ساحقة تمكن بعدها من الاستيلاء على مدينة القدس التي ظلت بأيدي الصليبيين تسعين سنة تقريباً منذ أن سقطت في أيديهم سنة 1099م. وقد عامل صلاح الدين الأسرى من الأوروبيين بروح إسلامية متسامحة فأفرج عنهم وسمح لهم بالخروج بأموالهم ولم يتعرض هو أو جنده للنساء وغير المحاربين، بينما تلقى المحاربون المهزومون معاملة كريمة، وذلك على عكس ما فعل الصليبيون عندما احتلوا القدس قبل تسعين سنة. فقد كتب أحد أولئك الصليبيين يخبر أمه بأن حصانه خاض إلى ركبتيه في دماء المسلمين في ساحة المسجد الأقصى الذي قدر عدد من ذبح فيه من المسلمين غير المحاربين بسبعين ألفاً. وكان

الصليبيون يستخسرون أن يطعنوا الطفل الرضيع من أبناء المسلمين، بل كانوا يمسكون به من رجليه ويضربونه في الحائط ليتناثر دماغه [7] .

ولقد كان لهزيمة الصليبيين واسترجاع المسلمين لمدينة القدس وقع الصاعقة في أوروبا . وعلى أثر ذلك وجه البابا نداء محموماً إلى ملوك أوروبا يدعوهم إلى القيام بحملة صليبية جديدة لغزو فلسطين. ولبى نداءه عدد من أكبر ملوك أوروبا، منهم فردريك برباروسا إمبراطور ألمانيا، وريتشارد الأول ملك إنكلترا (الملقب بقلب الأسد)، وفيليب الثاني ملك فرنسا. وقد تمكنت الحملة من الاستيلاء على ميناء عكا سنة 1191م بالإضافة إلى بعض المدن الساحلية. وعاد فيليب إلى بلاده بينما ظل ريتشارد يحاول الاستيلاء على القدس دون جدوى، وأخيراً اضطر أن يعقد صلحاً مع صلاح الدين حيث اقتسم الجانبان مدينتي اللد والرملة، وعاد ريتشارد إلى أوروبا بعد ذلك بسنة، وتوارث الحكم بعد صلاح الدين أبناؤه وأحفاده حتى سنة 972هـ / 1250م حيث انتهت الدولة الأيوبية لترثها دولة المماليك. كذلك ورث المماليك مهمة طرد بقايا الصليبيين من بلاد الشام.

وكان الجيش الأيوبي يتكون من الجند المماليك الذين كان التجار يجلبونهم صبياناً صغاراً من وسط آسيا ومن أقاليم أوروبا الشرقية ويبيعونهم للسلاطين الأيوبيين. وكانوا يوضعون في معسكرات خاصة، ويعين لهم المعلمون والمدربون، فيتعلمون القراءة ويتلقون التدريب العسكري ويلقنون الولاء لسيدهم حتى إذا بلغوا سن الرجولة أصبحوا عسكريين ممتازين، إذ ذاك يدخلون الخدمة العسكرية. وكان كثيرون منهم يتولون القيادات الرئيسية وحكم الأقاليم، فتصبح أهميتهم تالية لأهمية الملك. وعندما ضعف الأيوبيون برز المماليك على مسرح الأحداث.

دولة المماليك في مصر وبلاد الشام
ودورها في كبح الخطر المغولي

على أثر تدهور قوة الأيوبيين واستفحال الصراع بين أمرائهم استطاع جندهم المماليك أن يرفعوا أحد زعمائهم إلى العرش وأن يعلنوه سلطاناً. وحكم المماليك مصر والشام والحجاز وبعضاً من آسيا الصغرى في الفترة الممتدة بين سنتي 650 – 922هـ / 1252 – 1517م. ويعود إليهم الفضل في تصفية بقايا الدويلات الصليبية في بلاد الشام، حيث حرروا أنطاكية (669هـ) وطرابلس (688هـ)، وكانت خاتمة الصراع مع الصليبيين عندما تمكن السلطان المملوكي خليل بن قلاوون من الإجهاز على مملكة عكا الصليبية وتحرير عكا والأراضي التابعة لها سنة 690هـ / 1291م. وكان أعظم أعمالهم العسكرية وأبرزها في الدفاع عن بلاد الإسلام تمكنهم من إنزال هزيمة ساحقة بجيوش المغول المرعبة وذلك في معركة عين جالوت قرب مدينة بيسان بفلسطين سنة 658هـ / 1260م. وقد تقهقر المغول وطاردهم المماليك حتى أجلوهم عن بلاد الشام ودفعوهم إلى ما وراء نهر الفرات. وظل المماليك يحكمون مصر والشام والحجاز حتى قضى عليهم العثمانيون سنة 922هـ / 1517م، وضموا هذه البلاد كلها إلى الإمبراطورية العثمانية .

---

[7] - عن وحشية الأوروبيين الصليبيين عند استيلائهم على القدس أنظر ما كتبه المؤرخ البريطاني رنسيما :
S. Runciman, ***A History of the Crusades*** (3 vols.),Cambridge: 1951, vol. 1, pp. 286 – 187.

المغول
والقضاء على الخلافة العباسية

ظهر المغول قوة عسكرية على المسرح العالمي بعد أن قام من بينهم قائد ماضي العزيمة استطاع أن يوحد صفوفهم ويجعل منهم قوة عسكرية هائلة حوالي بداية القرن الثالث عشر الميلادي، وكان الزعيم يدعى تيموجين، وقد حمل لقب جنكيز خان، وعرف به. وكانت أول فتوحه الكبيرة استيلاؤه على بكين، عاصمة إمبراطورية الصين سنة 1215م. ثم اتجهت قواته نحو الغرب، وما لبثت أن قضت على مملكة خوارزمشاه سنة 1221م ثم طوى جنكيز خان بلاد ما وراء النهر وأفغانستان الحالية وكثيراً من مناطق إيران تحت جناحه. وتقدم حفيده هولاكو غرباً فاستولى على بلاد فارس؛ ثم زحف على بغداد واجتاحها سنة 656هـ / 1258م وقضى على الخلافة العباسية. وزحف المغول بعد ذلك على بلاد الشام لكنهم تلقوا أول هزيمة ساحقة في معركة عين جالوت على يد قوات المماليك – كما أشرنا قبلاً – بقيادة السلطان قطز. وعلى الرغم من نجاح المماليك في طرد المغول من بلاد الشام إلى ما وراء الفرات إلا إنهم ظلوا في العراق وبلاد فارس. وما لبثوا أن نشبت بينهم الصراعات الداخلية نزاعاً على الحكم والسيطرة، فتشرذموا وشهدت مناطقهم كثيراً من الفوضى. وبعد حوالي نصف قرن من سقوط بغداد تحت سنابك قوات هولاكو نجد ملكاً مغولياً من أحفاده، واسمه غازان، يعتنق الدين الإسلامي على المذهب السني فينتشر الإسلام بين المغول. ويستمر انتشار الإسلام بين المغول فتنشأ دول وإمبراطوريات مغولية إسلامية دافع بعضها عن الإسلام دفاعاً مجيداً ؛ ومن أبرز هذه الدول المغولية الإسلامية :

أولاً : مملكة المعسكر الذهبي Golden Horde وقد امتدت من شبه جزيرة القرم في شمالي البحر الأسود غرباً إل تركستان شرقاً. وأول من اعتنق الإسلام من ملوكها أوزبك (1313 – 1341م).

ثانياً : الدولة التيمورية، نسبة إلى مؤسسها تيمورلنك الذي ولد سنة 1336م وظهر على المسرح السياسي سنة 1369م.

ثالثاً : إمبراطورية المغول في الهند، وقد أسسها ظاهر الدين محمد، الذي اشتهر باسم بابر Babur ، وكان ولد سنة 1483م، وهو من أحفاد تيمورلنك وجنكيز خان.

خانية (مملكة) المعسكر الذهبي :

وترجع أهمية مملكة المعسكر الذهبي إلى أنها وقفت فترة طويلة سداً مانعاً في وجه نمو دوقية موسكو الروسية وتوسعها. وكان الحوض الأدنى لنهر الفولغا هو مركز هذه المملكة المغولية التي اتخذت من مدينة سراي عاصمة لها. وقد خضع لها الروس، ممثلين في دوقية موسكو، مائتي عام. وكان دوقات موسكو يترددون على سراي ويدفعون الجزية لخان المعسكر الذهبي، ويخاطبونه بلقب Tsar، وتعني الإمبراطور. وقد أصبح هذا اللقب يستعمل لأباطرة روسيا في ما بعد عندما توسعت وأصبحت دولة كبرى. وكان رعايا هذه الدولة المغولية خليطاً من المغول والأتراك والفنلنديين والروس. وعلى أثر ظهور بولندا من ناحية، والدولة العثمانية من ناحية أخرى بدأ الضعف يدب في أوصال خانية المعسكر الذهبي، وأخذ دوقات موسكو يتطلعون إلى زعامة

المسيحيين الأرثوذكس. ثم ظهر تيمورلنك واجتاح أراضي الذهبيين ودخل عاصمتهم سراي سنة 1395م، فتمزقت وحدة هذه المملكة، وظهرت مكانها خانيات صغيرة في قازان، واستراخان، والقرم التي أصبحت تحت حماية الدولة العثمانية ابتداء من سنة 1475م. وقد ظل الذهبيون مع ذلك يشكلون تهديداً لموسكو إلى أن تمكن الدوق إيفان الثالث من تحطيم قوتهم، وانتهت هذه الأسرة سنة 1502م. وفي منتصف القرن السادس عشر سقطت خانيتا قازان واستراخان بيد الروس، ولذلك انفتح الطريق أمامهم للتوسع فيما وراء الفولغا والأورال في داخل سيبيريا.

خانية الأوزبك:

وعلى أثر ضعف وسقوط الخانية الذهبية ظهرت خانية الأوزبك الذين انتسبوا إلى أول خان اعتنق الإسلام من أجدادهم. وقد تمكن أحد ملوكهم، وهو شيبان خان (1500 - 1510 م)، من هزيمة الصفويين حكام إيران، وأصبح سيد منطقة واسعة تشمل خراسان وما وراء النهر وبخارى وسمرقند. وكان المغول الشيبانيون هم المدافعون عن مذهب السنة في وجه التوسع الصفوي الشيعي الإيراني، ولذا فقد تلقوا تشجيعاً من الدولة العثمانية. وقد استمرت إمبراطوريتهم ما يقرب من قرن، حيث انتهت سنة 1599م لوقوعها بين ضغط روسيا الصاعدة من جهة وضغط الدولة الصفوية في إيران من جهة أخرى، لا سيما وأن الصفويين تحالفوا مع البرتغاليين الذين أمدوهم بالأسلحة النارية الحديثة لتقويتهم ضد الدولة العثمانية وضد حلفائها الأوزبك . وكان الأوزبك حتى ذلك الوقت يعتمدون في حربهم على القوس والسهام والفروسية . وبسقوط دولة الأوزبك تمهد السبيل لتوسع الروس في المناطق الإسلامية. ففي سنة 1813م انتزع الروس الجزء الشمالي من أذربيجان من إيران. وقاومت منطقة القوقاز الإسلامية مقاومة شديدة إلا أن مقاومتها انهارت أمام التفوق الروسي. وفي مناطق الشيشان Chechens قاوم هذا الشعب المسلم طوال ربع قرن (1834 – 1859م) بقيادة زعيمه الشيخ شامل؛ وفي سنة 1840م فرضت روسيا حكمها على شعب كازاخستان المسلم، وقاوم الشركس حتى سنة 1864م ثم انهارت مقاومتهم وفي عهد القيصر الروسي الكسندر الثاني (1855 – 1881م) استولت روسيا على مدن إسلامية عريقة مثل بخارى وسمرقند وطشقند. وبعد تفكك الاتحاد السوفييتي 1992م استقلت معظم هذه الأقطار عدا جمهوريات القوقاز الإسلامية.

دور تيمورلنك :

ظهر تيمورلنك (تيمور الأعرج) على المسرح السياسي والعسكري عندما خلع أمير خراسان المغولي سنة 1369م ودخل في زمرة كبار الفاتحين من أحفاد جنكيز خان. وبالرغم من حرصه على الظهور بمظهر المسلم الصالح وتقريبه للعلماء والدراويش فإن ذلك لم يمنعه من الدخول في حرب شاملة ضد الدولة العثمانية ؛ فقد زحف على الأناضول على رأس قواته والتقى بالجيش العثماني بقيادة السلطان بايزيد في السهول القريبة من أنقرة سنة 1402م، وانقشع عجاج المعركة عن هزيمة ساحقة للجيش العثماني ووقوع السلطان بايزيد نفسه في الأسر. وكان تيمور قد زحف على الهند قبل ذلك ببضع سنوات عبر جبال الهملايا، واجتاح ممالك تلك البلاد بما في ذلك دلهي (دهلي) التي استولى عليها سنة 1398م. وبعد وفاة تيمور سنة 1405م قسمت امبراطوريته بين أبنائه الذين اندلع بينهم الصراع، ولم تلبث أن زالت بفعل ظهور قوى جديدة.

دور بابـر Babur :

ولد ظاهر الدين محمد الذي حمل لقب (بابر) سنة 1483م. وهو من أحفاد تيمورلنك وجنكيز خان. وكان والده عمر الشيخ ميرزا يحكم منطقة فرغانة في ما وراء النهر إلى الشمال من

هندوكوش. وقد اعتبر بابر نفسه وريثاً لجدة الأعلى تيمورلنك وظل عشر سنوات يحاول الاستيلاء على سمرقند (1494 – 1504م) دون جدوى. ثم استولى على كابل – عاصمة أفغانستان حالياً – واتجه للتوسع جنوباً عبر الهملايا. وفي سنة 1519م قام بأولى غاراته على البنجاب التي كانت من ممتلكات السلطان إبراهيم لودي، سلطان دهلي. وفي سنة 1522م استولى على قندهار – جنوبي أفغانستان – وجعلها قاعدة استراتيجية لحملاته على بلاد الهند عبر الهملايا، حيث تمكن من الاستيلاء على دهلي (دلهي عاصمة الهند حاليا) في أول أيار (مايو) 1526م، وبدأ تحويل الهند كلها من خليج البنغال إلى بحر العرب إلى إمبراطورية مغولية إسلامية. ومع بداية القرن السابع عشر وصل الإنكليز إلى الهند ممثلين بشركة الهند الشرقية البريطانية التي تأسست سنة آخر يوم من سنة 1600م. وقد منح أباطرة المغول ممثلي الشركة حق فتح مراكز وكالات تجارية ظلت تمارس التجارة من خلالها بشكل سلمي طوال القرن السابع عشر. وعندما دفعت الإنكليز أطماعهم للسيطرة عن طريق القوة العسكرية واجهوا رد فعل عنيف من جانب السلطان المغولي القوي أورانكزيب عالمكير (1659 – 1707م). وبعد موت عالمكير ضعفت امبراطورية المغول الهندية وتمزقت، وتمكنت جيوش شركة الهند الشرقية البريطانية من القضاء عليها عملياً في معركة بلاسي (1757م) ومعركة بوكسار (1764م).

التطورات الكبرى
في القرن السادس عشر الميلادي
(العاشر الهجري)

لقد مثلت السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر والسنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلاديين فترة تحول كبرى في أوضاع العالم الإسلامي، وفي المواجهة بين العالم الإسلامي والغرب: ففي هذه الفترة سقطت غرناطة (1492م) آخر معاقل المسلمين في الأندلس وبدأ الضغط الإسباني المسيحي على شمال أفريقيا. وفي نفس السنة تمكن كرستوفر كولومبس من الوصول إلى أميركا الوسطى مكتشفاً لما صار يعرف اليوم بهذا الاسم أول مرة، وذلك بتكليف من فرديناند وإيزابلا، حاكمي إسبانيا اللذين استوليا على غرناطة، وقد خرج كولومبوس في رحلته وهدفه الأساسي الوصول إلى الهند للالتفاف حول العالم الإسلامي. وبعدها بست سنوات وصل المكتشف البرتغالي (فاسكو داغاما) إلى ساحل ملبار في الهند على رأس قوة بحرية كبيرة بعد جهود طويلة قضاها البرتغاليون في اكتشاف طريق للالتفاف حول أفريقيا والاتجاه للوصول إلى الهند. ونجح البرتغاليون في الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح وصعدوا مع ساحل أفريقيا الشرقي واتجهوا منه

إلى الهند. ومنذئذ بدءوا حربهم ضد المراكز التجارية الإسلامية في المحيط الهندي، ثم أزالوا مملكة هرمز عند مدخل الخليج العربي وشنوا حرباً مدمرة ضد الإمارات والقوى العربية والإسلامية في المنطقة وبدأوا فرض سيطرتهم عليها وعلى الملاحة في المحيط الهندي سنة 1507م.

وفي سنة 1497م شرع إسماعيل الصفوي في العمل لإقامة دولة شيعية منطلقا من منطقة جيلان، جنوبي بحر قزوين. وبعد سنتين استولى على شروان، ثم انتصر على الواند، حاكم المناطق الشمالية من مملكة التركمان المعروفة بالخروف الأبيض (آق قينولي) وبعدها استولى على تبريز. وخلال عام واحد أخضع جميع مناطق القسم الغربي من إيران حتى شواطئ الخليج العربي. وبعد سنتين أخريين امتدت سلطته إلى قلب آسيا الصغرى. وتمكن بعد ذلك من الاستيلاء على بغداد أواخر عام 1508م. وكانت تحركات الشاة إسماعيل وقواته مدفوعة بتعصب مذهبي شيعي جامح يستعمل أقصى درجات العنف ضد مخالفيهم، فبمجرد استيلاء قواته على بغداد قامت بتدمير المقامات المشهورة والأضرحة الخاصة بالسنة، كما قامت بمذبحة راح ضحيتها عدد من زعماء السنة. وهكذا تهيأ المسرح للصدام الحتمي بين أكبر قوتين إسلاميتين آنذاك، العثمانيين والصفويين حيث أنزل السلطان سليم العثماني هزيمة كبيرة بالشاه إسماعيل في معركة جالديران سنة 1514م، غير أن بغداد ظلت في يد الصفويين إلى أن طردهم منها السلطان سليمان القانوني وضمها وضم العراق إلى الدولة العثمانية سنة 1534م.

وفي هذه الفترة أيضاً حول العثمانيون تركيزهم من الجبهة الأوروبية إلى العالم الإسلامي بفعل التهديدات الإسبانية والبرتغالية بعد سقوط غرناطة ووصول البرتغاليين إلى الهند وسيطرتهم على الخليج العربي، وبفعل التهديد الصفوي الشيعي لآسيا الصغرى والعراق. وهكذا نجدهم يصطدمون بالصفويين في جالديران، ثم بالمماليك في الشام ومصر حيث استولوا على بلاد الشام سنة 1516م، إثر موقعة مرج دابق قرب حلب، ثم استولوا على مصر سنة 1517م، وانضمت إليهم طوعاً في نفس السنة بلدان شمال أفريقيا – ما خلا مراكش – كما انضمت إليهم الحجاز.

وفي نفس الفترة نجح الروس في دحر قوات مملكة المعسكر الذهبي المغولية سنة 1502م، كما ذكرنا، وبدأوا مسيرتهم الطويلة في التوسع على حساب الأراضي الإسلامية، وفي هذه الفترة أيضاً اتجه بابر لإقامة امبراطورية مغولية في الهند.

ولو حاولنا أن نتخيل الصورة في مشهد عام يجسد المواجهة بين الشرق والغرب ، بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي، بين الشمال والجنوب، فسنجد في الوسط صورة الدولة العثمانية التي تتكون وتندفع في قلب أوروبا الشرقية والوسطى إلى الحد الذي لا تستطيع تجاوزه، وسنجد في الشمال تحركاً أوروبياً مسيحياً يقتلع المسلمين من الأندلس وضغط على الجبهة الإسلامية عبر البحر المتوسط ، ومحاولات الصمود في وجه التوسع العثماني في الشرق ورد العثمانيين إلى الوراء، كما نشاهد ضغط القوة الروسية الناشئة في دوقية موسكو لدفع القوة الإسلامية الممثلة في مغول المعسكر الذهبي وإزالتهم ؛ وفي الوقت نفسه نشاهد جهوداً محمومة يقوم بها البرتغاليون والإسبان للإلتفاف حول العالم الإسلامي وتطويقه، ويثمر هذا الجهد فيصل بهم إلى أميركا وإلى الهند وتنجح رحلة ماجلان المكتشف البرتغالي في الدوران حول الكرة الأرضية، ويفتح عهد السيطرة الاستعمارية الأوروبية على أجزاء العالم غير الأوروبية وغير الإسلامية.

وعلى الجبهة الإسلامية نشاهد تراجعاً يبدو بطيئاً ثم يتسارع؛ فالدولة العثمانية تضم بلاد الشام وشمال أفريقيا وتوقف الزحف الأوروبي إلى حين، ثم تنتزع العراق من أيدي الصفويين

وتحاول حصرهم داخل حدود إيران. وعلى الرغم من تكوين امبراطورية المغول الإسلامية في الهند فإن الطوق الأوروبي يلتف حولها ويبدأ بالتسلل الناعم ثم يتحول إلى العنف. وإذا كانت دولة البعاربة العمانيين قد نجحت في طرد البرتغاليين الذين بدأوا عملية التطويق، وإخراجهم من الخليج العربي ، إلا أن الطوق الأوروبي ما لبث أن اشتد واستحكم بحلول قوى أوروبية جديدة محل البرتغاليين.

وقد حاول المؤرخون الأوروبيون في عصرنا إلباس هذا التحرك الأوروبي ثوباً مبرأ من التعصب الديني ووصفه بأنه مجرد حركة كشوف جغرافية لتحقيق أهداف تجارية فإن الحقيقة المؤكدة تظل واضحة لكل ذي بصيرة ، وهي أن هذا التحرك بكل أجزائه كان مترابطاً ذا محور واحد في بدايته هو رد وهزيمة الدفع الإسلامي والقضاء عليه. ولا مراء في أن الأهداف الاقتصادية وروح الكشف والمغامرة كانت موجودة ؛ لكن محاولة إخفاء دافع الصراع الرئيسي ضد العالم الإسلامي باعتباره المحور الأول والأهم، خلال المرحلة الأولى على الأقل، لا تعدو أن تكون محاولة خداع وتضليل.

وسنجد مؤرخاً بريطانياً منصفاً، من مشاهير المؤرخين وفلاسفة التاريخ المعاصرين، يلخص الحقيقة عارية بكل وضوح في سطور قليلة إذ يصف عملية الكشوف الجغرافية وحرب أوروبا ضد العالم الإسلامي في إطار واحد بقوله :

" حقاً لقد نجح الغرب قبل نهاية القرن السادس عشر في أن يلقي وهقاً [8] حول عنق الإسلام،

بفضل فتحه للمحيط [9] ، ولكنه لم يتجرأ – حتى القرن التاسع عشر – على أن يشد الحبل ليضغط على عنق فريسته ".

“ Indeed, before the end of the sixteenth Century, the West, thanks to its conquest of the Ocean, had succeeded in throwing a lasso round Islam’s neck; but it was not till the nineteenth Century that the West ventured to pull the rope tight “[10] .

وفي نهاية هذه المرحلة من الصراع سيطر الغرب على جميع قارات العالم كما سيطر على البحار والمحيطات وطرق المواصلات. وبجانب ذلك فقد سيطر على التجارة والصناعة ومصادر المواد الخام، فضلاً عن تحكمه في العلاقات الدولية. وعندئذ شد طرفي حبل الوهق وضغط على عنق العالم الإسلامي حتى لفظت الدولة العثمانية أنفاسها، ومزقت أراضيها أسلاباً وغنائم للمنتصرين. ومن قبل كان الغرب قد سيطر على الأطراف الإسلامية البعيدة التي انتشر فيها الإسلام عن طريق التجارة والدعاة الأفراد، مثل الفليبين وأندونيسيا وماليزيا والمالديف وبلدان أفريقيا الواقعة جنوب الصحراء. وانتهت هذه المرحلة لتبدأ مرحلة جديدة، مرحلة صراع الشعوب الإسلامية من أجل التحرر والنهوض، وهي ما زالت مستمرة.

---

8 - الوهق حبل تعقد به عقدة مشكلة طوقا واسعا يقذف به الصياد حول عنق فريسته، إنسانا أو حيوانا ، ليشد الحبل ويجذب الفريسة نحوه.

9 - يقصد اكتشاف المحيطات والسيطرة عليها.

10 - Arnold Toynbee, ***Civilization on Trial and The World and the West***, New York: The World Publi-Shing Co. p. 248.

الدولة العثمانية
1307 – 1918م

ينسب العثمانيون إلى جدهم عثمان، أول رئيس مستقل تولى حكمهم. وهو منحدرون من قبيلة تركية انتقلت من خراسان إلى آسيا الصغرى، حيث دخل زعيمها أرطغرل في اتباع علاء الدين سلطان قونية. وأظهر أرطغرل إخلاصاً وحماسة وشجاعة في خدمة علاء الدين فمنحه منطقة له ولقبيلته، بجانب أملاك الدولة البيزنطية التي انكمشت حول استنبول. وظل أرطغرل تابعاً لعلاء الدين حتى وفاته، فخلفه ابنه عثمان. وعند وفاة علاء الدين أصبح عثمان حاكماً مستقلا، وولدت الدولة التي نسبت إليه.

كانت الجماعة العثمانية من القبائل التركية الجوالة الخشنة الطباع، الشديدة المراس في الحرب، والذين لم يعرفوا طعم الحياة المدنية الناعمة. وعلى الرغم من خشونتهم وأميتهم وعدم معرفتهم بالعربية فقد كانوا شديدي الحماسة للعقيدة الإسلامية التي استوعبوا فكرتها الأساسية ومظاهر شعائرها من غير أن يستوعبوا مجمل مبادئها العقيدية والخلقية والسلوكية.

ومنذ أن استقر العثمانيون في تلك المنطقة أخذوا يوسعون أراضهيم على حساب أراضي الدولة البيزنطية. وحوالي منتصف القرن الرابع عشر تقدموا إلى الأراضي الأوروبية عبر مضيق البسفور، ثم تتابع توسعهم في القارة الأوروبية. ففي سنة 1361م استولوا على مدينة أدرنة Adrianolpe العظيمة واتخذوا منها عاصمة لإمبراطوريتهم وظلت كذلك إلى أن تم لهم فتح استنبول. ومع بدء تهديد العثمانيين لمملكة المجر (هنغاريا) الكاثوليكية تحركت البابوية في روما لتحرض القوى الأوروبية على التصدي للعثمانيين، غير أن التوسع استمر، وما عتم العثمانيون أن أخضعوا جميع أراضي شبه جزيرة البلقان، واقتربت حدودهم من فيينا، عاصمة النمسا، وذلك بالرغم من بعض النكسات التي أصابتهم. وبعد حروب طويلة في القارة الأوروبية التفتوا إلى بقايا الدولة البيزنطية وتمكنت قوات السلطان محمد الفاتح من الاستيلاء على مدينة استنبول سنة 1453م وإزالة هذه الإمبراطورية العتيقة التي عمرت أكثر من ألف سنة. وبعد استيلاء السلطان سليمان على مدينة بلغراد ببضع سنوات نجده يقود جيشاً قوامه ربع مليون جندي وقوة من ثلاثمائة مدفع ليحاصر فيينا سنة 1529م. وعلى الرغم من فشل هذه الحملة فقد عاود العثمانيون حصار عاصمة الإمبراطورية النمساوية بعد قرن ونصف، أي سنة 1682م، لكن هذه الحملة كانت كارثة على العثمانيين. وخاض العثمانيون حروباً طويلة ضد بولندا وروسيا القيصرية، وغيرهما من الدول، في الوقت الذي انتشر فيه الفساد والضعف في إداراتهم ونظامهم المدني والعسكري، هذا بينما كانت أوروبا تسرع الخطى نحو العصر الحديث. وأخذت الدولة العثمانية في التراجع السريع وفقدت الكثير من أراضيها. وفي القرن التاسع عشر الميلادي لم تتمكن من الاستمرار إلا بسبب عدم اتفاق الدول الأوروبية الكبرى على كيفية تقسيم أراضيها فيما لو أزيلت. ثم جاءت الحرب العالمية الأولى ولفظت الدولة العثمانية أنفاسها تحت أقدام المتزاحمين المتصارعين في حلبتها، وسرعان ما مزقت الجثة الهامدة وتقاسم أشلاءها الغالبون.

الفصَل الثَّـاني

التطور الفكري والعلمي

نشأة الحركة العلمية :

كانت الأمية هي الصفة الغالبة في شبه الجزيرة العربية، وكان محمد رسول الله نفسه أميّاً. وفي كل من مكة والمدينة كان عدد الذين يعرفون القراءة يعد على الأصابع. بل إن أولئك الذين كانوا يعرفون القراءة لم يكونوا على درجة كبيرة من العلم، حتى بمقاييس ذلك العصر، وكل ما كان لديهم مجرد معرفة سطحية بالقراءة والكتابة. أما بقية السكان فكانوا أسرى الأمية والجهل المطبق. وعندما جاء الإسلام وجههم إلى التفكير في ما هو أبعد مما تحت أقدامهم ومن مصالحهم المادية القريبة؛ لقد جعلهم يفكرون في الكون ونظامه للتعرف على خالقه، وجعلهم يفكرون في الحياة ضمن نظره أشمل، تتخطى حدود القبيلة والبلدة الصغيرة لتشمل الأمة التي ترسم حدودها العقيدة، وتشمل المجتمع البشري كله. وهذا – في حد ذاته – يمثل تطوراً عقلياً مهماً يضع قاعدة لانطلاق أكبر عندما تتوافر عوامل مساعدة أخرى. ولقد مر معنا أن الإسلام أكد قيمة العلم، وأن أول كلمة تلقاها محمد من ربه هي كلمة " اقرأ ". ومر معنا كذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اعتبر قيام الأسير بتعليم القراءة والكتابة لعدد من المسلمين فدية يتخلص به من الأسر. وسنحاول الآن متابعة التطور العلمي بعد عصر الرسول، وبشكل شديد الإيجاز طبعاً.

بعد وفاة رسول الله توسع المجتمع الإسلامي توسعاً سريعاً من الناحية الجغرافية، بفعل حركة الفتح، ومن الناحية العددية، بدخول قبائل وشعوب أخرى في الإسلام، ومن الناحية الحضارية عن طريق الاحتكاك المباشر والمخالطة المكثفة لشعوب كانت أعلى مستوى في مضمار الحياة المدنية والاجتماعية. وهذه المخالطة واجهت العرب المسلمين بمشكلات جديدة، منها ما يتعلق بالحاجات التشريعية، ومنها ما يتعلق بالمثل السلوكية، ومنها ما يتعلق بحماية لغة المجتمع وعقيدته وثقافته الإسلامية. فعندما كان رسول الله على رأس المجتمع الإسلامي الأول كان يتلقى القرآن وفيه التشريع والتوجيه ، وكان الرسول يفسر ما أجمله القرآن، من خلال أحاديثه وسلوكه وتوجيهه وإدارته لشؤون المجتمع. وبعد وفاة الرسول بقي القرآن، وبقيت سنة رسول الله مصدرين للتشريع والهداية. ولكن الوضع تغير بعد دخول قبائل العرب كلها في الإسلام، وبعد فتح الشام والعراق وفارس وشمال أفريقيا. فالقرآن الكريم جاء بلجهة قبيلة قريش التي كان من أبنائها محمد النبي صلوات عليه، والمسلمون الأولون. غير أن بلاد العرب ولغة العرب عرفتا لهجات متعددة، شأنهما شأن بقية الأمم واللغات. كذلك فإن سكان العراق وبلاد الشام ومصر كانت لهم لغات تختلف عن لغة الجزيرة العربية، خاصة في المدن، وإن كانت تلك اللغات وثيقة الصلة باللغة العربية، من حيث وحدة الأصل، ووحدة التركيب، والاشتراك في عدد كبير من المفردات، بجانب أن قسماً كبيراً من السكان

– خاصة في الشام والعراق – كانوا عرباً خالصي العروبة، وكانت لغتهم عربية لا شائبة فيها. أما سكان بلاد فارس ووسط آسيا ومصر وشمال أفريقيا فلم تكن لغاتهم عربية. ومع دخول جماعات من كل هذه الأقوام في الإسلام لم يكن من السهل على المسلمين الجدد أن يفهوا القرآن كما كان يفهمه صحابة رسول الله، ممن عاشوا معه في مكة والمدينة. وهكذا بدت الحاجة ملحة إلى القيام بعمل يسهل فهم القرآن الكريم للأجيال الجديدة من المسلمين.

عــلــوم الــقــرآن :

واستلزم تفسير القرآن وشرحه نشأة علم التفسير ، وارتبط بعلم التفسير الاهتمام باللغة العربية، فهي لغة القرآن. ولم تكن هناك معاجم تضم مفردات العربية لتكون مرجعاً، كما أن قواعد اللغة وإن كانت موجودة في الواقع العمــلي إلا أنها لم تكن قد استنبطت ودونت. لقد استعملها العرب بالسليقة، ولم يقم أحد باستخراج القواعد وتحديدها قبل الفترة التي نتحدث عنها. كذلك فإن التراث اللغوي، الشعري والأدبي لم يكن مدوناً، بل كان الناس يحفظونه في ذاكرتهم ويتناقلونه مشافهة. وهكذا دعت الحاجة إلى الاهتمام باللغة العربية خدمة لعلوم القرآن. ولقد عرفنا – من خلال الفصول السابقة – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تلقى القرآن مفرقاً، خلال ثلاثة وعشرين عاماً، حيث بدأ يتلقاه في مكة مع بدء الرسالة وظل يتلقاه إلى ما قبل وفاته. ومن المعروف كذلك أن نزول الآيات جاء مرتبطاً بالأحداث التي عاشها الرسول ومجتمع مكة ومجتمع المدينة ؛ أي أن كثيراً من الآيات جاءت – كل منها – مرتبطة بحادثه معينة في حياة رسول الله أو في حياة المجتمع الإسلامي الأول. وكانت بعض الآيات قد تناولت سلوك أفراد وجماعات من غير المسلمين، ممن كانت لهم بالمسلمين علاقات سلمية أو حربية. ولا مراء في أن معرفة الظروف والملابسات التي نزلت بشأنها الآيات تعتبر شرطاً لازماً لفهم هذه الآيات وفهم ما تتضمنه من توجيهات. وهكذا بدأ الاهتمام بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالتاريخ بشكل عام.

علوم الحديث النبوي :

وكان رسول الله يوجه الأفراد والمجتمع الإسلامي في كل ما لم يأت القرآن بتفصيله مما يتعلق بالحياة اليومية للمجتمع الناشئ، كما كان يفسر ويطبق تعليمات القرآن الكريم. وقد كرر هذا القول في مناسبات كثيرة جاء في أحدها قوله : " تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، كتاب الله وسنتي .. ." ويؤثر عن رسول الله أنه منع المسلمين من كتابة أحاديثه حتى لا يختلط بعضها بنصوص القرآن الكريم، وحتى لا يتوهم البعض أن لها درجة من القداسة مساوية لدرجة القرآن. ومع ذلك فقد ورد في المصادر أنه أذن لنفر من صحابته – عندما استأذنوه – أن يدونوا حديثه لأنفسهم، ربما لقصورهم في الحفظ، أي لكثرة نسيانهم، لكنه لم يسمح بكتابته بإذن عام. ولذا كان المسلمون يتناقلون الحديث بالحفظ والنقل الشفهي. وبعد حركة الفتح الإسلامي، وعلى أثر تحول أعداد كبيرة من أهل البلاد المفتوحة إلى الإسلام ، بجانب أبناء الجزيرة العربية، شعر قادة المجتمع الإسلامي بالحاجة الماسة إلى تدوين الحديث باعتباره المصدر الثاني للتشريع والتوجيه والتربية والهداية، بعد القرآن الكريم. وعلى الرغم من تقديس المسلمين الأتقياء لحديث رسول الله وتحريهم أقصى درجات الدقة في نقل الحديث وتداوله فإن عملية التدوين لم تكن بالأمر السهل. فقد حدثت الانقسامات السياسية والمذهبية ، واندلع الصراع السياسي والمذهبي قبل أن تبدأ عملية تدوين الحديث ، ونتج عن ذلك أن حاول بعض الفرقاء أن يستغلوا اسم رسول الله بأن ينسبوا إليه أحاديث لم يقلها. وقد صاغوها على نحو يدعم مطالبهم وادعاءاتهم. ولذا فقد وقع على كاهل علماء الحديث

عبء ثقيل أثناء عملية التدوين وذلك ليخلصوا الأحاديث الصحيحة من تلك الأقوال التي نسبت إلى رسول الله زوراً. وهكذا خضعت عملية التدوين هذه إلى تدقيق وتحر بذل فيهما العلماء جهوداً تشبه المعجزات. وكان طبيعياً أن يقود ذلك إلى الاهتمام بكل تفاصيل حياة رسول الله لارتباط أحاديثه بعلاقاته مع الناس ومواقفه منهم. وهكذا ساهم علم الحديث في دفع المفكرين والعلماء إلى كتابة سيرة الرسول، وتاريخ المجتمع الإسلامي الأول، وتاريخ المجتماعات الإسلامية في أحوالها السابقة عل الإسلامن سواء من العرب أو غيرهم.

وفي مجال تدقيق الحديث نشأ علم فريد خاص بالمسلمين، لم تعرفه الأمم والحضارات الأخرى، وهو " علم الرجال " وقد عرف أيضاً باسم " علم الجرح والتعديل " فالشخص الذي يروي الحديث المنسوب إلى رسول الله لا بد أن يذكر ضمن الرواية اسم الشخص الذي نقل عنه، ثم اسم من نقل عن الراوي الذي سبقه، وهكذا، بشكل تصاعدي، حتى يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا مثل حي من صحيح البخاري : (قال البخاري : حدثنا عبدالله بن محمد، حدثنا هشام، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا ، أو : ليصمت") . ففي هذا المثال نجد ستة أشخاص يفصلون بين النبي ، صلى الله عليه وسلم ، والبخاري؛ وقد ولد البخاري بعد 184 سنة من وفاة رسول الله.

وقد اشترط المشتغلون بتدوين الحديث أن يكون كل واحد من الرواة، في سلسلة السند، عدلاً، وضابطاً. والعدل هو من تتوفر فيه الأمانة والصدق والاستقامة ولا يعرف عنه تصرف ينقض ذلك. لكن الشخص قد يكون عدلاً ومع ذلك يقع في الخطأ لقصور في دقته وضبطه، مهما كان حظه من حسن النية. والذي يقابل العدل هو المجروح، والذي يقابل الضابط، هو كثير النسيان، أو غير الدقيق في ألفاظه. وقد استلزمت هذه العملية التحقق من كل شخص من الرواة في سلسلة السند، التحقق مما إذا كان حياً في الفترة التي يفترض أنه عاش فيها، وما إذا كان قد قابل الراوي الذي سبقه وتلقى هو منه، والراوي الذي لحقه وأدى هو إليه. وهذا الأمر استدعى البحث عن سنة مولد وسنة وفاة كل واحد من هؤلاء الأشخاص وخط سير حياته. ومن ناحية أخرى فقد لزم البحث عن انتماءاته القبلية والعرقية، والمذهبية، وما إذا كان قد دخل في صراعات أو خصومات. وكان الواحد من العلماء الذين دونوا الحديث يسافر أشهراً طوالاً، وأحياناً سنوات ليتتبع حديثاً، يقابل المحدثين ليتتلمذ عليهم، أو ليتحقق من أحد رجال السند ويجمع معلومات عن حياته. وهناك آلاف الأمثلة نذكر واحداً منها فقط، نظراً لضيق مجال البحث ؛ فهذا محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن القيسراني، ولد في القدس عاصمة فلسطين ، وكان من الرحالين في طلب العلم والحديث حيث رحل إلى الحجاز والشام ومصر والثغور والجزيرة والعراق والجبال وفارس وخوزستان وخراسان واستوطن همدان، وتوفي ببغداد [11]. ونحن لا نزعم أن جميع المشتغلين بعلم الحديث كانوا بهذا المستوى من حيث جهدهم وسعيهم ، ومن حيث تدقيقهم وتحريهم لكافة التفاصيل التي أشرنا إليها .

وهكذا ظهر نوع من المؤلفات عرفت باسم " كتب الطبقات " أو " كتب الرجال " حيث جمع المؤلف أسماء الرجال الذين تخصصوا في علم معين ليرتبهم حسب سني وفاتهم، أو حسب الترتيب

[11] - القاضي شمس الدين أحمد بن خلكان ، ***وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*** ، مجلد 3 ، ص 415 – 416.

الأبجدي لأسمائهم ويتبع كل اسم بسيرة مختصرة لصاحبه قد تكون بضعة أسطر أو صفحات وقد تصل إلى عشرات الصفحات، حسب أهمية صاحب الترجمة، أو حسب المعلومات المتوافرة عنه. وكان المؤلفون يهتمون بشكل خاص بذكر سنة الولادة – إن توفرت – وسنة الوفاة، والرجال الذين تلقى الحديث أو العلم عنهم والتلاميذ الذين درسهم، والأماكن التي سافر إليها وتعلم وعلم فيها، وأسماء مؤلفاته، والعلوم التي عرفها أو تخصص فيها. وفي هذا الإطار نجد كتباً في طبقات المحدثين، والفقهاء، والمفسرين، وكتباً في طبقات الشعراء، والنحويين، والأطباء، وغير ذلك أي أن الطريقة امتدت لتشمل ميادين علمية أخرى غير الحديث. وهناك كتب تتناول العلماء الذين عاشوا، أو توفوا في قرن و احد.

سير الصحابة :

وبالرغم من أن أقوال الصحابة وأعمالهم ليست مصدراً للتشريع الإسلامي إلا أنها اعتبرت مما يستأنس به ويلتمس فيه نوع من القدوة. وقد قام هذا المفهوم وهذا التقدير لصحابة رسول الله لفضل صحبتهم للرسول صلى الله عليه وسلم، وقربهم منه وسماعهم توجيهاته مباشرة وغير ذلك مما تثمره الصحبة الصالحة. وعلى ذلك فقد اهتم المسلمون بسير الصحابة وتتبعوا أخبارهم، خاصة كبار الصحابة، الذين قادوا المجتمع الإسلامي بعد وفاة رسول الله. وهكذا ظهرت كتب كثيرة تضم تراجم الصحابة وتستقصي كل ما أمكن استقصاؤه عن حياتهم، فساهم هذا الاهتمام كذلك في تطور ونمو هذا اللون من النشاط العلمي، كما ساهم في تطور كتابة التاريخ.

العلوم الفقهية والدينية :

كان مجتمع الجزيرة العربية بسيطاً في تركيبه عندما ظهر الإسلام ؛ وهكذا كانت الحال عندما أسس رسول الله دولة الإسلام في المدينة. لكن الأمر تغير عندما انضمت إلى الدولة الإسلامية مدن وأقاليم عريقة في الحضارة، كانت تعتبر أغنى أقطار العالم وأكثرها حضارة، خاصة مصر وبلاد الشام والعراق وفارس. فقد أصبح التركيب العرقي والثقافي واللغوي والاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الإسلامي في غاية التعقيد والتشابك. ومع توسع الحياة المدنية وازدهار التجارة والصناعة وتجمع الثروات ازدادت حاجة المجتمع إلى الفكر الفقهي الذي يبين الحلال والحرام وما يجب عمله وما لا يجب عمله. ولم تكن هذه الحاجة لمجرد المعرفة الثقافية والعلم، وإنما احتاجها القضاة والمتخاصمون والحكام والمحكومون على السواء. وهكذا أخذت العلوم الفقهية تنمو وتتطور حتى بلغت درجة عالية من الرقي . وفي القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) أسس محمد بن إدريس الشافعي علم أصول الفقه، أي أنه وضع القواعد والضوابط والمناهج التي يستخدمها الفقهاء في استنباط الأحكام الشرعية، وطرق الاستدلال والإثبات والنفي في هذا الميدان. وقد سبق الشافعي بذلك كل علماء الفقه والتشريع في جميع الأمم. وما لبثت أن ظهرت وتطورت أساليب التفكير والنظر في المجالات الفقهية، فظهر العديد من المذاهب، وانتشرت المناظرات والجدل الفكري، وزادت الانقسامات والصراعات السياسية من حدة هذا الجدل في كثير من الأحيان.

علوم اللغة والأدب :

اللغة العربية هي لغة القرآن، ولقد كانت غنية مكتملة وراقية قبل مجيء الإسلام، على الرغم من بدائية الحياة في شبه الجزيرة العربية. وربما يبدو قولنا هذا غريباً ويحمل القارئ على عدم التصديق. ولذا فإنني سأقتبس هنا شهادة عالم غربي هو من أكبر المتخصصين في الأدب العربي والدارسين له في عالم الغرب ، وهو الأستاذ H.A.R. Gibb ، حيث يتحدث عن اللغة العربية قبل الإسلام فيقول :

" إن الجانب الأكثر إثارة للانتباه في الأدب العربي أنه ظهر بصورة غير متوقعة ، لقد ظهر فن أدبي مكتمل البناء دون أن تسبقه أية إرهاصة محسوسة تنم عن هذا القادم الجديد، الذي بلغ – في الغالب – درجة من الكمال لم تساوها أو تضاهها، أي من أعمال شراح هذا الأدب في الأجيال التالية. إن عنصر المفاجأة هذا لم يظهر في أي بيئة بنفس درجة الإثارة التي صاحبت ظهور الأدب العربي أول مرة أداة للتعبير. ففي لحظة واحدة بدت جزيرة العرب – من الناحية الأدبية – فارغة مقفرة، باستثناء بعض النقوش النَّذْرِيَّة، أو الشبيهة بالتجارية ، كتبت بلهجات متنوعة. وفي اللحظة التالية لها مباشرة تقفز أمام أنظارنا فجأة جماعات من الشعراء في كل أرجاء الجزيرة العربية، تنشد قصائد معقدة التركيب تتناول فيها سلسلة من الموضوعات بقوة في التعبير، والخيال المتألق، والصور الشعرية الدقيقة ، في لغة غنية بدرجة لا حدود لها، وبألفاظ في غاية الوضوح لا يكاد يظهر فيها أي أثر للهجات المحلية، تندفع من خلال بحور عروضية معقدة ومرنة في الوقت نفسه، تتفق أصواتها ونغماتها طوال القصيدة. ويشاركنا الشعور بالدهشة علماء فقه اللغة العرب الذين عاشوا في العصور التالية لهذا الظهور المفاجئ [12] ".

وكان العرب يعتزون بلغتهم وفصاحتهم اعتزازاً لا مزيد عليه. ولذا جاء رسول الله يتحداهم بالقرآن، فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، سورة واحدة، على اعتبار أنه كلام الله، وأن جميع البشر عاجزون عن الإتيان بما يساويه فصاحة وبلاغة ومحتوى.

بهذه اللغة خرج عرب الجزيرة العربية عندما فتحوا الأقاليم الواسعة في آسيا وأفريقيا. وفي الفترة التالية للفتح مباشرة عاش الغالبون والمغلوبون تحت تأثير صدمة التغيير، فكان هناك انفصال بين الأقلية العربية المسلمة وبين الذين لم يعتنقوا الإسلام، سواء من العرب أو من غير العرب. كان العرب المسلمون حكاماً وجنداً، في مرتبة أعلى، بينما عاش المغلوبون – باستثناء من أسلم – في موضع المهزوم.

لكن هذا الوضع أخذ يتغير بالتدريج، لا سيما في ظل التسامح الديني الذي أبداه الفاتحون، بجانب المعاملة العادلة والرقيقة في الجوانب الإدارية والمالية بالقياس إلى ممارسات الحكام السابقين من الرومان والفرس الساسانيين . وقد أخذت تتزايد موجات التحول السريع والواسع إلى الإسلام؛ أي أن المجتمعين المنفصلين أخذا يتحولان بالتدريج إلى مجتمع واحد ، وبلغ هذا التطور ذروته بعد نجاح الثورة العباسية سنة 132هـ / 750م. وفي المجتمع الجديد، الموحد، وجد العرب أن لغتهم

---

[12] - H.A.R. Gibb, ***Arabic Literature, An Introduction***, 2nd ed. (Oxford: the Clarendon Press, 1963), p..13.

إنني أرى أن التطور لم يحدث بين لحظة وأخرى كم ذكر الأستاذ غب ، وأعتقد أن هناك فترة تطور طويلة لم يدون انتاجها الشعري، ولم يحفل أصحاب الروايات الشفوية بنقله لعدم اهتمامهم بالنصوص ذات المستوى المتواضع . (المؤلف).

أصبحت مهددة، خاصة في مجتمع المدن. ولم يكن هذا الخطر على اللغة مجرد خطر على الهوية العربية، بل كان خطراً على اللغة باعتبارها وعاء الفكر والعقيدة الإسلامية ووسيلة فهمهما وممارستهما وتطبيقهما. ولا يغيبن عن البال أن اللغة العربية اكتسبت نوعاً من القداسة لكونها لغة القرآن الكريم. وهكذا ظهرت الحاجة ماسة إلى القيام بعمل علمي ضخم في ميدان اللغة يرمي إلى تحقيق هدفين :

أولهما : حماية اللغة العربية من الذوبان في طوفان اللهجات المحلية ولغات الأقوام الذين دخلوا في الإسلام من غيرالعرب وأولئك الذين احتفظوا بعقائدهم ولكنهم أصبحوا جزءاً من المجتمع، يتمتعون بحمايته ويمارسون حياتهم ونشاطهم فيه.

وثانيهما : توفير الوسائل التي تمكن المسلمين الجدد، ومجتمع المدينة من معرفة اللغة العربية لفهم القرآن ولفهم تعاليم الإسلام وأداء الصلوات . وزاد من أهمية هذا الدافع أن اللغة العربية أصبحت لغة الحكم والإدارة، وصار على الإداريين المحترفين من أهل البلاد المفتوحة أن يتعلموا العربية ليمكنوا من الاستمرار في وظائفهم.

وهكذا قام العلماء بأول عملية لجمع مفردات اللغة العربية في معجم واحد، وتتابع ظهور المعاجم بعد ذلك. وقد حرص اللغويون على أخذ مفردات اللغة من البدو سكان الصحراء، وتجنبوا لغة المدن التي اختلطت فيها اللهجات واللغات. كذلك استنبط اللغويون قواعد اشتقاق الألفاظ، وقواعد النحو. وشمل هذا النشاط – في ما شمل – استنباط أوزان الشعر العربي، ودراسة أساليب البلاغة ومعايير النقد الأدبي.

علوم أخرى:

على أن البلاد المفتوحة لم تكن متلقية من العرب المسلمين فقط وإنما كان لديها ما تقدمه لهذه الحضارة الجديدة التي أنشأها الإسلام، وساهم فيها العرب المسلمون، كما ساهمت فيها كل شعوب المناطق التي انضوت تحت راية الدولة الإسلامية. ولقد أشرنا في الفصل التمهيدي إلى أن العراق ومصر وبلاد الشام كانت مهد الحضارات الإنسانية الأولى، و أن جذوة الحضارة ظلت تتألق فيها حيناً وتضعف فترة أخرى لتشتعل من جديد ، آلاف السنين ، فتراكم فيها رصيد عظيم . ويميل الباحثون الأوروبيون عادة إلى نسبة كل إنجاز أحرزته البشرية إلى أنفسهم، خاصة إلى الإغريق والرومان. لكن الحقيقة أن الحضارات القديمة للبلدان العربية كانت هي المنبع. فتذكر الروايات الإغريقية القديمة أن فيثاغورس Pythagoras قد تعلم في بابل (في العراق) على أيدي أساتذتها. وكان أفلاطون Plato تواقاً لزيارة الشرق للدراسة هناك، لكن الحرب الفارسية الإغريقية حالت دون تحقيق رغبته. وقد كان سقراط، ودينون، وأيودوكس، وغيرهم من مشاهير الفلاسفة الإغريق يفخرون بحصولهم على علوم الشرق ومعارفه[186].

ثم جاء الفتح الإغريقي لمصر وبلاد الشام والعراق وفارس على يد الإسكندر المقدوني، بين سنتي 332 – 323 قبل الميلاد فالتقت الحضارتان الشرقية والغربية، وتأثرت كل واحدة منهما بالأخرى. وقامت في مصر وبلاد الشام والعراق وفارس مدارس مشهورة للفلسفة الإغريقية، خاصة مدرسة الإسكندرية. ثم ظهرت مدرسة أنطاكية في نهاية القرن الإسلامي الأول على أثر انتقال نشاط مدرسة الإسكندرية إليها ، أي إلى أنطاكية نفسها.

وهكـذا ورثت الحضـارة الإسلامية هذا التراث القديم من الهندسة والرياضيات والطب والفلك و الفلسفة. وقد أخذت هذه العلوم تنتقل من خلال الترجمة والنقل الواعي، وكذلك من خلال أولئك الذين تحولوا إلى الإسلام. وقد تبنى الحكام المسلمون – خاصة في العصر العباسي الأول – ترجمة الكتب من اليونانية إلى العربية؛ وكان الخليفة المأمون، المتوفي 218هـ / 833م هو أبرز من اهتم بالترجمة من بين الخلفاء وأنـفـق عليها أموالاً كثيرة ؛ وشارك الأفراد في هذا النشـاط بمبادرات ذاتية.

ولم يكتف المسلمون بمجرد الترجمة، بل إنهم نقحوا وطوروا وصححوا، وأضافوا إضافات نوعية في كل هذه العلوم، مما لا يتسع المجال لذكره في هذه العجالة. وتبرز أمامنا أسماء عربية وإسلامية كبيرة مثل يعقوب الكندي، وجابر بن حيان، والرازي، وابن سينا، والحسن بن الهيثم، وابن النفيس، وأبو القاسم الزهراوي ، وغيرهم ممن اشتغلوا بالفلسفة، والطب والكيمياء، والبصريات، وأجروا التجارب. ويعلق الأستاذ D. M. Dunlop الأستاذ بجامعة كولومبيا في نيويورك على طريقة الكندي في محاولة تصويب بعض آراء أرسطو، فيقول إن شهرة أرسطو واحترام الكندي له لم يمنعاه من نقد آرائه [187]. وقد بنى الكندي نقده لرأي أرسطو على أسباب نظرية، بيّنها في البداية، ثم اختبرها عن طريق التجربة. ويضيف الدكتور دنلوب :

A modern scientist scarcely be more scrupulous, and he might very well be much more dogmatic about contemporary theory.
The examples given show al – kindi's recognition of the value of direct observation and his willingness to use experiment, involving in the second case the construction of a special piece of apparatus. [188]

أما الطبيب أبو بكر محمد بن زكريا الرازي فيصفه الأستاذ مايرهوف بأنه أعظم الأطباء المسلمين، وأنه من أعظم الأطباء في العالم في كل عصور التاريخ ؛ وقد ولد الرازي سنة 251هـ / 865م وتوفي سنة 313هـ/ 925م. ومن أشهر كتب الرازي التي ترجمت في أوروبا الغربية كتاب ***المنصوري*** ، الذي ترجمه إلى اللاتينية Gerard of Cremona في القرن الثاني عشر الميلادي، بعنوان ***Liber and Almansorem*** بينما ترجم كتابه الأكبر في الطب، وهو كتاب الحاوي، في القرن الثالث عشر الميلادي[189].

أما الطبيب ابن سينا فقد ولد عام 370هـ / 980م وتوفي سنة 428هـ / 1037م. وقد ظل كتابه القانون في الطب يستعمل باعتباره كتاباً دراسياً جامعياً Text-book في أوروبا الغربية حتى القرن السابع عشر الميلادي.

وقد اهتم الأطباء المسلمون بالطب السريري، وتشخيص الأمراض، والمعالجة النفسية وعلاقة الطبيب بالمريض، والمداواة بالعقاقير الكيماوية، بجانب الاهتمام بالتعاريف الطبية العامة، والأطعمة والعقاقير وأثرها في الجسم الإنساني، والنظام الحياتي للمحافظة على الصحة، والعناية بالأم والطفل، والأمراض الجلدية، ونظافة الفم، ونقاوة الماء والهواء، وأثر المناخ والبيئة في الصحة. ولقد وضع الطبيب الأندلسي عريب بن سعد القرطبي كتاباً في أمراض النساء، وعلم الأجنة.

وكان المسلمون أول من أنشأ المستشفيات، الحكومية منها والأهلية، وكانت المستشفيات الإسلامية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تستقبل الرجال والنساء في أجنحة منفصلة. وكان المستشفى العضدي الذي أنشئ في بغداد حوالي منتصف القرن العاشر الميلادي له جهاز يضم أربعة وعشرين طبيباً، وله مبان تضم قاعات للمحاضرات ومكتبة يصرف عليها بسخاء، وأماكن إقامة للطلبة. وكان الطلبة يتلقون رواتب لينفقوا على أنفسهم ، وكانت كل هذه المصروفات تأتي من ريع الأوقاف الكبيرة التي كانت تخصص لهذه المؤسسات التي انتشرت في معظم المدن الإسلامية الكبيرة. وهناك أمثلة لمستشفيات متنقلة كانت تصاحب الجيوش في تحركاتها.

وقد بلغ تقدم المسلمين في طب العيون ذروته أواخر القرن الحادي عشر الميلادي بدراسة وضعها طبيب العيون البغدادي علي بن عيسى، الذي كان كتابه المعنون " ذخيرة الكحالين " ملخصاً جامعاً لكل منجزات الماضي. وفي نفس الفترة كان هناك طبيب آخر في الموصل اسمه عمار بن علي الموصلي هو أول من ابتكر طريقة امتصاص الماء الضار من العين لتلافي فقدان البصر، مستخدماً إبرة مجوفة. وقد عاد إلى إحياء هذا الأسلوب الطبيب الفرنسي (بلانشيت) عام 1846م. وقد أورد كل من الطبيب أبي القاسم خلف الزهراوي ومحمد بن قسوم الغافقي في كتابيهما الطبيين صور الآلات الجراحية التي كانا يستعملانها. وقد تناول الزهراوي في موسوعته الطبية فن التوليد وطب الأطفال، والقبالة، بالإضافة إلى التشريح العام للجسم البشري ، وخصص المقالة الأخيرة منها للجراحة، والعلاج بالكي، ولأم الجروح، ونزع السهام من الجسم، وصحة نمو الأسنان وتركيبها في الفم، وتجبير كسور العظام البسيطة والمضاعفة. واستعمل الزهراوي المطهرات في علاج الجروح والإصابات الجلدية، وابتكر خيوطاً للجراحة من أمعاء الحيوان، ومن الحرير والصوف، واستحدث أساليب لتوسيع المسالك البولية، ولفحص تجاويف الجسد جراحياً. وكان يستخدم في عملياته ما يقرب من مئتي أداة جراحية صمم أغلبها بنفسه ووصفها في كتبه.

وقد اهتم المسلمون بعلاج الحيوانات، وألفوا في ذلك الكتب، فضلاً عن اهتمامهم البالغ بالصيدلة وعلم الأدوية. والحقيقة أن الصيدلة لم تصبح علماً مستقلاً ومهنة معترفاً بها إلا في رعاية المسلمين حيث ارتقت إلى هذا المستوى حوالي نهاية القرن الثاني للهجرة (أي حوالي سنة 816م) حيث افتتحت لأول مرة صيدليات خاصة في عاصمة الخلافة العباسية بغداد. ثم ما لبثت الصيدليات أن انتشرت في مختلف مدن الدولة الإسلامية. وكانت المستحضرات الصيدلية تركب وتوزع تجارياً في الأسواق.

صورة لصفحة من الترجمة اللاتينية التي عملها بيتر ارجيلاتا سنة 1531م لكتاب الطبيب المسلم أبي القاسم خلف الزهراوي في علم الجراحة. وتظهر الصورة الأدوات الجراحية التي كان يستعملها الزهراوي المتوفي سنة 1013م.
وأصل هذه الصورة محفوظ في مكتبة الطب الوطنية في الولايات المتحدة الأمريكية
(National Library of Medicine, Bethesda, Maryland 20014,) U.S.A.

رسوم لبعض الأدوات التي استخدمها الطبيب الزهراوي في جراحة الفم والأسنان وقد وردت في إحدى صفحات كتابه الذي يحمل عنوان : كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف. ومخطوط الكتاب محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم Arabe 2953, folio 40 r . والرسوم ملونة في الأصل وقد توفي الزهراوي سنة 1013م.

وهناك المئات من العلماء المسلمين في الطب، والصيدلة والكيمياء والميكانيكا، والبصريات والزراعة والفلك والموسيقى ممن كان لهم سبق كبير في علومهم. وقد ترجمت مئات من كتبهم إلى اللغة اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، فكانت أساساً ومنطلقاً للنهضة الأوروبية أواخر العصور الوسطى. ولا يتسع المجال هنا حتى لضرب الأمثلة، لأن هذا ميدان واسع ، وقد أُلفت في كل فرع من فروعه كتب صنفها مؤلفون من المسلمين، وكتب ألفها غربيون تناولت الكثير من إنجازات الحضارة الإسلامية وفضلها على الحضارات الإنسانية، وسنكتفي بذكر بعض هذه الكتب ليتسنى لمن أراد الاطلاع عليها، مقتصرين على كتب من تأليف العلماء الغربيين غير المسلمين، لإبعاد مظنة التحيز [190].

الـفـنـون :

يستحيل علينا أن نلخص الحديث عن الفنون الإسلامية بشكل يمكننا من إعطاء فكرة ولو في حدود الخطوط العريضة عن روعتها ومضامينها وخصائصها الجمالية والروحية، لأن كل قطعة فنية تحتاج إلى وصف وتحليل مفصلين ودقيقين ومتأنيين لإعطاء فكرة شاملة وتصور عميق لما تعنيه. ومع ذلك فإن الوصف يظل أقل دلالة من المشاهدة المباشرة بدرجات كبيرة. ولهذا فإنني سأكتفي هنا بإعطاء بعض الأحكام والتقريرات العامة، ثم نحيل القارئ إلى بعض المراجع التي درس مؤلفوها الفنون الإسلامية بطريقة علمية. والحقيقة أن الدراسات الشاملة للحركات الفنية والإبداع الفني للحضارات لم تظهر إلا في العصر الحديث، على أيدي العلماء الغربيين، فقد درسوا فنون الحضارة الأوربية قديمها وحديثها، ثم درسوا فنون الحضارات والشعوب الأخرى، قديمها وحديثها أيضاً ؛ وكما درسوا الفنون الهندية والبوذية، فقد درسوا الفنون الإسلامية. وما زال دراسو الفن الإسلامي من أبناء المسلمين يتتلمذون على الأساتذة الغربيين، وعلى مؤلفات هؤلاء الأساتذة. ولعل ما ساعد الغربيين على القيام بهذه الدراسة أن دول الغرب الأوروبي فرضت سيطرتها الاستعمارية على جميع الأقطار الإسلامية، وظل الحكم الاستعماري قائماً حتى ما بعد منتصف القرن العشرين. وفي هذه الفترة من الحكم الاستعماري حملوا كماً هائلاً من القطع الفنية الأثرية النفيسة إلى بلدانهم وزينوا بها متاحفهم، بينما بقيت في البلاد الإسلامية الآثار الفنية التي يصعب نقلها، خاصة المباني

وما التحق بها، مثل المساجد، والمدارس، والقلاع، وأسوار المدن، وغيرها. وتنتشر هذه الآثار المعمارية في المنطقة الممتدة من سمرقند قرب الحدود الصينية إلى مراكش وفاس في المملكة المغربية ، وإلى قرطبة وغرناطة في إسبانيا على مشارف المحيط الأطلسي.

وفي ضوء ذلك يمكن أن نستنتج أن الفنون الإسلامية قد ضمت في ثناياها فنون العديد من الأقطار والقوميات والبيئات الجغرافية والاجتماعية. ومعنى ذلك وجود التنوع والتعدد بكل تأكيد. لكن هذا التعدد وجد في إطار وحدة واضحة وقوية التأثير. وهذه الوحدة انبثقت من روح الإسلام الواحدة، من العقيدة الدينية المشتركة. وهذا المعنى أكده كثير من الباحثين، وعلى رأسهم الأستاذ السويسري Titus Burckhardt، وهو من أكبر المتخصصين في دراسة الفنون، والفن الإسلامي بشكل خاص[191]. ويرى الأستاذ Burckhardt أن الفن الإسلامي يمثل حقيقة الإسلام بكل صدق، وتعبيراً عن هذا المعنى يقول : لو أنك سئلت : ما هو الإسلام ؟ فأشرت بإصبعاك إلى إحدى قطع الفن الإسلامي الفذة، مثل مسجد قرطبة في إسبانيا، أو مسجد ابن طولون في القاهرة، أو إحدى مباني المدارس الإسلامية القديمة في سمرقند، أو إلى تاج محل، فإن هذه الإجابة الموجزة سوف تكون صحيحة، لأن الفن الإسلامي يعبر عن مدلول اسمه دون أن يترك مجالاً للغموض. إن إنجازات الفن الإسلامي تحمل على الرضا، سواء من الجانب الجمالي أو من الجانب الروحي[192].

ويشير الأستاذ جرابار إلى أثر الثقافة العربية الإسلامية في المناهج الفنية في الغرب الأوروبي فيقول: " كان العالم المسيحي مأخوذاً بما في الفن الإسلامي من غرابة مستطرفة. وكان طبيعياً أن يتمثل هذا الإعجاب في تقليد ذلك الفن وفي السعي الحثيث الدائب إلى اجتلاء تقنياته ومحاكاتها. فقد احتاج الغرب إلى قرون حتى اكتشف تقنيات في صنع الخزفيات تضاهي ما كان يبدعه العراق ومصر، وظل إلى عهد قريب جداً يستورد منسوجات الشرق الأدنى أو يعمل على محاكاتها. وبعض أنماط المنتجات الفنية كالعاجيات والزجاج والمعادن المزخرفة مدينة بالكثير من خصائصها للنماذج الإسلامية. وقد كان الفن الغربي إلى جانب اقتباسه تقنيات ونماذج المصنوعات العربية ، كثير الإغارة على أنماط الرسوم الإسلامية. وأوضح الأمثلة على ذلك النقوش والزخارف؛ فتقليد الخطوط العربية يزين كثيراً من كاتدرائيات العصور الوسطى، كما يزخرف أثواب العذراء في عدد لا يحصى من تصاوير عصر النهضة الأوروبي... وليس صدفة أن أطلقت النهضة الإيطالية لفظ (الأرابسك) على النمط الزخرفي المتشابك الذي يسمى التوريق..... لقد كان الغربيون لا يعرفون إلا القليل جداً عن المدلولات الدينية للفن الإسلامي، ولكنهم كانوا على بينة من مدى ولع العالم الإسلامي بالترف، وقد سحرتهم الوسائل التي أوجدها لصنع الأشياء الجميلة "[193].

الجغرافية الوصفية والفلكية :

امتلك المسلمون الأوائل من عرب الجزيرة حساً جغرافياً مرهفاً وقوياً نظراً لأن بيئتهم الصحراوية التي تكاد تنعدم المعالم في كثير من نواحيها تفرض عليهم الاهتمام بأي فروق – ولو بسيطة – للاستدلال بها على الطرق، أو الانتفاع بما عساه أن يكون لها من مميزات. وعندما توسعت الدولة الإسلامية بعد حركة الفتوح اقتضت الضروريات العملية أن يهتم العرب بالجغرافية، نظراً لحاجة الإداريين، والقادة العسكريين، والحجاج، والتجار والقوافل، والرحالين في طلب العلم

لمعرفة الطرق، والبيئات المختلفة والأحوال الاقتصادية والاجتماعية. كما احتاج النشاط الزراعي، والنظام الضريبي السنوي، وتحديد مواقيت الأهلة، والصوم والحج، وغير ذلك من الشعائر الدينية، احتاج كل ذلك إلى تنشيط المعارف الفلكية والجغرافية.

وقد ورث العرب – ضمن ما ورثوه من تراث البلاد التي فتحوها – كتاباً في الجغرافية من تأليف بطليموس الإسكندري المصري، الذي عاش في مصر في القرن الثاني الميلادي. وإذا كانوا قد انطلقوا من المعلومات التي دونها بطليموس فإن إنتاج الجغرافيين المسلمين كان كبيراً وكثيفاً ومفصلاً، ولقد خطا هؤلاء الجغرافيون بالمعلومات إلى الأمام خطوات كبيرة ؛ فقد وصفوا بلدان آسيا وأفريقيا وأوروبا الممتدة من ساحل كوريا الجنوبية في الشرق وحتى شواطئ المحيط الأطلسي في الغرب. ولم يقتصر الجغرافيون المسلمون على وصف الطرق البرية والبحرية وتحديد مسافاتها وذكر محطات القوافل، بل وصفوا البحار والمحيطات والأنهار والبحيرات، ووصفوا القرى والمدن، ومراكز الجمارك، ومقدار الجمارك، وأنواع المزروعات وأحوال الأسواق بالبضائع المذكورة فيها، بل ولغة السوق، وملابس الناس وبعض عاداتهم. وتبرز في هذا الميدان، أسماء علماء مثل المقدسي، والمسعودي، وابن حوقل، والإدريسي، والبكري، والهمداني، وابن جبير، وابن بطوطة، وابن رستة، والأصطخري، واليعقوبي، وغيرهم كثيرون. وقد بقي لنا عدد من كتبهم التي انتفع بها العلماء الأوروبيون واعتمدوا عليها في تكوين وتوسيع معارفهم الجغرافية والفلكية، وبذلك بدأ عصر الكشوف الجغرافية الأوروبية. وقد جمع الأوروبيون مخطوطات هذه الكتب، وعكف المستشرقون خلال القرن الماضي على تحقيقها وإصدارها في طبعات عربية، مقرونة أحياناً بترجمة أوروبية.

وقد أكد الجغرافيون المسلمون كروية الأرض؛ ومن أمثلة ذلك نجد أن أحمد بن رسته المتوفى سنة 903م. قد حشد - في معرض تقديم حديثه عن هذا الموضوع - نصوص عدد كبير من الآيات القرآنية التي تدعو إلى التأمل و التفكر في السماء والأرض وركز بصفة خاصة على الآية رقم 33 من سورة الأنبياء : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ). وأتبع ذلك بقوله : " إذ اسم الفلك يدل على الاستدارة في لغة العرب ". وقال : إن الله أنزل هذه الآية لئلا يظن ظان أن الأرض تجري على وجه بسيط أو مسطح، أو في جسم غير كروي. " والأرض مستديرة أيضاً كالكرة، مصمته في جوف الفلك، قائمة في الهواء، يحيط بها الفلك من جميع نواحيها.... " ويحاول ابن رستة أن يدلل على صحة الفكرة بمنطق حي وعقلي بذكره اختلاف أوقات ظهور الكواكب من موضع إلى آخر، واختلاف طول الليل والنهار وغير ذلك[194].

وليس ابن رستة هو الوحيد الذي أكد كروية الأرض، بل فعل ذلك كل من وصلتنا كتبهم. والحقيقة أن ابن رستة يشير إلى أنه ينقل كلام جغرافيين سبقوه، منهم أحمد بن الطيب. وممن أكد كروية الأرض المسعودي المتوفي سنة 956م، وابن خرداذبه المتوفي سنة 885م، والمقدسي 985م. ويقول المسعودي : إن الشمس إذا غابت في جزر الأوقيانوس (أي جزر المحيط الأطلسي المقابلة للساحل الأوروبي) فإن ذلك يكون وقت طلوعها في أقصى الصين. ولقد ذكر المسعودي والإدريسي أن مجموعة من الشباب العرب، سماهم بـ " الفتية المغرورين " اقتحموا لجج المحيط الأطلسي واتجهوا غرباً. ولسنا نعرف مدى صحة هذه القصة، ولكنها إن صحت يكون نفر من العرب المسلمين قد وصلوا أمريكا قبل كولمبس ببضعة قرون.

وقد عنى الجغرافيون المسلمون بقياس أبعاد الأرض، فقسموا الكرة الأرضية 360 درجة. وكان لديهم قياس قديم عمله Eratosthenes في القرن الثاني قبل الميلاد حيث جعل مقدار الدرجة

2/3 66 ميلاً. ولكن أولاد موسى بن شاكر أجروا تجربة لقياس محيط الأرض بشكل أكثر دقة، وذلك في عهد المأمون المتوفي سنة 833م. ولا يتسع المجال للحديث عن المراصد الفلكية التي أنشأها المسلمون في مختلف الأقاليم، وإنما قصدنا إعطاء القارئ لمحات موجزة.

وبعد .. فقد أثمرت توجيهات القرآن الكريم للمسلمين نحو الاهتمام بالعلم، فشغفوا به لدرجة قل أن ارتقى إليها شعب من الشعوب. وخير ما يمثل مقدار حب المسلمين للعلم وتعشقهم له هذه العبارات التي ننقلها عن بعض الشخصيات التي عاشت قبل ما يقرب من ألف سنة فهذا أبو الوفاء بن عقيل، العالم والفقيه الذي توفي سنة 1119م. يقول : " إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة، ومناظري وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي، وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره ؛ وإني لأجد من حرص على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة ... أنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سف الكعك وتحسـيته بالماء، على الخبز (أي بدلاً من الخبز الذي يحتاج وقتاً أطول في المضغ) لأجل ما بينهما من تفاوت في الوقت، توفراً على مطالعة أو تسطير فائدة "[195].

ومن أمثلة ذلك قول الفقيه المحدث محمد بن أحمد بن أبي الصقر المتوفي سنة 1083م : " هذه كتبي أحب إليّ من وزنها ذهباً ... "[196] ؛ أمـا الأمير أسامة بن منقذ، أمير منطقة شيزر في شمالي سوريا، المتوفى سنة ___، والذي كانت له شهرة كبيرة في محاربة الصليبيين؛ روي عنه أنه استقدم متاعه وعائلته من مصر إلى الشام عن طريق البحر، فاعترض الصليبيون السفن ونهبوا متاعه، ومن بينه كتبه ؛ وقد هنأه الملك نور الدين محمود بن زنكي بسلامة عائلته وعزاه عن فقد ماله وأمتعته، فعلق الأمير قائلاً : " أما الكتب التي نهبت فكانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، وإن ذهابها سيظل حزازة في قلبي ما عشت[197] ".

وهذا الإمام أبو حامد ا لغزالي المتوفى سنة 1111م. يعتبر تعلم الطب والحساب والصناعات التي يحتاجها المجتمع فروضاً دينية، ويؤكد أنه إذا لم يتوافر عدد كاف من العارفين بها لخدمة المجتمع ، يصبح الناس كلهم آثمين يستحقون أن يعاقبهم الله سبحانه وتعالى بسبب هذا التقصير[198].

ونختم هذا الفصل بوصف كتبه مؤرخ بريطاني عاش في أوائل القرن العشرين يتحدث فيه عن قرطبة عاصمة الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، وعن بعض جوانب الحضارة الإسلامية في تلك البلاد :

" إنها (قرطبة) تستحق ما قيل فيها من مدح قد يظن أنه مسرف. لقد كان طول المدينة يبلغ عشرة أميال. وكانت ضفتا نهر الوادي الكبير تتألقان بالبيوت والمساجد المبنية من الرخام، والحدائق التي غرست فيها بعناية أكثر الزهور ندرة ؛ والتي أحضرها العرب من جميع الأقطار. وقد أدخل العرب نظام الري الخاص بهم، وهو نظام ري لم يعمل الأسبان نظاماً يساويه من قبل، كما أنهم لم يستطيعوا عمل نظام يساويه حتى الآن. وقد جلبت المياه التي كانت تروي هذه الحدائق العديدة ، من الجبال (حيث ما زالت بعض آثار تلك الأعمال الهيدروليكية ماثلة للعيان حتى اليوم)، بواسطة أنابيب من الرصاص لتصب في أحواض من الذهب، أو الفضة، أو النحاس، أو في بحيرات، وخزانات للمياه وصهاريج، ولتغذي النوافير المبنية بالرخام الإغريقي[199] ". ولقد وصل بين ضفتي ا لنهر جسر أقامه العرب، يتكون من سبعة عشر قوساً، وما زال قائماً إلى الآن ليشهد على قوة الهندسة المعمارية لدى العرب. وكانت المدينة مليئة بالمباني الراقية التي عدت فكان من بينها أكثر

من خمسين ألف بيت للطبقة الأرستقراطية وموظفي الحكومة، وأكثر من مائة ألف مسكن لعامة الناس، وسبعمائة مسجد، وتسعمائة من الحمامات العامة. وكانت الحمامات مظهراً مهماً في جميع المدن الإسلامية، لأن النظافة عند المسلمين، وإن كانت لا تأتي في الدرجة الثانية بعد الإيمان بالله، فإنها تعتبر من الاستعدادات الأساسية للدخول في الصلاة أو أي عمل من شعائر العبادة. وبينما كان المسيحيون في العصور الوسطى يحرمون الاستحمام على أساس أنه من عادات الكفار، وكان الرهبان والراهبات يفتخرون بقذارتهم لدرجة أن إحدى القديسات سجلت بكل فخر أنها لم تغسل أي جزء من جسدها إلى أن بلغت الستين من العمر، باستثناء أطراف أصابعها عندما كانت تشارك في القداس، وبينما كانت القذارة هي السمة المميزة للقداسة عند المسيحيين كان المسلمون حريصين على أصغر أمور النظافة، ولم يكونوا يتجرءون على الوقوف أمام الله إلا بعد تنظيف أجسامهم وتطهيرها. وعندما تم للحكام المسيحيين استرجاع إسبانيا في النهاية بادر فيليب الثاني – وهو زوج ملكتنا الإنكليزية الملكة ماري – فأصدر أمـراً بتـدمير جميع الحمامات العامة باعـتـبـارها من مخلفات الكفـر [200] ".

" ومهما كان جمال قصور وحدائق قرطبة فإن مفاخرها في الأمور الأكثر سمواً لم تكن أقل من ذلك. لقد كان العقل جميلاً مثلما كان الجسم ؛ ولقد جعل منها أساتذتها ومعلموها مركز الثقافة الأوروبية، فقد توافد إليها الطلاب من كل أجزاء أوروبا للدراسة تحت إشراف المشاهير من أساتذتها her famous doctors، بل إن الراهبة Horswitha التي كانت تعيش في دير سكسوني ناء في Gaudersheim.....لم تستطع أن تتجنب التغني بمدح قرطبة، جوهرة العالم الأكثر إشراقاً the brightest splendour of the world.

وكان كل فرع من فروع العلم يدرس بجدية. وبفضل اكتشافات أطباء وجراحي الأندلس حظي الطب بإضافات أكثر وأعظم مما حظي به في كل القرون الماضية منذ عهد جالينوس Galen. لقد كان أبو القاسم خلف الزهراوي Abulcasis جراحاً بارزاً في القرن الحادي عشر، وقد أجرى بعض العمليات التي تماثل العمليات التي يجريها الأطباء في وقتنا الحاضر [في وقت المؤلف البريطاني الذي عاش في أوائل القرن العشرين]. أما ابن زهر، الذي جاء بعده بقليل، فقد قام بالعديد من الاكتشافات الطبية والجراحية الهامة. وأما عالم النبات (Botanist) ابن البيطار فقد رحل إلى كل بلدان الشرق بحثاً عن النباتات الطبية، وألف فيها بحثاً مستقصياً وشاملاً. وكان الفيلسوف ابن رشد (Averroes) هو الحلقة التي وصلت أوروبا بالفلسفة الإغريقية القديمة. وكانت علوم الفلك والجغرافيا والكيمياء والتاريخ الطبيعي تدرس كلها بإخلاص وحماسة في قرطبة... " [201]. " حقاً إن قرطبة كانت جوهرة العالم الأكثر تألقاً.... "[202].

وبعد أن استولى الإسبان على غرناطة، آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس، عملوا على القضاء على من تبقى من المسلمين، فأبادوا من أبادوا، قتلاً وذبحاً وحرقاً، ثم أجبروا الباقين على الجلاء إلى شمال أفريقيا. وقد علق Stanley Lane – Poole على ذلك بقوله :

" لم يكن الإسبان المضللون يعرفون ما يفعلون، ولم يفهموا أنهم قتلوا الأوزة الذهبية ؛ فطوال قرون كانت إسبانيا مركز الحضارة، ومقر الفنون والعلوم والمعرفة وجميع أشكال الثقافة الراقية. ولم تستطع الفترة القصيرة في عهد فرديناند وإيزابيلا، وإمبراطورية شارل الخامس، أن توجد شيئاً بارزاً وباقياً كالذي فعله المسلمون. لقد تم إجلاء المسلمين، وتألقت إسبانيا المسيحية لفترة قصيرة، لكن تألقها – حتى في هذه الفترة القصيرة – كان مثل تألق القمر بنور مستعار، ثم جاء الكسوف، وظلت إسبانيا منكفئة تحبو في الظلام منذ ذلك الوقت وحتى الآن.

إن الذكرى الحقيقة للمسلمين ما تزال ماثلة في الأراضي التي نراها اليوم جرداء بينما كان المسلمون قد جعلوها جنات من الكروم وبساتين الزيتون، وحقول القمح بسنابله الصفراء الجميلة. كما تتمثل هذه الذكرى عندما نشاهد السكان الأسبان الأغبياء الجهلة في موطن كان موئل الذكاء حيث ازدهرت العلوم، كما تتمثل في الركود والتدني العام لشعب قد سقط في ميزان الشعوب، من غير أمل، واستحق ما حل به من ضعة "[203]. [هذا وصف المؤرخ البريطاني لما كان في أيامـه] .

الفصَل الثَالِث

الحضارة الإسلامية في مرحَلة الضعف والجمُود

وبعد هذه المسيرة الطويلة التي استمرت ألفاً وأربعمائة سنة نتطلع إلى الأقطار والدول التي تضمها الحضارة الإسلامية فنجدها تعيش ظروفاً سيئة لا تليق بمن يحمل المبادئ التي ذكرنا في الفصول السابقة. ولقد أشرنا في ثنايا ما سبق من حديثنا إلى بعض نواحي الخلل والإنحرافات التي عانت منها الأمة في ميادين السياسة والاقتصاد والجندية والإدارة، وفي ميدان الفكر والعلم أيضاً.

ثم إننا تابعنا التطورات السياسية والعسكرية متابعة سريعة إلى أن سقط العالم الإسلامي تحت ضربات أوروبا المتتابعة، ثم سرنا خطوة أخرى إلى العهد الاستقلالي، لكن الاستقلال لم يكن طريقاً لاستعادة أمجاد الماضي، وإنما جاء بمزيد من المشاكل، ومزيد من التمزق، مما يدل على أن حالة الضعف خطيرة.

لهذا فإننا سنحاول أن نسلط الضوء على أسباب هذه الضعف ونحاول تحديدها بشيء من التفصيل، لينكشف أصل الداء وأبعاده ومدى خطورته، وذلك تمهيداً لمحاولة رصد التحديثات التي تواجه الحضارة الإسلامية، ثم نحاول أن نمد بصرنا إلى آفاق المستقبل وأن نستنتج الاحتمالات الممكنة على ضوء الواقع الفعلي، والإمكانات المتاحة والظروف والملابسات التي تحكم الموقف.

لماذا تدهورت الحضارة الإسلامية ؟

على الرغم من عدم إدراك الشعوب الإسلامية – حتى أواخر القرن الثامن عشر – لأبعاد وعمق حالة الضعف والتدهور التي عاشوا فيها، وعلى الرغم من عدم إدراك الأوروبيين لمدى هذا الضعف الذي أصاب عدوهم، وحتى القرن السابع عشر الميلادي، على الرغم من كل ذلك فإن حالة الضعف والتدهور كانت قد بلغت إلى عمق الكيان السياسي والاجتماعي بدرجة لا يمكن أن تخطئها عي الباحث أو المؤرخ. ومن المستحيل أن نحدد تاريخاً دقيقاً لبدء مرحلة الضعف، لأنها لا تظهر

فجأة، ولا يحدث التغير بين عشية وضحاها، وإنما هي عملية متدرجة تحكمها وتؤثر فيها عوامل متعددة. بل إن العناصر المسببة للضعف قد تكون مستترة داخل الجسم القوي المعافى الذي تبدو عليه كل مظاهر الصحة والقوة والنشاط. وأسباب الضعف بعضها داخلي، وبعضها خارجي. وقد ظهرت بعض الأسباب الداخلية في وقت مبكر، لكن حيوية الأمة وفتوتها، وحرارة العقيدة الحية في النفوس، كل ذلك مكنها من التغلب على أسباب الضعف، وحصر تأثيرها. ويمكن أن نحدد هذه الأسباب بما يلي :

أولاً : الانحراف السياسي :

كان النزاع السياسي الذي انفجر في مرحلة مبكرة من تطور الحضارة الإسلامية، أي في القرن الأول للهجرة، انحرافاً عن المبادئ والقواعد التي وضعها الإسلام. لقد تجاوز الطامعون في الحكم مبدأ الشورى وحق المجتمع في اختيار الحاكم ومراقبته ومحاسبته وعزله إن ظهر أنه غير صالح للحكم. وتحت ضغط الخوف من تجدد الحرب الأهلية واستمرارها رضخ المجتمع وأحنى الرأس أمام الطامعين، فتحولت الخلافة التي تقوم على حرية الاختيار (البيعة)، وعلى قول كلمة الحق، تحولت إلى ملك وراثي طغياني مستبد، تمثل في الأمويين والعباسيين والفاطميين[204]. لكن مبادئ الإسلام وقيمه كانت حية في النفوس، وكانت نصوص القرآن والسنة تلهب المشاعر وتحفز الهمم إلى حد أبقى على كيان الأمة قوياً متماسكاً، فخفيت عوامل الضعف على الناس، ولم يقدر الأكثرون مدى خطورتها وما كان يمكن أن تقود إليه من ضعف.

ثانياً : التوسع العسكري والبشري السريع :

شهد المجتمع الإسلامي توسعاً سريعاً من الناحية الجغرافية والبشرية أدى إلى انضمام أعداد كبيرة من الناس، بنسب غالبة، إلى المجتمع الجديد. ففي المرحلة الأولى كان الإسلام منحصراً في المدينة المنورة، ثم انضمت إليها مكة. وفي أقل من سنتين بعد فتح المسلمين لمكة انضمت كل أقاليم شبه الجزيرة العربية إلى الدولة الإسلامية. وبعد أقل من خمس سنوات انضمت بلاد الشام والعراق ومصر، وما لبثت أن تبعتها بلاد فارس وشمال أفريقيا ووسط آسيا إلى حدود الصين. وهذا التوسع السريع لم يترك فرصة كبيرة للتربية والتوجيه والتعليم بحيث تحدث تغييراً في مفاهيم الناس، وعقلياتهم وطباعهم، ففقد المجتمع تجانسه وانسجامه. ومعنى ذلك أن كثيراً من العناصر التي دخلت في الإسلام وأعلنت اعتناقها له بصدق لم تتيسر لها فرصة للتغير الحقيقي والعميق. فالفرد يمكن أن يتحول من المسيحية أو الوثنية إلى الإسلام خلال ساعة واحدة، إلا أن هذا لا يعني أنه اكتسب كل مفاهيم الإسلام وتخلى عن كل ما يغايره من مفاهيم وعادات وسلوك خلال هذه الساعة الواحدة. كذلك فإن هناك جماعات كثيرة اعتنقت الإسلام لا عن تفكير واختيار إيجابيين، بل فعلت ذلك لمجرد مجاراة التيار الصاعد، حفاظاً على مصالحها أو رغبة في تحقيق مصالح جديدة. وهكذا أصبح هؤلاء وأولئك أداة محتملة لكل القوى الطامعة التي سعت إلى السلطة والمال من طرقها غير المشروعة وغير الإسلامية. والخلاصة أن التوسع السريع لم يترك فسحة من الوقت لصهر العناصر الجديدة في بوتقة العقيدة ليتحقق التماسك.

ثالثاً : الفساد الاقتصادي:

إن قوى الطغيان والدكتاتورية التي تستبيح لنفسها الاستيلاء على السلطة بالقوة مستهينة بما تدعو إليه العقيدة الدينية والشريعة الإسلامية من حفاظ على الشورى واحترام لرأي الجماعة لن تتورع عن تجاوز توجيهات العقيدة والشريعة في ميدان الاقتصاد، لا سيما حين نجد أنها بحاجة إلى استخدام المال والمنافع الاقتصادية لاستقطاب الأنصار ومكافأتهم. ذلك أن الذين يقفون بجانب قوى الطغيان والدكتاتورية لا يتحركون بدوافع مبدئية أو عقيدية وإنما يتحركون توسلاً لما يمكن أن يحصلوا عليه من منافع. ويدرك الحكام الطغاة أنهم بحاجة ماسة إلى مساندة القوى التي تدعمهم ضد إرادة شعوبهم، وهم لذلك يتغاضون عن تجاوزات هذه القوى التي تستلب أموال الشعب وحقوقه. ومن الظلم أن يقول قائل إن هذا الأسلوب كان متبعاً من قِبَلِ جميع الحكام بعد عصر الخلفاء الراشدين، فهناك بعض الحكام المخلصين الذين اجتهدوا في تصحيح الأوضاع، وهناك حكام بعيدو النظر أدركوا الأخطار التي تنجم عن الظلم الاقتصادي. غير أن الفساد الاقتصادي ظاهرة تلازم الحكم الطغياني في أغلب الحالات ، كما أنه يتضاعف كلما كان الحكام ضعافا ، أو سيئي الإدارة ، أو قصـار النظـر.

رابعاً : أثر الضغط السياسي على الفكر الإسلامي :

وما دام الحكام قد أقاموا حكمهم على أساس اغتصاب السلطة فإنهم مهيأون لاتخاذ أي إجراء يحفظ لهم السلطة ويبقيها في أيديهم. ومهما كانت قوة الطاغية فإنه لا بد وأن يحاول إقناع الناس بأن مركزه شرعي. ولذا فقد كان كل حاكم يحاول أن يحصل على الشرعية، وعلى إقناع الشعب بأن بقاءه في السلطة يمثل الشرعية. وفي مجتمع كالمجتمع الإسلامي يقوم بنيانه على عقيدة دينية فإن الشرعية تلتمس من تأييد المفكرين وممن يظن أنهم أقدر على التعبير عن وجهة نظر الدين. ومن هنا فقد تعرض العلماء لشتى أنواع الضغوط، سواء لمنعهم من الجهر باستنكار الإنحرافات والتجاوزات، أو لحملهم على إعلان التأييد لهذا الحاكم، وإعلان العداء لحاكم آخر منافس له. وبجانب ذلك فقد عانى كثير من علماء الدين قلقاً شديداً لخوفهم على الأمة من الحروب الداخلية الناجمة عن صراع القوى الطامعة في السلطة، وقد أطلقوا على هذا النوع من الحروب اسم الفتنة.

وفي حمأة هذه الظروف والضغوط تحولت المواقف الاجتهادية الفكرية إلى حالة من التزمت والعصبية المقيتة، وصار المختلفان في الرأي عدوين يتهم كل واحد منهما الآخر بالكفر، والخروج عن الإسلام. ولم ينج عن الانزلاق في هوة هذه العصبية الضيقة سوى العدد الأقل. ونتج عن هذه العصبية تطور جديد، فصارت كل مدرسة من مدارس الرأي المتصارعة تتطلع إلى الحاكم ساعية لكسب تأييده لها ضد خصومها، فإذا أيدها فذلك يعني أن يضطهد خصومها. وهذا الوضع خلق نوعاً جديداً من الإرهاب الفكري، وهو إرهاب لم يصدر عن الحكام فحسب، بل صدر عن أتباع المدارس الاجتهادية بعضهم ضد البعض الآخر.

خامساً : الجمود الفكري والسلبية :

وفي ظل هذا التعصب، ونتيجة للضغوط وحاجات الأمن الذاتي والمصالح فقد تجنب أكثر العلماء والمفكرين تناول المسائل السياسية والاقتصادية، لأن الحديث فيها بصدق حسب تعاليم القرآن يقود إلى إغضاب الحكام وكسب عداوتهم وخسارة تأييدهم. وبالتالي فقد تركز الانتباه والاهتمام على

الأشكال الخارجية والقوالب، سواء بالنسبة لنصوص القرآن أو بالنسبة للشعائر ، وأهملت اللباب، أو جوهر التعليمات وروحها الموحية والموجهة للسلوك البشري الدافعة للحرارة والحيوية في مشاعر المسلم وفي تصرفاته العملية. وانشغل العلماء بالحديث في الغيبيات ما دام الحديث في الأمور الواقعية والمهمة يجلب لهم الخطر. وبالرغم من أن رسول الله قد نهى أتباعه عن التفكر في ذات الله ووجههم إلى التفكير في صنع الله وفي عظمته بدلاً من ذلك، فقد انصرف كثيرون من كبار العلماء إلى الجدل حول صفات الذات الإلهية. ولقد كان الرسول قد بيّن أن من المستحيل على الإنسان أن يتفكر في ذات الله على نحو سليم أو معقول، لأن الفرد الإنساني جزء بالغ الصغر في هذا الكون الواسع الذي خلقه الله، ولأن كل معلوماته المتراكمة عبر أجيال البشر منذ ظهر الإنسان على هذا الكوكب لا تمثل سوى معرفة جزء صغير جداً من الكون الذي نعيش فيه، بل من المجموعة الشمسية الصغيرة بالنسبة لغيرها من المجموعات الفلكية والمجرات الضخمة. فإذا كان هذا مبلغ علم الإنسان بالنسبة لمخلوقات الله فكيف يستطع أن يستوعب بإدراكه الذات الإلهية نفسها ؟ إن هذا مستحيل. ولكن ... على الرغم من ذلك، كثرت الخلافات حول صفات الذات الإلهية، والقدرات الإلهية، وتطرف آخرون، بتأثير فلسفات قديمة سابقة على الإسلام، فأخذوا يدخلون فكر الجماعات السابقة على الإسلام في حومة الجدل الديني.

سادساً : أثر الموروث القديم :

عندما فتح المسلمون بلاد الشام والعراق ومصر كان سكان هذه البلاد المفتوحة قد عاشوا أكثر من تسعة قرون تحت خيمة الثقافة الإغريقية الرومانية، حيث حكمهم الإغريق منذ أيام الإسكندر المقدوني، ثم حكم الرومان منذ القرن الأول قبل الميلاد، ثم حكم البيزنطيون منذ القرن الثالث الميلادي. وصحيح أن هذه البلاد الشرقية كانت أقدم وأعرق في الحضارة من الإغريق والرومان، غير أنها تأثرت بالحضارة الإغريقية الرومانية كما أثرت فيها. وكانت في مصر وفلسطين وسوريا مراكز هامة ومدارس للفلسفة والتراث الإغريقي، وقد ظلت هذه المراكز قائمة بعد الفتح الإسلامي. ثم انتقلت مدرسة الإسكندرية في أواخر القرن الهجري الأول (السابع الميلادي) إلى أنطاكية، على الساحل السوري. وهكذا أخذ التراث، أو الموروث القديم ينتقل إلى المسلمين من خلال الترجمة، ومن خلال من يتحولون إلى الإسلام من سكان البلاد الأصليين. وقد بلغت حركة الترجمة أوج نشاطها في القرن الثالث الهجري، خاصة في عهد الخليفة المأمون، المتوفي سنة 833م. ولا مراء في أن بعض هذا الموروث القديم كان نافعاً، مثل كتب الطب والصيدلة والرياضيات والهندسة وبعض كتب الفلسفة. لكن بعضه الآخر كان مخرباً ومدمراً لبنية فكر المجتمع الإسلامي. وإذا كانت علوم الطب والرياضيات والهندسة والصيدلة قد انتشرت بين العلماء، فإن العناصر المخربة من هذا الموروث القديم قد انتشرت على نطاق واسع وشمل تأثيرها كل الجماعات، وكل قطاعات المجتمع. وأخطر هذه العوامل المخربة منهجان من التفكير :

أ – فكر الأفلاطونية المحدثة Newplatonism

ويعتبر Plotinus (205 – 270 م) مؤسس هذه المدرسة الفلسفية. وقد ولد ونشأ في مصر، وتربى وتعلم تعليماً إغريقياً ودرس في مدرسة الإسكندرية، ثم تنقل في البلاد إلى أن استقر به المقام في روما، عاصمة الإمبراطورية الرومانية آنذاك. وكان قد وصل إلى روما سنة 244 ميلادية وظل فيها يعلم ويؤلف الكتب حتى وفاته سنة 270م. والذي يعنينا من فكر أفلوطين ومدرسته هو

ذلك الجزء المتعلق بموقف الإنسان من الحياة المادية، والجزء المتعلق بمصدر المعرفة. لقد نادت الأفلاطونية المحدثة بأن النفس الإنسانية، أي نفس الفرد انفصلت من النفس الكلية الإلهية وسقطت في دنس هذا العالم المادي، وأنه لا سعادة للإنسان إلا بالعودة إلى مصدره الأول، والاتحاد بالنفس الكلية. ولذلك فإن الزهد والابتعاد عن المادة صار توجهاً أساسياً وعميقاً عند أتباع هذه الفلسفة.

أما مصدر المعرفة الحقة فهو الإشراق وليس العقل. فالفرد الذي يريد أن يصل إلى المعرفة الحقة إنما يصل إليها عن طريق الزهد والتجرد من المادة والعزوف المتناهي عنها وتحرير النفس من التعلق بها وإذ ذاك تطهر النفس وتصفو كالمرآة، فتنعكس عليها الحقائق الإلهية، وبذلك يصل الفرد إلى المعرفة الحقة. وهكذا انطوت الفكرتان كلتاهما على توجيه الإنسان بعيداً عن واقع الحياة وأوجبت عليه أن يوليها ظهره، وهو يتجه إلى العودة والاتحاد بمصدره الأول ثم وهو يتطهر من المادة ليصل إلى المعرفة الإشراقية ؛ هذا بجانب إسقاط العقل البشري واستبعاده من واقع الحياة ليستسلم الفرد إلى الرؤى والأحلام.

ب – الموروث الهرمسي :

وتنسب الهرمسية إلى " هرمس " . وهرمس هذا شخصية خرافية لم يكن لها وجود في عالم الواقع لأن الاسم أطلق على أحد آلهة اليونان الأسطورية الذي عرف بأنه إله الخصب، كما نسب إليه أنه كان ينقل الرسائل بين الآلهة، وكان إله الطرق وحامي المسافرين. وفي القرن الثالث قبل الميلاد ربط الإغريق بين هرمس وأحد الآلهة المصرية القديمة، واسمه Thoth ، وأصبحت التسمية تعني أن هرمس هو نفسه الإله المصري. وكان ينسب إلى ذلك الإله المصري أنه مخترع الكتابة، كما نسبت إليه أقوال في الطب، وكتابات في السحر. والخلاصة أن تراث الهرمسية تمثل في السحر، والطب السحري، والتنجيم، والكيمياء السحرية التي تحول المعادن الرخيصة إلى ذهب، وتغرق في الحديث عن الأمور الخرافية.

ج – موروث الفلسفات الشرقية :

كما تسربت إلى فكر المجتمع الإسلامي عناصر من المانوية والزرادشتية، وغير ذلك من الأفكار والعادات الكثيرة التي كانت منتشرة بين الشعوب التي انضمت إلى المجتمع الإسلامي من خلال عملية التوسع السريع.

اجتماع الانحراف السياسي والإنحراف الفكري:

ومما زاد من شدة تأثير هذه التطورات السلبية، السياسية والفكرية، أنها جاءت متزامنة، وظهرت في فترة واحدة، فباستيلاء الأسرة الأموية على مقاليد الحكم بدأ الانحراف السياسي، وفي ظل الأمويين بدأت حركة الترجمة، وأخذ الناس من أهل البلاد المفتوحة يتحولون إلى الإسلام بالتدريج. وعندما نجحت الثورة التي قادها العباسيون في إسقاط الأمويين انفتح الباب أمام حركة الاندماج الشاملة بين المسلمين، وازداد دخول الناس في الإسلام. وفي الوقت نفسه توسعت حركة الترجمة، وأولتها السلطة الرسمية عناية كبيرة، خاصة في عهد المأمون.

الحركات الباطنية :

وعندما يئست الجماعات المختلفة من تحقيق العدالة على يد العباسيين – كما كانت تنتظر – أخذت حركات المعارضة تستقطب أعداداً متزايدة من الأفراد والجماعات، خاصة الحركة الشيعية الإسماعيلية التي عرفت بالباطنية. وقد تجمع المعارضون في هذه الحركة حول إحدى العائلات المنتسبة إلى رسول الله، مستغلين حب المسلمين لنبيهم وإيمانهم بأنه مصدر خير لهم. وزاد الأمر سوءاً أن الحركة الإسماعيلية تبنت كثيراً من الأفكار الأفلاطونية المحدثة والهرمسية وصارت تطرحها على أنها فكر إسلامي مقدس تلقاه أئمة الحركة الإسماعيلية عن رسول الله أو عن الله. وحتى يتمكنوا من السيطرة على عقول الناس فقد زعموا أن للقرآن معنى باطنياً غير المعنى الظاهر الذي تدل عليه اللغة العربية، وأن معرفة المعنى الباطن – وهو المعنى الحقيقي في زعمهم – مقصورة على الأئمة الإسماعيلية وعلى من أعطوه علمهم من أتباعهم وسمحوا له أن يعلمها. وادعوا أن أئمتهم فقط هم الذين لهم نفوس ذات شفافية يمكن أن تتلقى الحقائق الإلهية. وما دامت اللغة العربية وأساليبها المتعارف عليها، وأساليب تفسير القرآن التي كانت متداولة لهم تعد الأداة الصالحة لفهم القرآن – في نظر الإسماعيليين ومن تابعوهم – فقد تلقى العقل ضربة أخرى شديدة أبعدته من ميدان العمل وذلك نتيجة للتسليم بفكرة المعاني الباطنية.

علم الكلام :

وقام نفر من العلماء يدافعون عن العقيدة ضد هذه الانحرافات. ولما كان الباطنيون قد استعملوا أساليب الجدل الفلسفي لإجبار خصومهم على التسليم لهم بمقولاتهم المبنية على فروض غير صحيحة فقد نشأت لدى فريق من العلماء نزعة معارضة للفلسفة تؤكد على حرفية النصوص الدينية دون تدخل من العقل كما تؤكد على تقليد جيل الصحابة والتابعين تقليداً حرفياً بعيداً عن تدخل التحليل العقلي، وقد عرف هذا الفريق بـ " أهل النقل ". وقام فريق آخر يدرس المنطق والفلسفة اليونانية ليجادل المعارضة بأساليبها، ومن لم يدرس الفلسفة من هؤلاء فقد أعملوا عقولهم في فهم النصوص وتفسيرها، ولذلك عرفوا باسم " أهل الرأي ". وحيث أن التحدث في مشاكل الحكم، ونظامه وأساليب ممارسته كان محظوراً ومحفوفاً بالمخاطر، وكذلك الحديث في المشاكل الاقتصادية، إذ أن هذين الموضوعين يقودان إلى انتقاد السلطة، فقد تركزت المناقشات على أمور غيبية مثل صفات الله، وما إذا كان القرآن مخلوقاً أو غير مخلوق، بالإضافة إلى مناقشة ادعاءات المعارضة الباطنية.

نشـــأة الـتـصوف:

ولما كانت القضايا المثارة للمناقشة فوق مستوى عامة الناس، وفوق مستوى عامة المنتسبين إلى العلم فإنها لم تجذب اهتمام الأكثرية، فهرب أناس إلى التقليد والفرار من التفكير وآمنوا بمبدأ التقليد الحرفي. وحيث أن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت مشحونة بالصراع والاضطرابات والتقلبات والمخاطر والضغوط المختلفة فقد شعر الكثيرون أنهم في سجن يودون لو تمكنوا أن يفروا منه، وهنا وجدوا في ما قدمته الأفلاطونية الحديثة، وما قدمته الهرمسية، أفكاراً تؤيد

إسقاط العقل كوسيلة لاكتساب المعرفة حيث تحصل المعرفة بالتطهر من المادة والزهد في الحياة حتى بلوغ مرحلة الإشراق، كما قدمت الهرمسية السحر والتنجيم، وشاركت في استبعاد العقل. ويبدو أن بعض المتصوفة البارزين تأثروا بهذه الأجواء فصارت الحركة الصوفية[205] في المجتمع الإسلامي غير بعيدة عن هذا السياق العام : أناس يفرون من الحياة، ويفرون من العقل، ويعيشون في الزوايا والتكايا يزعمون أنهم معتزلون للعبادة والذكر، أو يفرون للعيش في البراري، في كهوفها مع الوحوش والزواحف. وقد ذهب الصوفية أيضاً إلى أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وأن علم الباطن يمكن الوصول إليه عن طريق الإشراق أيضاً، من خلال الزهد والتعبد وتخليص النفس من دنس المادة. وقد ظهر تصوف يؤيد الخلافة السنية العباسية، كما ظهر تصوف يؤيد الحركات الشيعية، ومع ازدياد اضطراب الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية زادت أعداد الهاربين من العقل، ومن المجتمع، ومن الصراع، إلى الزوايا والتكايا الصوفية، حيث تعيش الجماعات المتصوفة حياة التعطل مع الأحلام والأوهام.

العوامل الخارجية:

أولاً : الحروب الصليبية : وقد أشرنا إليها من قبل في الفصل الأول من القسم الثاني من هذا الكتاب، حيث أرسلت أوروبا عدة حملات قادها ملوك وأمراء أوروبا، وتمكنوا من الاستيلاء على فلسطين وأجزاء من سوريا ولبنان، وأقاموا فيها الممالك إلى أن تم طردهم منها نهائياً[206].

ثانياً : الاجتياح المغولي :

تحركت جموع المغول من شرق آسيا في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي منذ تولي جنكيز خان الرهيب قيادة شعوب المغول. وفي منتصف القرن نفسه أخذ الخطر المغولي يقترب من بغداد، عاصمة الخلافة العباسية بعد أن كان قد دمر مناطق واسعة من تركستان الإسلامية وأفغانستان وبلاد فارس. وما أن حلت سنة 1258م حتى كانت بغداد قد تحولت إلى أكوام من الحطام تحت حوافر خيل المغول، وظل نهر دجلة يجري أسود بسبب ذوبان الحبر الذي كتبت به ملايين الكتب المخطوطة التي لم تكن لها عند المغول قيمة، فألقوها في النهر، فدمروا أعظم ثروة فكرية عرفها التاريخ حتى ذلك الحين[207]. وقد اشرنا إلى ذلك باقتضاب في فصل سابق.

ثالثاً : حرب الاسترجاع الإسبانية :

فقد تجمعت بقايا الإسبان بعد الفتح العربي الإسلامي لشبه جزيرة إيبيريا وتقوقعت في أقصى الطرف الشمالي الغربي لتلك البلاد. ولم تكن تلك النواحي أكثر من مناطق فقيرة جرداء لم ير المسلمون أنها تستحق عناء وتكاليف فتحها. فلما بدت علائم الضعف على الدولة الإسلامية في إسبانيا أخذ الإسبان يتحركون، واستمر تحركهم بضع مئات من السنين إلى أن تم لهم القضاء على آخر المعاقل الإسلامية في إسبانيا بالاستيلاء على مملكة غرناطة سنة 1492م، ليبدأوا بعد ذلك بسنوات بمهاجمة بلدان شمال أفريقيا الإسلامية.

تغيرات في ميزان القوة العسكرية:

وقد حدث تحسن في ميزان القوة العسكرية لصالح المسلمين في بعض الفترات، فقد تمكن الأتابكة الزنكيون والأيوبيون والمماليك من مقاومة الخطر الصليبي وتصفية الممالك الصليبية التي قامت في بلاد الشام تصفية كاملة، كما أن المغول الذين دمروا جميع البلدان الإسلامية من كاشغر على حدود الصين إلى دمشق وسهول فلسطين، ثم سيطروا على العراق وبلاد فارس، لم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام، وأصبحوا جزءاً من الشعوب الإسلامية. أما في شمال أفريقيا فقد أوقفت هجمات الأسبان والأوربيين على أثر ظهور الدولة العثمانية ومساندتها لمسلمي شمال أفريقيا. وكانت الدولة العثمانية قد ظهرت في آسيا الصغرى وما لبثت أن نمت واتسعت وأصبحت أقوى قوة عسكرية في العالم في ذلك الوقت، فاستولت على أقطار البلقان ثم أنهت وجود الإمبراطورية البيزنطية ، وأصبحت مصدر رعب لأوروبا كلها. وفي أوائل القرن السادس عشر الميلادي ضمت أراضي بلاد الشام ومصر ، ثم انضمت إليها الحجاز وشمال أفريقيا . والحقيقة أن كثيرين من المؤلفين والباحثين قد انخدعوا بمظهر هذا النمو العسكري دون أن يدروا أنه تضخم مؤقت ساعد عليه ضعف المجتمعات الغربية المعادية، سواء في ذلك الصليبيون الذين أقاموا في بلاد الشام ، والدول الأوروبية التي قابلت العثمانيين في عصر قوتهم. ورغم ضعف المجتمع الإسلامي وأحواله التي وصفناها بإيجاز فإنه كان أحسن حالا وأقل ضعفا من المجتمعات الغربية وهي في إطار ظروف العصور الوسطى الأوروبية ؛ لكن التغير الحقيقي والانقلاب الشامل بدأ مع تنامي حركة النهضة الأوروبية وما تبعها من تطورات إيجابية، واستمر بعد ذلك. ثم جاء الاستعمار الأوروبي الحديث، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل في إشارات سريعة، ووقع العالم الإسلامي فريسة لهذا الاستعمار، فاحتلت الأقطار الإسلامية واستغلت مواردها، وزرع الاستعمار فيها مشاكل جديدة بجانب مشاكلها السابقة.

تلك هي أسباب الضعف، سردناها بسرعة لنبين كيف تدهورت الحضارة الإسلامية، وكيف بدأت عوامل الضعف بينما الدولة قوية ثم تطورت على النحو الذي وصفنا حتى تحطم الجسد القوي، وخرّ عاجزاً، وظل يعاني العجز منذ ذلك الحين على الرغم من بعض فترات القوة العسكرية الطارئة. لقد تفاعلت كل هذه الأسباب وتضافرت حتى أوصلت المجتمع الإسلامي إلى حالة من العجز والجمود لم يستطع النهوض منها حتى الآن.

لا داعي للـعـجـب :

ولكن ربما يتعجب بعض الناس كيف أن أمة تملك المبادئ والقيم والقوة الروحية التي وصفنا يمكن أن تنحدر إلى هذا المستوى من الضعف؛ غير أن الأمر طبيعي جداً، بل إن هذا المصير هو الذي كان منتظراً، وهو الذي حذّر القرآن منه المسلمين.

فالإسلام عقيدة ومبادئ وقيم ومنهج عمل جماعي بجانب كونه طريقة للسلوك الفردي. فإذا ما اتبعت جماعة تعاليمه بوعي وإدراك، ومن غير مغالاة أو شطط، وتمكنت من توظيفه في استخلاص نظام يلائم احتياجاتها الحياتية فلا بد أنها ستكون في وضع سليم وقوي. أما إذا انحرفت عنه، أو سمحت لقوى منحرفة أن تقودها بعيداً عن قيمه وما وضعه من مناهج وقواعد فإنها سرعان ما تنهار. وهذا ما أشارت إليه سورة محمد (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُمْ). وكما ذكرنا في فصل سابق فقد جعل الله المسلمين خير أمة أخرجت للناس إن التزموا تعاليمه، فعملوا من

أجل الخير، من أجل فعله وإقناع الناس بفعله، وعملوا على نبذ الشر والمنكر وإبعاده والتخلص منه، وذلك في قوله : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ).

ونعود فنقول : إنها نتيجة منطقية، ذلك أن الإسلام لا يعمل وحده بل يعمل من خلال البشر : (وأنْ ليسَ للإنسان إلا ما سعى ..) وهو يدعو الناس إلى العمل (وَقُلْ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) تلك سنة الله في خلقه، وهو عادل لا يحابي فرداً، ولا يحابي أمة. ولو أننا عدنا وألقينا نظرة سريعة على الفصل الثاني من هذا الكتاب لنستعيد إلى ذاكرتنا القواعد التي جاء بها القرآن، وشرحها رسول الإسلام من أجل إقامة المجتمع الصالح لوجدنا أنها تتفق مع ما يرشد إليه العقل السليم والدراسة الموضوعية، ومع ما توصل إليه الإنسان بالدراسة والتجربة والخبرة. إنها مبادئ وقواعد تمثل السنن الطبيعية والاجتماعية التي يتوصل إليها الإنسان العاقل بفطرته سواء كان ممن يعرفون الإسلام أو من غيرهم. وهذا ليس بغريب، لأن من أعطى المسلمين هذه القواعد والمبادئ هو خالق الكون وخالق الإنسان، وهو الذي وضع القوانين التي تحكم الطبيعة، وتحكم سلوك المجتمعات البشرية. والأمة التي ينساق زعماؤها وراء المطامع، ويركن الأقوياء فيها إلى حياة الترف، ويخضع مفكروها للطغيان، لا بد أن تحصد ما زرعت، تلك سنة الله (ولن تجد لسنة الله تبديلاً).

ولكن .. ماذا عن المستقبل ؟

الفصَل الرَابع

التحدّيات وَالمستقبل

تعرضنا في ما مضى من فصول هذا الكتاب إلى ظهور العقيدة الإسلامية، وقدمنا لذلك بوصف البيئة التي ظهر فيها الإسلام وولادة الرسول صلى الله عليه وسلم ونشأته إلى أن بدأ وحي ربه، وباشر الدعوة إلى دين الله. ثم تتبعنا – بعد ذلك – الصراع الذي خاضه الرسول ومعه المؤمنون الأولون ضد قومه وعشيرته من أهل مكة إلى أن اضطر للهجرة إلى المدينة (يثرب) بعد ثلاث عشرة سنة، حيث نجح في إقامة المجتمع والدولة الإسلامية أول مرة. ووصفنا بعدئذ بإيجاز شديد نشأة وتطور الحضارة الإسلامية، وحاولنا – من خلال ذلك الوصف – أن نرصد أسباب الضعف الذي أصاب المسلمين حتى نهضت أوروبا، واستطاعت أن تنشر مظلتها فوق العالم أجمع. وكان جل ما كتبناه يدور حول حوادث التاريخ الماضية التي وقت بالفعل، ودونتها المصادر التاريخية، كما أننا حاولنا إعطاء صورة صادقة للعقيدة والتعاليم الإسلامية من خلال نصوصها المدونة في مصادرها المعروفة. أما في هذا الفصل الختامي فسنحاول أن نرصد التحديات التي تواجه المسلمين والمجتمعات الإسلامية .

والحديث عن المستقبل هنا ليس من قبيل التنبؤ بالغيب، ولا هو من قبيل التغني بالآمال المرجوة، بل هو محاولة لاستقراء معطيات الواقع، أي الإلمام بالقدرات الموجودة لمواجهة التحديثات، ثم تقدير الاحتمالات الممكنة التي ستتمخض عن تفاعل جهد البشر مع الواقع. وإذا كنا قد استندنا – في أكثر ما كتبناه في الفصول السابقة – إلى المادة الدينية والتاريخية التي أشرنا إلى مصادرها فإن حديثنا في هذا الفصل سينطلق من تقديراتنا الشخصية، أي أنه تعبير عن الرأي، والرأي اجتهاد ليس أكثر، ومع ذلك فسنحاول التزام الموضوعية إلى أقصى درجة ممكنة.

التحديات التي تواجه الحضارة الإسلامية :

من نافلة القول أن نذكر أن التحديات التي تواجهها الحضارة الإسلامية كثيرة ومتشعبة ومعقدة، فهذه حقيقة بات يعرفها القاصي والداني، ولم تعد تخفى على أحد ممن لهم أقل دراية بأحوال أقطار الحضارة الإسلامية وأحوال عالمنا المعاصر ؛ وأهم هذه التحديات ما يلي :

أولاً : التحديات المادية

(أ) التجزؤ وفقدان التعاون

بينما تدعو العقيدة الإسلامية إلى وحدة المسلمين وتعاونهم تعاوناً يصل إلى درجة اعتبار المجموع جسداً واحداً ، نجد أن العالم الإسلامي فيه ما يزيد على خمسين دولة مستقلة، ونجداً، أن كثيراً من هذه الدول تسير في سياسات متعارضة متناقضة مع ما تسير فيه دول إسلامية أخرى، وذلك لاستجابتها لرغبات الدول الكبرى التي تستقطبها وتجعلها تدور في فلكها. هذا عدا عن الجماعات الإسلامية الكبيرة التي تعيش ضمن شعوب دول غير إسلامية باعتبارها أقلية. ومع أنه قد يكون من المستحيل جمع كل هذه الشعوب الإسلامية في دولة واحدة في العصر الحديث، إلا أنه من الممكن عملياً، لو توافرت النيات الحسنة والإرادات الحازمة، إقامة إطار للتعاون، وحد أدنى منه، يعوض عن غياب الشكل السياسي للوحدة، ويساعد الدول الإسلامية على التخلص من التبعية والخضوع لإحدى الدول العظمى. . ومن المعروف أن مبدأ التعاون الدولي أصبح شعاراً وقيمة أخلاقية دولية ، أو هو "فضيلة دولية" لا يستطيع أحد أن ينكره، لما للتعاون من نتائج إيجابية على المدى البعيد والقريب، لمنفعة جميع ذوي العلاقة. ولكن يبدو أن هناك معوقات صعبة، منها ضعف الإيمان بالمبادئ عند القوى المسيطرة على كثير من المجتمعات الإسلامية، وضعف الوعي والإدراك لدى الشعوب، فضلاً عن الظروف الخاصة لكل شعب وقطر من النواحي السياسية والاقتصادية.

(ب) مشكلة الأطر السياسية :

من أكبر المشكلات التي عانت وتعاني منها أقطار العالم الإسلامي مشكلة الافتقار إلى أطر سياسية وإدارية سليمة. فمن أكبر أسباب الخلل والإضطراب سواء في العصر الإسلامي، أو العصر الحديث مشكلة التنازع على السلطة، واستبداد المنتصر بها، ولا مراء في أن الأسباب الباعثة لهذا الوضع ثقافية فكرية قبل أي شيء آخر، وسنتعرض لهذه الأسباب عندما نتحدث عن التحديات الثقافية. والسياسة هي الأدارة ، ورئيس الجمهورية ، أو رئيس الوزراء هو المدير العام التنفيذي في كل دولة ، مع فارق وجود مؤسسات تتقاسم السلطة بغرض حفظ التوازن، وبغرض منع الاستبداد والتفرد وتضييع المصلحة العامــة ؛ وذلك من الناحية النظرية في أكثر الحالات ، وقليلا ما يفعل ذلك عمليا. فالإدارة العامة هي العمل والواجب الأساسي للسلطات في الدولة ؛ ولا مراء في أن طريقة تسييرها تتأثر بوضع السلطة ومدى استقامتها واستقرارها أو فسادها واضطرابها، كما أنها تتأثر بموقف قطاعات الشعب المختلفة ودرجة وعيها بحقوقها، وبوحدة الكيان الاجتماعي والعلاقة العضوية التي تربط بين أفراده وجماعاته. ولذلك فإن الإدارة العامة في الأقطار الإسلامية ترتبط بمشكلة الأطر السياسية.

(ت) التخلف التقني :

والمظهر الحاد من مظاهر التخلف التقني يتمثل في عجز البلاد الإسلامية عن إنتاج كفايتها من السلع الأساسية التي لا غنى عنها. ويشمل هذا العجز الغذاء والدواء ووسائل النقل والاتصالات والآلات والمعدات وغير ذلك ؛ والحقيقة أن العجز قد يكون كليا في كثير من الاحتياجات الأساسية حيث يكون الاعتماد الكامل على استيراد أو جلب هذه الاحتياجات من دول أخرى ، هي الدول التي كانت تستعمرنا في مرحلة ما قبل الاستقلال الحديث. فعندما سيطرت الدول الاستعمارية الأوروبية على بلدان العالم الإسلامي منذ القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين – تقريباً – حولت هذه الأقطار إلى سوق كبير للسلع المُصَنَّعَة، بل وأحياناً السلع الزراعية، التي تنتجها هذه الدول الاستعمارية. وكانت الصناعات المحلية في البلدان العربية والإسلامي عاجزة عن المنافسة في عقر دارها، سواء من حيث تكلفة وسعر البضاعة أو من حيث نوعها. ومن البديهي أن الدولة المستعمرة المسيطرة على قطر آخر – غير وطنها – كانت تسعى لتنمية مصالحها ومصالح صناعاتها وصادراتها على حساب البلد الذي استعمرته. ومن أجل ذلك فقد ضيقت على كل نشاط صناعي وطني وأرهقته بالضرائب وبمختلف القيود القانونية والتنظيمية الظالمة حتى قضت عليه، ليخلو الميدان لصادراتها. وقد سار الأثر التخريبي لهذه العملية في اتجاهين :

1- تخريب الصناعة المحلية وإحباط أي توجه وأي جهد لرفع شأن الصناعة الوطنية والمحافظة عليها على الأقل.

2- تعويد شعب البلد المغلوب على استعمال المصنوعات والأدوات الغربية بحيث يصعب عليه التخلي عنها في المستقبل، عندما يحين وقت التحرر من الحكم الاستعماري.
والحقيقة أنه من المستحيل على أي شعب في العالم اليوم أن يعيش بالطريقة التي عاش بها الناس قبل ثلاثمائة سنة لأن شبكة العلاقات الدولية، التي ساهمت ثورة الاتصالات في إحداثها، لا تسمح بذلك. وكأن كل هذا التخريب لم يكن كافياً فحرصت الدول الاستعمارية – قبل رحيلها – على أن تزرع عوامل تخريبية أخرى : مشاكل سياسية وجغرافية كفيلة بإشعال الحروب وإجبار الأقطار الضحية على شراء الأسلحة واستنزاف مواردها حتى آخر نقطة من دمائها. وعندما تتحارب الشعوب الفقيرة فإنها لا تتحارب بأسلحة من صنعها هي، بل تستهلك أسلحة من إنتاج مصانع الدول الاستعمارية، تدفع فيها ما لديها من قليل هي أحوج ما تكون إلى إنفاقه في التنمية، وإنتاج أو شراء الغذاء. وهنا تضاف قائمة شراء الأسلحة من الخارج إلى المصنوعات المدنية الأخرى فيزداد العبء وتزداد عوامل الضعف والإرهاق، وتزداد الديون العامة التي تفتح الباب لمزيد من التدخل الأجنبي.

(هـ) تحدي العدوان الخارجي المسلح :

فقد شهد القرن التاسع عشر هذا التدخل بأبشع صوره، حيث أصبحت أقطار العالم الإسلامي كلها – تقريباً – تحت الاحتلال الأجنبي. وقد حاولت بعض الدول الاستعمارية ضم الأراضي المستعمرة كما فعلت فرنسا في الجزائر، وكما فعلت روسيا القيصرية في بلدان وسط آسيا الإسلامية، مثل تركستان والقوقاز والقرم. بل إن حوض نهر الفولغا الأدنى الذي كان قاعدة لدولة إسلامية

عاصمتها استراخان صار في قلب الإمبراطورية الروسية. ومهما يكن من أمر فقد تحررت أكثر الشعوب الإسلامية بعد جهاد طويل، وبعد أن قدمت ملايين الضحايا[208]. وإذا كان عهد الاستعمار المباشر قد ولى فإن الدول الاستعمارية حرصت على أن تحقق أهدافها الاقتصادية والسياسية بوسائل أخرى، منها التدخل المستمر في الشؤون الداخلية وإثارة الأزمات، والضغوط المختلفة من أجل الابتزاز السياسي والاقتصادي. وتستغل الدول الاستعمارية كل التوترات الداخلية في البلاد الفقيرة، فإذا ما واتتها الفرصة شجعت الخلافات والفئات المتنازعة في الداخل وأمدت بعضها بالمال والسلاح ؛ وقد تتبع ذلك بالتدخل العسكري المباشر بقواتها إذا انفجر الوضع، بحجة المحافظة على الاستقرار. والأمثلة على ذلك كثيرة .

أما العدوان على البلدان العربية الإسلامية في غرب آسيا فكان ما دبرته الدول الاستعمارية من خلق دولة إسرائيل على أرض فلسطين العربية الإسلامية. ففي سنة 1917م كانت فلسطين جزءاً من الدولة العثمانية وكان شعبها عربياً مسلماً بأغلبيته وفيه أقلية يهودية نسبتها 8% من مجموع السكان. وفي الثاني من شهر نوفمبر من تلك السنة (1917) أصدر وزير خارجية بريطانيا – اللورد بلفور – تصريحاً رسمياً عرف باسمه (Balfour Declaration) وعد به اليهود في أوروبا، باسم حكومته، بأن تعمل بريطانيا على جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود. أي أن بريطانيا وعدت بأن تعطي أرضاً لا تملكها إلى شعب آخر غير شعبها . وفي سنة 1918م استولت القوات البريطانية على فلسطين حيث ظلت بريطانيا تستعمر البلاد حتى منتصف سنة 1948م. وخلال هذه الفترة عملت على إدخال مئات الآلاف من المهاجرين اليهود القادمين من أوروبا إلى فلسطين رغم إرادة أهلها ورغم مقاومتهم التي استمرت ثلاثين سنة. وبالإضافة إلى القوة العسكرية القمعية فقد وضعت بريطانيا كل الإجراءات والأنظمة التي تضعف شعب فلسطين وتمكن الحركة الصهيونية من الاستيلاء عليها. وكانت الولايات المتحدة وفرنسا تؤيدان هذا المخطط وتساهمان في إنجاحه بشتى الوسائل. وعندما حل عام 1948م، أي بعد إحدى وثلاثين سنة من الاحتلال البريطاني كان عدد اليهود في فلسطين قد ارتفع لتصبح نسبتهم 33% بالنسبة لمجموع السكان . وهنا تم تنفيذ الخطة بقوة السلاح، وشرد مئات الآلاف من شعب فلسطين من أراضيهم، وما زالوا مشردين حتى الآن، مع تمسكهم بحقهم في العودة إلى وطنهم. وعددهم الآن يقرب من عشرة ملايين موزعين بين الأقطار المحيطة بوطنهم ؛ كما أن أعداداً منهم هاجرت بعيداً في أطراف الأرض، إلى الأمريكتين وأستراليا وبعض بلدان أوروبا.

ولا نريد أن نطيل الحديث عن هذه المشكلة هنا، لأن المجال لا يتسع لذلك، ولكننا نود أن نوضح فقط أن خلق دولة غريبة في قلب المنطقة بجلب سكان جدد من أوروبا الشرقية والغربية مثل عدواناً عسكرياً صارخاً على أحد الشعوب العربية الإسلامية لدرجة تحطيم هذا الشعب وتشريده. وبجانب ذلك فإن هذه الدولة ذات سياسة توسعية، تنتهز كل فرصة للاستيلاء على أراض جديدة وتحاول أن ترهب المنطقة كلها، من المغرب (مراكش) إلى باكستان. أي أنها أصبحت عامل تهديد دائم يستنزف الإمكانات المالية والمادية والبشرية للدول العربية المجاورة ، حيث تضطر بعض الدول العربية إلى إنفاق نسبة كبيرة من دخلها الوطني على النواحي العسكرية لتتمكن من الدفاع عن نفسها.

وزيادة على ذلك تحرص إسرائيل ومن يساندونها على إثارة المشاكل والقلاقل الداخلية في الأقطار العربية المجاورة لتبقى هي المهيمنة، ولتستفيد من كل فرصة للتوسع الإقليمي. وفي مجال الإعلام السياسي تبدي إسرائيل استعدادها لإحلال السلام بشرط أن يتنازل الشعب الفلسطيني عن

وطنه، وتتنازل الدول العربية عن أراضيها المحتلة، وتقبل أن تكون إسرائيل هي الدولة المهيمنة في المنطقة كلها، اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً.

هكذا تصبح إسرائيل واحداً من أخطر التحديات التي تواجه دول المنطقة كلها.

ثانياً : التحديات الفكرية والثقافية

(أ) تحدي الثقافة الأوروبية

لا ينحصر التحدي الغربي للحضارة الإسلامية في الميادين التقنية والاقتصادية والعسكرية، وإنما يشمل أيضاً الجوانب الفكرية والثقافية. فالغرب فكر وثقافة وتوجهات في الحياة الوطنية بكل جوانبها. والغرب لا يمثل الجار القريب أو البعيد الذي يقدم نموذجاً للحياة مختلفاً عنا يمكننا أن نراه ونختاره أو نرفضه، أو نغمض عيوننا عنه حتى لا نراه، بل هو موجود في كل بقعة من العالم بما له من قوة سياسية واقتصادية ومادية ولرباط الحاجة والمصلحة الذي يربط الشعوب الأخرى به. ماذا إذن ؟

- هل تتخلى الشعوب عن خصائصها وتراثها وثقافتها وعقائدها لكي تلتحق بالغرب وتندمج فيه، أم تقلده وتصبح مثله.
- أم ترفض الغرب وفكره ومثله وتحافظ على هويتها وشخصيتها وتراثها.
- أم تأخذ بعض ما عند الغرب وتحتفظ ببعض ما عندها. وإذا كان خيارها هو الخيار الأخير فماذا تأخذ، وماذا تستبقي، وما نسبة ما تأخذه لما تستبقيه ؟

وهل هذه الخيارات ممكنة من الناحية العملية بينما وسائل الاتصال وأجهزة الإعلام والأساطيل البحرية والجوية الغربية تحيط بكوكبنا الأرضي من كل النواحي وتصرخ في سمعه صباح مساء ؟

(ب) تحدي الشتات الفكري :

وليس تحدي الشتات الفكري الذي تعاني منه شعوب العالم الإسلامي أقل ضرراً أو أيسر مواجهة من التحديات المادية التي عددناها، أو من تحدي الثقافة الأوروبية، بل الحقيقة أنه أشد خطراً وأكثر ضرراً وتخريباً، وهو المسؤول عن التأخر في دفع التحديات الأخرى والتصدي لها بنجاح. والذي نقصده بالشتات الفكري هنا ليس الموقف الحائر بين اختيار الاستسلام للثقافة الغربية والاندماج فيها وبين اختيار العودة إلى الجذور والأصالة والثقافة الإسلامية. ليس هذا ما نعنيه بتعبير الشتات الفكري، بل الذي نعنيه هو الشتات الفكري الشامل في خضم الموروث الضخم من الأفكار والمذاهب والتفسيرات التي ولدتها وخلفتها ألف ومائتا سنة من الحضارة والثقافة والفكر

الإسلامي منذ ظهور الإسلام في مكة سنة 610 ميلادية إلى وقت بروز أوروبا الغربية المسيطرة الغالبة منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي. وقد شهدت الساحة الفكرية للحضارة الإسلامية الواسعة المتعددة البيئات زماناً ومكاناً، مئات، وربما آلافاً، من الجماعات والحركات، والمدارس والآراء، والدعوات التي بين بعضها والبعض الآخر من الخلاف والتمايز فروق ربما تزيد – في بعض الحالات – عن الفروق بين الدين الإسلامي وغيره من الأديان. وهذه الآراء تمثل مفاهيم وعقليات وحزبيات وانتماءات المؤلفين الذين كتبوا طوال هذه الفترة (1200 سنة) والذين عاشوا في أقطار عديدة تحت ظروف وضغوط متنوعة ومتناقضة ؛ كما أن كثيرين منهم أيضاً كانت لهم خلفيات متباينة، فبعضهم كان قبل إسلامه (أو كان أبوه وعشيرته ومجتمعه) من الوثنيين أو الزرادشتيين أو المانويين واليهود والمسيحيين. وربما تأثر بعضهم بفلسفة الأفلاطونية الحديثة والهرمسية اللتين أشرنا إليهما في الفصل السابق، وكان لهم دور كبير في تخريب العقل الإسلامي.

وقد ظلت آراء وأفكار هذه الفئات محفوظة في ملايين الكتب المخطوطة، التي سلمت من التلف والدمار .

(د) تحدي التزمت والإرهاب الفكري:

قلنا في الفصل السابق إن عمل العلماء والفقهاء في ظل تقلبات وتوترات سياسية واجتماعية عنيفة، وتحركهم من خلال صراع الحزبيات والمذاهب انعكس على ما أنتجوه من فكر، فظهرت روح التزمت والتعصب، والعنف وعدم الموضوعية في النقد ورد النقد. وقد اجتهد العلماء في العصور السابقة لتفصيل ما أجمله القرآن والسنة، وتجاوزوا الوقائع الممكنة إلى الوقائع الافتراضية لكي يضعوا لها القوالب والحلول. وطبيعي أن تأتي قوالبهم وحلولهم متأثرة بظروفهم ونمط الحياة في عصرهم، بما في ذلك جو الصراع والتحدي والتعصب للرأي الذاتي والاندفاع فيه. ولا مراء في أن لفقهاء المسلمين وعلمائهم إنجازات كبيرة في الحقل الفقهي التشريعي ونظريات مهمة في هذا الميدان ، لكن هذه الإنجازات تمثل جواهر ولآلئ صغيرة طمرت تحت أكوام من الشطط والقولبة الجامدة وضيق الأفق والافتقار إلى النظرة الشمولية. وأي نشاط فكري إسلامي جديد وشامل في عصرنا الحالي لا بد أن يصطدم بكثير من القوالب والمقولات السابقة، فيواجه بالمعارضة من ضيقي الأفق الذين يقدسون كل تراث الماضي دون تفكير أو تمييز. غير أن هذه المعارضة المتشددة لا تستند إلى أساس من الدين ولا تستطيع أن تمنع المفكرين الجادين الواعين من العمل، ومع ذلك فهي تستطيع تعويقهم ، أو التشويش عليهم ، على الأقل . والحقيقة أننا ورثنا روح هذه المواقف المتزمتة حتى أنها تظهر في الصراع السياسي بين الجماعات التي تتبنى الفكر الغربي من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، وليس فقط أصحاب الاتجاهات الدينية .

وبجانب كل هذا فهناك إرهاب السلطة، فالسلطة في كثير من دول العالم الإسلامي المعاصرة بعيدة عن مفهوم الشورى، بعيدة عن مفهوم الديمقراطية، موغلة في الاستبداد والدكتاتورية، وموغلة في الفساد حتى الأذقان ؛ وهي تصر على أن تكون آراء المفكرين والكتاب صدى لما تريده هي، أي السلطة. أما الذي يخالف إرادتها فلا بد أن يتعرض للمتاعب.

من الواضح أن التحديات كبيرة لدرجة قد تحمل بعض الناس على الظن بأنه لا فائدة من المواجهة، وأن الاستسلام لهذه التحديات هو الاختيار الأصوب. ومعنى ذلك الحكم بأن الحضارة الإسلامية لا مستقبل لها يرتجى! فدعونا ننظر ونبحث لنكشف إن كان للحضارة الإسلامية مستقبل أم لا.

مستقبل الحضارة الإسلامية

ربما كانت الصورة التي رسمنا خطوطها في الفصل السابق (الثالث)، والتي وصفنا فيها دخول الحضارة الإسلامية مرحلة الضعف والتدهور، شديدة القتامة. ثم جاء حديثنا عن التحديات – في مطلع هذا الفصل – ليزيد الصورة كآبة، وقد يحمل هذا الوصف بعض القراء على اليأس من أي مستقبل إيجابي لهذه الحضارة. غير أننا لم نرد أن نصل بالقارئ إلى هذه النتيجة، لأننا نؤمن بأن لهذه الحضارة مستقبلاً، وأنها لم تصل إلى نهاية المطاف، بل ونرى أنه سيكون لها دور كبير تؤديه لمستقبل البشرية.

وهذا الذي نراه ليس من قبيل الأماني، ولا يستند إلى الاقتناع الديني وحده ، بل إنه يستند إلى حقائق الواقع. ونحن نرى – بجانب ذلك – أن لدى هذه الحضارة ما تعطيه للبشرية، مما يحتاجه عالمنا المعاصر ويفتقر إليه أشد الافتقار. وقولنا ليس مجرد إصدار تقريرات، وإنما سنحاول بيان المبررات الموضوعية لكل هذا الذي نراه، والذي قلناه عن مستقبل هذه الحضارة.

لقد حرصت - منذ بدأت أخط صفحات مسودة هذا الكتاب على تجنب إعطاء صورة زاهية لا تطابق الواقع، فكان حرصي من البداية معنياً ببيان كل ما في الصورة من دواعي الآلم، لكننا نود الآن أن نعيد إليها شيئاً من التوزان.

التحديات باعثة الحضارات:

أكد المؤرخ والفيلسوف البريطاني المعاصر، الراحل، أرنولد توينبيArnold J. Toynbee (1889 – 1975 م) أن قيام الحضارات جاء نتيجة لأن مجتمعات معينة واجهتها تحديات، فردت على هذه التحديات واستجابت لها، ومن خلال التحدي والردChallenge and Response، وفي إطار هذا النضال ولدت حضارة ذلك المجتمع المعني ثم ازدهرت. وقد قسّم توينبي الحضارات التي شهدها تاريخ البشرية إلى إحدى وعشرين حضارة وحاول أن يطبق عليها نظريته، ويسوق البراهين التي تثبت أن كلاً من هذه الحضارات قد نشأت وتطورت من خلال عملية التحدي والرد [13].

ونحن وإن كنا نختلف مع الأستاذ توينبي في بعض ما أورده من تفاصيل، ونختلف معه بصفة خاصة بشأن اعتباره أن خطوات نظريته قوانين مضطردة فإننا نرى أن في نظريته الكثير من الصواب، وأنها تصدق بشكل عام وإجمالي، ولكنها ليست قانوناً صارماً. وما لنا نذهب بعيداً ؟ إن كل واحد منا – أنت أيها القارئ وأنا أيها الكاتب – يعرف من تجاربه الشخصية ومن مشاهداته اليومية أن التحدي يثير رد فعل. فكم من شخص كان خاملاً، أو إنساناً عادياً ثم تعرض للتحدي والاستفزاز فإذا به يتفجر بحراً من الطاقات الكامنة فينجز أعمالا كبيرة تفوق حجم التحدي الأول مرات ومرات. وبطبيعة الحال هناك أشخاص ضعاف يضعفون أمام التحديات ويلوذون بمختلف أساليب الهزيمة والفرار .

---

[13] - Arnold Toynbee, ***A Study of History***, on volume abridgement (London: Oxford University Press, 1970), pp.60-79, 88-163, 915-922.

لكن علينا أن نلاحظ أن التحدي الذي تواجهه الحضارات لا يتم الرد عليه في يوم أو سنة أو عشرات السنين، فهو قد يستغرق قروناً. ولقد ضرب الأستاذ توينبي أمثلة تؤكد هذا المعنى نكتفي بذكر أحدها هنا :
" إن التحدي الذي رفعه الإسلام في وجه الفرنجة (Franks) سكان غرب أوروبا في القرن الثامن الميلادي أثار رداً استمر قروناً عديدة. وهذا الرد لم يقف أثره عن إخراج المسلمين من شبه جزيرة إيبيريا بل تجاوز هدفه الأصلي وحمل الأسبان والبرتغاليين إلى ما وراء البحار إلى جميع قارات العالم ".

إنني أعتقد أن الحضارة الإسلامية تمتلك من القوى المذخورة ما يمكنها من رد تحدي الحضارة الغربية والخروج من هذه المواجهة بإنجاز كبير. ولسنا نقصد الانتصار العسكري والتدمير وإنما نقصد الانتصار الحضاري وتقديم إنجاز يفيد المجتمع الإنساني كله.

المنابع الخيرة ما زالت صافية:

إن ذخيرة الإسلام من المبادئ والقواعد الصالحة لبناء مجتمع متلاحم متوازن قوي ما زالت محفوظة وصافية نفس صفائها الذي أقامت به الحضارة الإسلامية أول مرة بعد أن تلقى رسول الله تلك القواعد من خلال القرآن الكريم وأرساها في عملية بناء المجتمع الإسلامي. وكنا قد عددنا هذه القواعد وأكدتها أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتبعناها بشرح لكل مبدأ، مع سوق النصوص والأدلة التي تؤيد ذلك. إن هذه القواعد ما زالت في حوزة المسلمين، يحتفظون بها رصيداً مذخوراً للإنسانية كلها، وما زالت صافية تفيض بالخير والصفاء الروحي على نفس كل من قرأها بتدبر. ونعيد هنا تعدادها في نقاط، من غير شرح ومن غير أدلتها من النصوص القرآنية لكي نعيد إلى ذهن القارئ وذاكرته وإدراكه أهمية هذه القواعد والمبادئ وعظمتها وصلاحها لكل زمان ومكان، ليستخرج منها كل مجتمع النظام الذي يلائمة ويلائم المرحلة التي يعيشها. ومن أراد أن يلقي نظرة على أدلتها فليرجع إلى الفصل السابع، أو إلى القرآن نفسه حيث مكان الأدلة والآيات :

1- مبدأ المساواة بين الأفراد من حيث القيمة الإنسانية الواحدة، وأن التمايز والتفاضل بينهم لا يقومان إلا على العمل الصالح والسلوك القويم.

2- مبدأ حرية الإنسان، وحرمة دمه وكرامته وماله، بما في ذلك حرمة بيته وحقه في أن لا يتعرض للتجسس عليه، سواء من قبل الأفراد أو من قبل السلطة.

3- مبدأ حكم الشورى الذي يعني اتخاذ القرارات حيال المشاكل العامة الهامة من خلال التشاور المنظم بين أهل الرأي في المجتمع.

4- مبدأ التعاون والتكافل بين أفراد الأمة من أجل تحقيق الخير العام، وفي سبيل تطبيق المثل الإسلامية.

5- مبدأ وحدة الإنسانية المنبثق من أصل التوحيد العقيدي؛ فالله الواحد هو الخالق الواحد للبشر جميعاً؛ وهم عنده سواء من حيث المبدأ، وأصل الإنسان واحد، والفطرة البشرية واحدة. ولذا فإن الشعور بالأخوة الإنسانية هو النتيجة المنطقية التي تنبت من هذه الأصول.

6- مبدأ تحقيق العدالة لجميع الناس، دون تفريق بسبب اللون أو العرق أو الدين أو الجنس.

7- مبدأ احترام العلم، الحض عليه، و الحرص على اكتسابه.

8- مبدأ احترام المرأة، والنظر إليها على أنه شقيقة الرجل، مساوية له في إنسانيتها، ولها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات.

9- مبدأ حب السلم واحترامه والسعي لتحقيقه في العلاقات الدولية والعلاقات الداخلية سواء.

10- مبدأ شمولية التوجيهات الإسلامية العقيدية لكل جوانب الحياة.

ويلاحظ أن هذه المبادئ هي أفكار للتطبيق والعمل، ولكن قبلها ومعها ربى القرآن المسلمين، ورباهم رسول الله كذلك، على أن حياة الإنسان لا تقتصر على الجوانب الحياتية المادية، بل إنه نعى على الماديين حياتهم التي لا هدف لها إلا الحصول على المتعة المادية، فقال القرآن في هذا المعنى : (وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَّهُم) ، [سورة محمد/الآية رقم 12]. فهدف الحياة حسب تحديد القرآن عبادة الله. وعبادة الله ليست بالصلاة وغيرها من الشعائر فحسب ، بل بإقامة الحياة وفق ما يريد الله، بأن تكون للإنسان رسالة في الحياة تتمثل في بذل أقصى الجهد لتكون الحياة طيبة للناس كلهم، كما يريد الله.

هذه المبادئ والأصول ما زالت محفوظة في القرآن الكريم كما قلنا. وقد حرص المسلمون منذ عهد رسول الله على حفظ القرآن الكريم وتابعوا ذلك بأشد درجات العناية واليقظة، وتضافرت على ذلك جهود الملايين من الناس في كل العصور، بالإضافة إلى جهود العلماء وجهود السلطات. والقرآن ما زال بين أيدينا كما كان يتلوه محمد رسول الله، وقد مر معنا في ما سبق أن الرسول قد نهى أصحابه عن كتابة حديثه خشية أن يختلط بالقرآن، وأن هذا النهي منع المسلمين من كتابة الحديث حتى منتصف القرن الثاني للهجرة، بعد وفاة رسول الله بما يزيد على مائة وثلاثين سنة ؛ وذلك باستثناء التدوين الشخصي للإستخدام الذاتي. وما زالت بعض المكتبات والمتاحف الكبرى تحتفظ بنسخ من القرآن الكريم يعود تاريخها إلى القرن الهجري الأول (السابع الميلادي).

وبجانب ذلك فقد حرص المسلمون منذ البداية على أن يكون النص القرآني هو مصدر العقيدة والمفاهيم والتشريعات الإسلامية، وجعلوا أحاديث الرسول مصدراً آخر يشرح المصدر الأول، ويفصل ما أجمله في بعض الحالات، ولم يجعلوا هناك مصدراً ثالثا. أما آراء العلماء والفقهاء مهما علت منزلتهم، سواء كانوا في عصرنا أو في عصر الرسول فهي آراء أشخاص، تعرض وتسمع

وتقرأ، وتقبل أو ترفض، كلياً أو جزئياً. ومن ادعى أن كلام إنسان معين يمكن أن يكون مصدراً للتشريع فإن المسلمين يعتبرون قوله مخرجاً له من دائرة الإسلام.

والخلافات التي ظهرت في الفكر الإسلامي في أقوال البشر، هي أقوال تأثرت بالظروف التي تحدثنا عنها : من الصراع السياسي، إلى الحزبية والمذهبية والتأثر بالأفكار الخارجية الوافدة. والحقيقة أن كثيراً من هذه الخلافات، بل أكثرها، قد زالت تماماً في عصرنا هذا نتيجة لزوال الظروف التي سببتها، وانقراض المدارس والجماعات التي حملتها ونادت بها.

ليست العودة للتشدد والتعصب :

والعودة إلى هذه المبادئ والانطلاق منها لا يعنيان العودة إلى التعصب والتشدد وضيق الأفق، بل إنهما يعنيان العودة إلى رحابة الأفق، والتسامح، والمرونة في كل شيء في إطار هذه المبادئ ؛ نقول هذا مستندين إلى حقائق التاريخ؛ ذلك أن التعصب والتشدد وضيق الأفق لم يحدث في عهد الرسول وعهد صحابته وإنما حدث بعد ذلك، خلال اضطرام الصراعات السياسية والمذهبية ؛ والعودة إلى المنابع الصافية الأولى تعني تجاوز التعصب والتشدد وضيق الأفق وإسقاط مخلفاتها. وبعبارة أخرى فإن الأصول التي تمثلها المبادئ التي عددناها وشرحناها في الفصل السابع، وأعدناها للتذكير في هذا الفصل من غير شرحها هي المنطق الصحيح حين يتجاوز المسلمون المعوقات ويلتفتون إليها وحدها . وهناك عدد آخر من المبادئ التي تسير في الاتجاه نفسه ، تركناه تجنبا للإطالة غير الضرورية .

ومما يساعد على ذلك، ويبعث الأمل في تحقيقه بكل تأكيد أن الأغلبية الساحقة من المسلمين متفقة على حقيقة هامة وهي أن الدين الإسلامي كما جاء من عند الله مبين في مصدرين اثنين فقط لا ثالث لهما :

1- القرآن الكريم بنصوصه الموجودة على صورة واحدة في كل أقطار العالم الإسلامي وجوداً متواتراً ومؤكداً منذ عهد رسول الله وحتى وقتنا الحالي.

2- أما المصدر الثاني فهو الأحاديث الصحيحة التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا المصدر الثاني تابع للمصدر الأول، ودونه في المرتبة، يوزن به، ويوثق أو يضعف بالمقارنة معه بالدرجة الأولى، فإذا خالفه أسقط.

وقد أكد الإسلام أنه لا يجوز لأحد أن يضيف إلى المصدرين الإسلاميين حرفاً واحداً من عنده. وقد يشرح أو يفسر، ولكن قوله قابل للرفض. وهذا الكلام ينطبق على جميع المؤلفين والمفكرين والقادة، بما فيهم صحابة رسول الله، ومنذ عصر الرسول إلى يومنا هذا. وبعبارة أوضح: إن الدين الإسلامي والمفاهيم الإسلامية الصحيحة لا يؤخذان من كلام أي إنسان عدا رسول الله، محمد بن عبد الله. المشرع هو الله وحده والمبلغ عن الله هو الرسول محمد وحده.

إنني أؤكد على هذه النقطة حتى لا يظن أن هذا الشتات وهذا الفكر المنحرف صارا جزءاً من الدين قياساً على ما يحدث في الأديان والمجتمعات الأخرى حيث يشرع البابوات والمجامع الدينية بالنسبة للديانة المسيحية، وحيث يلتقط الناس الدين من أفواه الكهنة.

زد على ذلك أنه لا توجد في الإسلام فئة تحتكر تفسير الدين والحديث فيه ؛ فكل إنسان يستطيع أن يدرس القرآن بنفسه إن بذل الجهد الكافي ويستطيع أن يتحدث إلى الناس ويكتب من غير حاجة إلى أن تكون معه شهادة معينة، أو أن يلبس زياً كهنوتياً خاصاً، أو أن تأذن له بذلك هيئة معينة. وما يشاهد مما يخالف ذلك أحياناً حيث يوجد أناس يلبسون زياً خاصاً ويوصفون بأنهم رجال دين لا يستند إلى أي مطلب شرعي إلزامي، ولا يعتبر الالتزام به ضرورة وهذه حقيقة يسلم بها الجميع.

مؤشرات إيجابية :

وما دامت منابع الخير موجودة ومحفوظة بكل صفائها فهي تمثل مصدر قوة لهذه الحضارة الإسلامية. فلقد كانت الروح الإسلامية في كل العصور هي منبع القوة في مواجهة التحديات. والشعوب الإسلامية لا تنقصها روح التضحية، وإنما ينقصها وضوح الطريق، فإذا اتضحت فإن هذه الشعوب ليست أقل استعداداً وتضحية وبذلاً من أي شعب آخر في العالم. فحين تمكنت الدول الاستعمارية الأوروبية من احتلال أقطار الحضارة الإسلامية كانت القضية واضحة فقاوم المسلمون المستعمرين حتى أجلوهم عن بلادهم، وقدموا لذلك أكبر التضحيات. فالجزائر مثلاً احتلتها فرنسا من سنة 1830م إلى سنة 1962م. ورغم أن فرنسا اعتبرت الجزائر أرضاً فرنسية، ضمتها إليها وجعلت لها نواباً في البرلمان، فإن مقاومة الشعب الجزائري المنبثقة من رصيده الإسلامي حطمت الصلف الاستعماري وأجبرت فرنسا على الجلاء من خلال جهاد مسلح قدم الجزائريون أثناءه مليون ونصف مليون شهيد. ولقد كانت الروح الإسلامية هي مصدر المقاومة وأداة الانتصار في جميع حركات لاتحرر التي شهدتها البلاد الإسلامية، من أندونيسيا، إلى باكستان، إلى العراق، إلى مصر وسوريا وبلدان شمال أفريقيا والسودان والصومال.

والذي يعيق الانطلاقة في الوقت الحاضر هو ما تبقى من الشتات الفكري. لكن الشعوب الإسلامية ليست في حالة سكون، إنها في حالة مخاض، حالة توتر فكري يعبر عن نفسه بكثرة الحركات والصراعات والخلافات التي تشهدها الساحات الإسلامية. ويوم تصل الجماهير الإسلامية – أعني أغلبية شعب معين منها – إلى رؤية مشتركة لطريق الخلاص فعندها ستسقط كل العوائق.

إننا واثقون من أن الولادة ستتم في النهاية بإذن اللـــه ، وأن النتيجة ستكون لخير البشرية كلها ، مسلميها وغيرهم ممن يعيش على أديم هذا الكوكب الأرضي . وكن علينا أن تذكر ونعي قول الله سبحانه وتعالى : "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنغســــــــــهم. "

((ربنا آتنا من لدنك رحمـــة وهـئ لنـا مـن أمـرنـا رشتـــدا))

وآخر دعـوانا أن الحمـد للـه رب العـالـمين ،

والســــلام عليكم ورحمـة الله وبركاته.

الحواشي

القسم الثاني

الفصل الأول :

172-حدثت حركة الردة بعد وفاة رسول الله، في أول سنة من خلافة أبي بكر. انظر ص 151 في ما سبق.

173- أحمد بن حنبل، المسند، مجلد 5، 220 – 221؛ وانظر سنن أبي داود، 8، وكذلك الترمذي، باب الفتن، 48.

174- أول ما ظهر أولاد أسد بن سامان كانوا ولاة على الأقاليم الشرقية للدولة العباسية ابتداء من سنة 204هـ / 819م. وقد امتدت دولتهم – بعد استقلالهم سنة 261هـ / 874م – من حدود الصين شرقاً إلى جنوب بحر قزوين غرباً. وكانت عاصمتها بخارى، وسقطت الدولة السامانية سنة 381م / 999م.

175- وفي سنة 317هـ م 929م أعلن أمير اسبانيا الإسلامية (الأندلس)، وهو عبد الرحمن الثالث الأموي، أعلن نفسه خليفة للمسلمين. وانطوى إعلانه على عدم الإعتراف بأي من الخلافتين العباسية في العراق والفاطمية في أفريقيا (تونس). وهكذا تعرض المفهوم الإسلامي لوحدة السلطة السياسية في الدولة الإسلامية إلى امتحان وتحد خطير ظل قائماً في العصور التالية حتى أصبح مألوفاً.

176- كان سبكتكين حاكماً لإقليم خراسان إذ ولاه عليه الأمير نوح بن نصر الساماني، واستطاع هو وابنه محمود من بعده أن يوسعا ملكهما في وسط آسيا وفي شبه القارة الهندية عبر الهملايا، وأصبح محمود الغزنوي أعظم حكام عصره فتحاً وملكاً ورعاية للعلم والأدب والفنون والحضارة.

177- عن هذه المواجهة أنظر أبو الحسن علي بن الأثير، **الكامل في التاريخ**، بيروت : دار صادر، مجلد 10، ص 65 – 67، وانظر كذلك :

George Ostrogorsky, **History of the Byzantine State,** Translated into English by John Hus-sy, Oxford B. Blackwell, 1968, PP. 343-5.

178-عن وحشية الأوروبيين الصليبيين عند استيلائهم على القدس انظر ما كتبه المؤرخ البريطاني

S. Runciman, **A History of the Crusades** (3 Vols.), Cambridge : 1951, Vol, 1, PP. 286 – 287.

179- الوهق حبل تعقد به عقدة واسعة يقذف به الصياد حول عنق طريدته سواء كانت إنساناً أو حيواناً ليشد الحبل ويجذب الفريسة إليه.

180- يقصد اكتشاف المحيطات والسيطرة عليها.

-181

Arnold Toynbee, **Civilization on Trial and the World and the West,** New York: The World Publishing Co., P. 248.

الفصل الثاني :

182- وهذا مثل حيّ من صحيح البخاري : قال البخاري : حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا هشام، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فيكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ". ففي هذه الرواية نجد ستة أشخاص يفصلون بين البخاري والنبي، وقد ولد البخاري بعد 184 سنة من وفاة رسول الله.

183- شمس الدين أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان، مجلد 3، ص 415 – 416.

184- الأستاذ Bibb من أشهر العلماء البريطانيين المتخصصين في الدراسات العربية والإسلامية، وقد عمل أستاذاً في جامعتي أكسفورد ولندن في بريطانيا، كما عمل أستاذاً في جامعة هارفارد الشهيرة في الولايات المتحدة.

-185

H. A. R. Gibb, **Arabic Literature, An Introduction.** 2nd ed. , (Oxford :
the Clarendon press, 1963), P. 13.

186-انظر

A. V. Williams Jackson, **Zoroaster** (New York : AMS Press Inc., 1965), **PP** 7 – 8

وقد استقى جاكسون معلوماته من المؤرخين الإغريق القدامى، ممن عاشوا قبل العصر الميلادي.

187- توفي الكندري سنة 253هـ / 867م.

-188

D. Meyerhof, **Legacy of Islam,**London, 1931, P323.

-189

D. M. Dunlop, **Arab Civilization to AD 1500,** Longman Group Ltd., London 1971, **P. 192.**

-190

a) D.M. Dunlop, **Arabic Science in the West,** published by Historical Society of Pakistan, 1965.

والمؤلف أميركي وأستاذ في جامعة كولومبيا في نيويورك.

b) A.Mieli, **La science Arabe et son Rote dans I'Evolution scientiffique** (Leiden : Brill, 1939).
وله ترجمة عربية صدرت عن دار القلم في القاهرة، 1962.
c) D.M. Dunlop, **Arab Civilization to AD 1500.** Longman Group Ltd., London, 1971.
زغريد هونكه
d) Sigrid honke, **Allahs Sonne Uber Dem Abendland Unser Arabisches Erbe** Deutshe Verlag – Anstalt, Stuttgart, 1975. (شمس الله لا تسطع على الغرب)
e) John R. Hays (ed.) **The Genious of Arab Civilization** (New York : Colombia University Press, 1975).
Published by Mobil oil Co.
وله ترجمة عربية أصدرها مركز الوثائق والدراسات في أبوظبي بعنوان : عبقرية الحضارة العربية، 1977.
f) George Sarton, **An Introduction to the History of Science,** London.
191-
Titus Burckhardt, **The Art of Islam, language and Meaning,** Westerham
Press Ltd., Westerham, kent, England, 1976, P. 117.
192- نفس المصدر، ص 1. وانظر كذلك بحث أوليغ جرابار في كتاب عبقرية الحضارة العربية، ص 90 – 92.
193- بحث أوليغ جرابار في كتاب عبقرية الحضارة العربية، ص 93 – 94.
194- أحمد بن عمر بن رستة، **كتاب الأعلاق النفيسة**، المجلد السابع، بعناية M.J. De Goeje (Leiden : Brill, 1981) الصفحات من 9 – 7.
وانظر محمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، حققه نفس المستشرق الهولندي De Goeje دي خويه، وطبع في ليدن أيضاً سنة 1906م، ص 58.
195- عبد الرحمن بن أحمد المشهور بابن رجب الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة (القاهرة : مطبعة السنة المحمدية، 1952م) جـ 1، ص 146؛ ابن الجوزي، المنتظم، 9، 214.
196- عبد الرحمن بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مجلد 9، ص 9.
197- أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص 35.
198- أبو حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، مجلد 1، ص 15.
199-
Stanley Lane-Poole, **The Moors in Spain** (Beirut : Khayats, 1976 – reprint), PP. 131-132.

200- المصدر نفسه، ص 135- 6، و الكلام هنا للمؤرخ البريطاني.
201- المصدر نفسه، ص 144 – 7.
202- المصدر نفسه، ص 151.
203- المصدر نفسه، ص 279 – 280.

الفصل الثالث :

204-يراجع ما كتبناه عن هذه الأسر الحاكمة في فصل سابق ص 163 – 173.
205- أطلق عليهم اسم الصوفية لأن الجماعات الأولى منهم كانت تلبس ملابس خشنة مصنوعة من الصوف، وكان لبسها يعد مظهراً من مظاهر الزهد.
206- انظر ص 176 – 180 في ما سبق.
207- قارن مع ما سبق، ص 180 182.

الفصل الرابع :

208-ما زالت إسبانيا تحتل مدينتي سبته (Ceuta) ومليلة في أراضي المملكة المغربية. ولقد اندمجت مناطق وسط آسيا الإسلامية في الشعوب السوفيتية، وأمر بقائها واستقلالها شأن تقرره هي، ولا يقرره المسلمون من الخارج.
209- عرضت بريطانيا نص وعد بلفور على رئيس الولايات المتحدة ودرو ولسون وعلى الحكومة الفرنسية وحصلت على موافقة الطرفين قبل إصدار إعلان بلفور.
Arold J. Toynbee, **A Study of History,** one volume Abridgement,
(London Oxford University Press, 1970) PP. 60 – 79, 88 – 163, 915 – 922.

210- المصدر نفسه، ص 160.
211- يراجع الفصل السابع ص 83 – 123 أعلاه.
212- القرآن، سورة محمد، الآية رقم 12.
213- معناها الحرفي الانتخاب الطبيعي، ولكن جوهر الفكرة هو أن البقاء للأقوى.
214- نشر الحديث في جريدة الاتحاد الصادرة في أبوظبي (ص 3) يوم 1987/1/25 نقلاً عن وكالة الصحافة الفرنسية.
215- ترجم الكتاب إلى العربية ونشرته دار عويدات 1986 بعنوان : حوار الحضارات.

بعض المراجع التي يمكن الرجوع إليها

1- **القرآن الكريم** وهو الكلام الذي تلقاه رسول الله، وبلغه إلى الناس في حياته، وكان يكتب فور تلقى رسول الله له، وقد تم جمعه في عهد الخليفة الأول لرسول الله، أي خلال سنتين من وفاة رسول الله، حيث جمعت الأجزاء المتفرقة المكتوبة على الرق، والعظام، وسعف النخيل، ومن حفظ الرجال، وحفظت. وظلت ملايين النسخ من القرآن تتداول منذ ذلك العصر إلى الآن دون انقطاع، ودون خلاف في النص. ولمعاني القرآن ترجمة يابانية.

2- محمد بن إسماعيل البخاري. **الجامع الصحيح.** توفى البخاري سنة 870م والكتاب يضم مجموعة أحاديث الرسول، وهي ما نسب إليه من قول أو عمل أو إقرار. ويعتبر الكتاب أصح كتب الحديث عند المسلمين، وقد ظهرت منه آلاف النسخ المخطوطة، ومئات الآلاف من النسخ المطبوعة، وهو في عدة مجلدات، وقد شرحه أكثر من واحد من العلماء.

3- مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم.** توفي سنة 875م. ويعتبر كتابه أصح مجموعات الأحاديث بعد البخاري.

4- ابن هشام. **سيرة رسول الله.** توفي ابن هشام حوالي سنة 833م، وقد نقل هذه السيرة عن مؤلف سابق له هو محمد بن إسحاق المتوفي 768م، بعد أن اختصرها. وفي هذا الكتاب مادة السيرة الأصلية لكنها خلطت بروايات خيالية لا يقبلها علماء المسلمين.

5- محمد بن جرير الطبري. **تاريخ الرسل والملوك.** توفي الطبري سنة 922م والكتاب في عشر مجلدات في طبعته المصرية تضم حوالي ستة آلاف صحفة، والمؤلف يذكر كل الروايات التي وصلته عن الحادثة الواحدة مع ذكر مصادره ومن نقلوا عنهم. وأحياناً يرجح إحدى الرويات. وظهرت منه أكثر من طبعة أوروبية، خاصة في ليدن في هولندا، في أربعة عشر مجلداً.

6- علي بن الأثير. **الكامل في التاريخ.** توفي ابن الأثير سنة 1233م. ويقع كتابه في اثني عشر مجلداً، ويغطي القرون الستة الأولى من التاريخ الإسلامي، ويختلف أسلوبه عن الطبري في أنه ينقل الرواية التي يختارها.

7- أبو الفدا اسماعيل بن كثير. **البداية والنهاية.** توفي أبو الفدا سنة 1372م.

8- عبد الوهاب خلاف. **علم أصول الفقه**. وله ترجمة يابانية.

9- روجيه غارودي. **وعود الإسلام** (مترجم عن الفرنسية)، بيروت، 1984.

10- روجيه غارودي. **الإسلام دين المستقبل،** مترجم عن الفرنسية. دمشق، دون تاريخ.

11- روجيه غارودي. **حوار الحضارات،** مترجم عن الفرنسية. صدر في باريس عن دار عويدات، 1986.

-12 Sir Thomas Arnold. **The Preaching of Islam.**
أعادت طبعه مؤسسة Sh. Muhammad Ashraf,
Kashmirei Bazar, Lahore, Pakistan.
وأهمية الكتاب أن يتتبع عمليات الانتشار السلمي للإسلام في جميع أنحاء العالم، وبموضوعية
تامة. وكان مؤلفه من أبرز المستشرقين البريطانيين.

-13 Abd-al-Rahman ‘Azaam. **The Eternal Message of Muhammad.** London: Quartet books, 1979.

-14 Khurshid Ahmad (ed) **Islam, Its Meaning and Message,** London Islamic Foundation, 1976.

-15 F.M. Sandeela. **Islam – Christianity – Hinduism A Comparative Study.** Darachi: Ashraf publications, 437/D.G.E.
Karachi – 5 Pakistan.